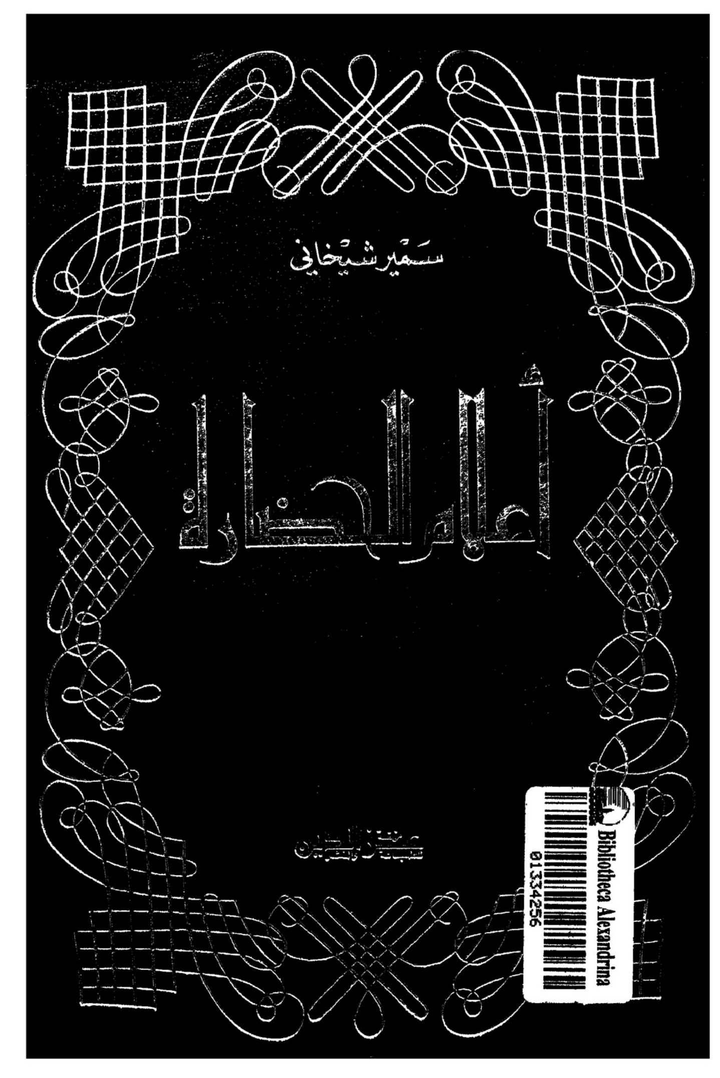

سمير شيخاني
أعلام الحضارة

أعـلام الحضـارة

سمير شيخاني

# أعلام الحضارة

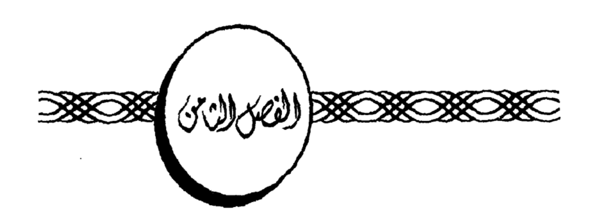
الجزء الثالث

مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر

الطبعة الثانية
١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

مؤسسة عز الدين
للطباعة والنشر

هاتف : ٨٣١٦٤٠ - ٨٠٠٦٢١ - ٨٦٢٤١٤ - ٨٦٢٠٥١
ص.ب: ١٥٥١٢٥/١٣ بيروت - لبنان




## ٣٤ من أعلام العرب

### (أدب، فكر، علم)

### (حسب التسلسل الزمني لتاريخ الوفاة)

أبو الأسود الدؤلي : مؤسس علم النحو

عبد الله بن المقفّع : مصمّم النثر الفني ورائد الانشاء

جابر بن حيّان : الحجة في الكيمياء

موسى بن شاكر وبنوه الثلاثة: المتقدّمون في العلم

محمد بن موسى الخوارزمي : صاحب أعظم عقل علمي في عصره

يعقوب بن إسحق الكندي : فيلسوف العرب

أبو عثمان الجاحظ : أبو الأدب العربي

أبو معشر البلخي : صاحب الإصابات العجيبة

ثابت بن قُرّة : الحلقة الضرورية في تطور العلم العربي

البتّاني : أحد العشرين فلكياً المشهورية في العالم كله

أبو بكر الرازي : أبو الطب العربي

أبو نصر محمد الفارابي : فيلسوف الإسلام والمعلم الثاني
علي بن الحسين المسعودي : بلينوس أو هيرودوتس الشرق
أبو الفرج الأصبهاني : سمع عصره وبصره
بديع الزمان الهمذاني : رائد القصة العربية والمقالة الصحفية
إبن يونس : مخترع رقاص الساعة
أبو حيّان التوحيدي : فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة
إبن سينا : شيخ الأطباء والفلاسفة
إبن الهيثم : منشىء علم الضوء الحديث
أبو الريحان البيروني : أعظم عقلية عرفها التاريخ
أبو العلاء المعرّي : رهين المحبسين
إبن حزم : مجموعة المواهب والعبقريات
أبو حامد الغزالي : حجة الإسلام وزين الدين
إبن زهر : أسرة أندلسية نابغة في الطب والأدب، والشعر، والسياسة
إبن باجه : إمام علماء الأندلس وأول مشاهير الفلاسفة العرب فيها
إبن طفيل : أحد أصحاب الكفايات النادرة
شهاب الدين السهروردي: مبدع الفلسفة الإشراقية
إبن رشد : شارح المعلم الأول
إبن البيطار : إمام النباتيين وعلماء الأعشاب
نصير الدين الطوسي العلامة وأكبر رياضيي العرب
إبن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء
إبن النفيس : مكتشف الدورة الدموية الصغرى
إبن منظور : لسان العرب
إبن خلدون : أول فلاسفة التاريخ

# أبوالأسود الدؤلي: مؤسس علم النحو

(٠٠٠ ـ ٦٩٠)

« أبو الأسود معدود في طبقات من الناس . وهو في كلها مقدم مأثور عنه الفضل في جميعها. كان معدوداً في التابعين، والفقهاء، والشعراء، والمحدثين والأشراف، والفرسان، والأمراء، والدهاة، والنحويين، والحاضري الجواب، والشيعة، والبخلاء، والصلع الأشراف، والبخلاء الأشراف».

**صوت:** هذا ما يقوله الجاحظ عن أبي الأسود الدؤلي الذي نستضيفه في هذا اللقاء وسنخص بعض هذه الجوانب التي عدَّدها شيخ أدباء العرب من شخصية أبي الأسود الذي يقترن اسمه بأولية علم النحو، تعتبر من أبرز صفاته. . .

**أبو الأسود:** تُرى أية جوانب تعتبر من أبرز صفاتي، يا سيدي؟

**صوت:** النحو، والشعر، والبخل، والدهاء، وحضور الجواب. . . واسمح لي أن استهل الحوار بما أُثر عنك من نوادر في البخل. فقد قيل:

«بخلاء العرب أربعة هم: الحُطيئة، وحُمَيدْ الأرقط، وأبو الأسود الدؤلي، وخالد بن صفوان. . .»

فأما الحُطيئة فمرَّ به إنسان وهو على باب داره وبيده عصا فقال: أنا ضيف. فأشار الحطيئة إلى العصا قائلاً: لكعاب الضيفان أعددتها.

وأما حُمَيْدُ الأرقطْ فكان هجّاءً لِلضيفان فحّاشاً عليهم، نزل به مرة ضيوف فأطعمهم تمراً وهجاهم، وذكر أنهم أكلوه بِنَوَاهْ.

وأما أبو الأسود فتصدّق على سائل بتمرة فقال له: جعل الله نصيبك من الجنة مثلها... وكان يقول لو أطعنا المساكين في أموالنا كنا أسوأ حالاً منهم!

وأما خالد بن صفوان فكان يقول للدرهم إذا دخل عليه: يا عيّار كم تُعيرُ وكم تطوفُ وتطيرُ، لأُطيلنَ حبسك». ثم يطرحه في الصندوق ويقفل عليه. ومرة «سئل لمَ لا تنفق ومالُكَ عريض؟ فأجاب: لأن الدهر أعرض منه».

أبو الأسود: ماذا تريد، يا سيدي العزيز لو أطعنا المساكين في أموالنا كنا أسوأ حالاً منهم.

صوت: وأنت القائل على سبيل الدفاع عن البخل: «إمساكُكَ ما بيدك خيرٌ من طلبك ما بيد غيرك.

أبو الأسود: وقد أنشدت شعراً في هذا المعنى:

يلومونني في البخل جهلاً وضَلَّةً
وَلَلْبُخْلُ خيرٌ من سؤال بخيل

صوت: يذكّرني قولك بنادرة جرت لك مع جار موسر بعثت

تستسلفه عندما احتجت ذات مرة وكنت حسن الظن به. . .

أبو الأسود: . . . فاعتلّ عليّ وردّني، فقلت في ذلك:

لا تُشعِرَنَّ النفَس يأساً فإنما
يعيشُ بِجِدٍ حازمٌ وبليدُ
ولا تَطْمَعَنْ في مال جارٍ لقُرْبهِ
فكل قريبٍ لا يُنالُ بَعيدُ

صوت: صحيح والله، وهذا يؤيد نظريتك في الحرص والبخل. ومرة أخرى كتبت إلى آخر تستسلفه فكتب إليك: المَؤُونةُ كثيرة، والفائدة قليلة، والمال مَكذوبٌ عليه». فماذا أجبته؟

أبو الأسود: كتبتُ إليه: «إن كنتَ كاذباً فجعلك الله صادقاً، وإن كنت صادقاً فجعلك الله كاذباً».

صوت: وهذه أخيراً نادرة عن البخل الذي اشتهرت به قبل الانتقال إلى صفة أخرى من صفاتك هي الدهاء. فقد أكل معك أعرابي رَطْباً فأكثر. فمددتَ يدك لتتناولها، فسبقك الأعرابي إليها فسقطتْ منه في التراب. . .

أبو الأسود: . . . فأخذتها قائلاً: لا أدَعُهَا للشَيْطان يأكلُها. . .

صوت: فقال الأعرابي: والله لاجبريل وميكائيل لو ينزل من السماء ما تركتها !

أبو الأسود: إليك، يا سيدي، أخيراً ما قلته لبنيَّ في موضوع الفقر

والغنى: «لا تُطيعوا المساكين في أموالكم، فأنهم لا يقنعون منكم حتى يَرَوْكُمْ مثلهم... ولا تُجاوِدُوا اللهَ، فأنه لو شاء أن يغني الناسَ كلهَم لفعل، ولكنه علم أن قوماً لا يُصْلِحُهم الغنى ولا يَصْلُحُ لهم إلاّ الفقر، وقوماً لا يُصْلِحهم الفقر ولا يَصْلُحُ لهم إلاّ الغنى».

صوت: ونتنقل إلى صفة الدهاء، وأبلغ دليل عليها ما يتعلق بيوم صِفِينّ والتحكيم. يُروى أنه لما قدمت على معاوية عامَ الجماعة، قال لك معاوية:

- بلغني، يا أبا الأسود، أن عليّ بن أبي طالب أراد أن يجعلك أحد الحكمين فما كنت تحكم به؟

أبو الأسود: قلت لمعاوية: لو جعلني أحدهُمَا لجمعت ألفاً من المهاجرين وأبناء المهاجرين، وألفاً من الأنصار وأبناء الأنصار، ثم ناشدتهم الله: المهاجرون وأبناء المهاجرون أولى بهذا الأمر أم الطلقاء؟ فقال معاوية:

- لله أبوك أيَّ حكم كُنتَ تكونُ لو حُكِمّتْ؟

صوت: ولقد أحسن معاوية التعبير... فللّه أبوك حقاً... ونظر المنزر بن أبي سَبْرة إليك وعليك قميص مرقوع، فقال لك: ما أصغَرَك على هذا القميص؟ فقلتَ له: رُبَّ مملوكٍ لا يُستطاع فراقه. فبعث إليك بتخت من ثياب...

أبو الأسود: فقلتُ في ذلك:

كسـاني ولـم أستَكْسِـهِ فـحـمـدْتـهُ
أخٌ لـكَ يُعطيك الجزيـلَ ونـاصرُ
وإن أحقَّ النـاسِ إن كنتَ شـاكـراً
بشكـركَ من أعـطاكَ والعِـرْضُ وافِـرُ

صوت: وعلى حضور الجواب وسرعة البديهة نتمثل بهذه النادرة. فقد دخلت على معاوية وقد خُضِب، فقال لك:

- لقـد أصبحتُ، يـا أبـا الأسـود، فلو عَلَّقْتُ تميمة؟

صوت: فأنشأتَ تقول شعراً، هلاّ رددّته علينا؟

أبو الأسود: أفنى الشبـابَ الـذي فـارقتُ بهجتَـهُ
مَـرُّ الجَـديـدين من آتٍ ومُنـطلِقِ
لم يُبقيـا ليَ في طـول اختـلافـهـما
شيئـاً يُخـافُ عليـه لـذعـةُ الحَـدَقِ

صوت: الجديدان هما الليل والنهار، أليس كذلك؟

أبو الأسود: أحسنت، يـا سيدي، في لفتـك النظر إلى شـرح المعنى!

صوت: وقبل أن ننتقل إلى الصفتـين الأخريـين، وهما بيت القصيـد في هذا اللقـاء، دعنا نستعـرض ترجمتـك باختصار. فلقـد عُرفت بكنيتك واشتهرت بهـا. . . فأنت أبو الأسود الدؤلي. . .

أبو الأسود: . . . أو الدِيَلي، على لغة أهل الكوفة.

صوت: ويختلف المؤرخون في اسمك واسم آبائك. فأنت على ذلك ظالم بن عمر، أو ظالم بن ظالم...

أبو الأسود: ... أو ظالم بن حلبس، أو ظالم بن سُراقة، أو عثمان بن عمرو... وكنتُ تابعياً، أي أنني لم أرَ النبيَّ بعيني.

صوت: عِشْتَ خمساً وثمانين سنة، وكانت ولادتك في الجاهلية، ووفاتك في البصرة بالطاعون الجارف سنة ٦٩٠ وكنت أعرج، وقد أُصبتَ بالفالج.

أبو الأسود: ومع ذلك لم ألزم داري في آخر أيام حياتي، بل كنت دائم الخروج إلى السوق...

صوت: ... على الرغم من أنك كنت في غنى عن ذلك نظراً لثروتك، وما كان لديك من عبيد وجَوَارٍ. وفي هذا الأمر يقول أبو الفرج الأصبهاني:

ـ «وكان أبو الأسود الدؤلي قد أسنّ، وكان مع ذلك، يركب إلى السوق والمسجد، ويزور أصدقاءه. فقال له رجل: يا أبا الأسود، أراك تكثر الركوب، وقد ضعفت عن الحركة وكبرت ولو لزمت منزلك لكان أودع لك. فقال له أبو الأسود: صدقت ولكن الركوب يشد أعضائي. وأسمع من أخبار الناس ما لم أسمعه في بيتي. واستنشق الريح، وألقى أخواني. ولو جلست في بيتي لاغتم أهلي، وأنِسَ بي الصبي، واجترأ عليّ الخادم، وكلمني من يهاب كلامي لإلفهمْ إياي وجلوسهم عندي، حتى لعلّ العنزاتِ تبولَ عليّ فلا يقول لها أحد: هِشْ!»

أبو الأسود: ألستُ مصيباً في رأيي هذا، يا سيدي؟

صوت: أنت، يا أبا الأسود، بإجماع الكثيرين من المفكرين والمؤرخين واضعُ الحجر الأساسي للنحو العربي، وقد ثبَّتَ النُطَق الصحيح لقراءة القرآن. وأقول الكثيرين من المفكرين والمؤرخين لا كلهم لان لبعض المستشرقين رأياً ينفي عنك وضع النحو جملة وتفصيلاً، وهم يشكوّن في كل الأخبار والروايات الخاصة بعلاقتك بهذا الموضوع، ويعزونها إلى النحاة البصريين. ولكن ما لنا ولهذا فهات حدثنا عن كيفية اهتمامك بالموضوع الخطير هذا .

أبو الأسود: الواقع أنني رأيت اللحن، أي الخطأ في الأعراب لدى القراءة ومخالفة وجهِ الصَواب، قد انتشر بين العرب، حتى أنني تبيَّنتُ أعراضه في بيتي ومن ابنتي بالذات. وقد هالني مرة اللحنُ الذي سمعته من أحد الموالي في القرآن. ولما كانت قراءة القرآن قراءةً صحيحة من أهم الأمور، وينبغي تقويم اللسان العربي حتى لا ينحرف وتفسد اللغة العربية ويفسد اللفظ المؤدي إلى فساد المعاني اتجهت جهودي إلى ضبط إعراب الكلمات وتصوير الحركات وتحسينها.

صوت: إذن فمرحلة النحو في بادىء أمرها كانت ضبطاً لحركات الاعراب، وهي حركة مضادة لانتشار اللحن؟

أبو الأسود: ولم تكن حركة الاعراب مجرد زينة وزخْرُفُ، إنما كانت للدلالة على المعاني في الجمل. فلما استشرت

الامام علي بن أبي طالب في كيفية معالجة هذا الموضوع وبينت له ما أود عمله، أقرّني عليه، فاخترت امرأً وقلت له: خذ المصحف الكريم وصِبْغاً يخالف لون المِداد، فإذا فتحت شفتي عندالحرف فانْقُط واحدة فوقه، وإذا ضممتُها فاجعل النقطة إلى جانب الحرف، وإذا كسرتها فاجعلِ النُقطة في أسفله. وإذا أتْبَعْتُ شيئاً من هذه الحركات غُنَّةً فانقطْ نقطتين. وهكذا ابتدأت حتى أتيت على آخره.

صوت: وأعتقد أنه يهمك أن تعرف، يا أبا الأسود، أن هذا الشكل الذي ابتدعته بقي مستعملاً، في كتابة المصاحف حتى عصر العباسيين، عندما ظهر للخليل إبن أحمد أن في استخدام مدادين أحدهُما أسود لكتابة الكلمات، والآخر احمرُ لِنُقط الشكل الذي ابتكرته فيه الكثير من الصعوبة والضجر، فعمد إلى تسهيل الأمر على الناس.

أبو الأسود: وماذا فعل، يسرني أن أعرف ذلك؟!

صوت: «لقد استبان له أن فَتْحَ الحرف لو أُطيل لتولَّد منه ألِف، وأن ضمَّه لو أطيل لتولد منه واو، وأن كَسْرَهُ لو أطيل لتولد منه ياء. فجعل للدلالة على فتحه ألِفاً راقدة فوقه، وعلى ضمه واو صغيرة فوقه، وعلى كسره مدة ياء تحته. وجعل للسكون رأس ميم، وللتضعيف أسنان سين. وهكذا استطاع الناس الكتابة بمدادٍ واحد».

أبو الأسود: لقد أحسن الخليل بن أحمد صنعاً في ابتكاره هذا.

والحقيقة أنه لم يخطر ببالي مثل هذا الخاطر الرائع.

صوت: وفي هذا المجال أودّ أن أقرر أمراً واقعاً خدمةً للتاريخ والحقيقة، وهو أنك كنت على معرفة ببعض قواعد النحو السرياني، وفيه مصطلحات للحركات تُشبهُ المصطلحات التي وضعتها على غرار المصطلحات السريانية. ذلك بأن الآداب السريانية كانت في العراق قبل الاسلام، ولذا كان من السهل وضع قواعد عربية على نمط القواعد السريانية، وبخاصة أن اللغتين السريانية والعربية من أصل واحد.

أبو الأسود: ومن هنا كان البصريون السباقين إلى وضع النحو، وتلاهم في ذلك الكوفيون. وتفوّق البصريون بسبب قربهم من البادية العربية، وبُعد الكوفيين عنها.

صوت: ولم يكن غريباً أن ينشأ النحو في العراق بدلاً من نشوئه في الحجاز أو الشام، لأن الحجاز لم يكن بحاجة إلى قواعد تضبط لغته مثلما كان موالي العراق من الفرس الذين كانوا يـ ـبون في تعلم العربية.

أبو الأسود: صحيح ما تذهب إليه يا سيدي، ولا سيما بعد أن عمّ الاسلام جزيرة العرب ودخل فيه قوم من جنسيات وقوميات مختلفة وكان لا بدّ لهم من قراءة القرآن وتعوزهم السليقة العربية.

صوت: ونختتم هذا اللقاء، بالقول أن شعرك الذي أوردنا بعضه في مستهل هذا الحوار مع النوادر التي ذكرنا، لا يقل أهمية عن الجانب النحوي من آثارك. فلك ديوان استنسخه في حياتك أحد تلاميذك. ويؤخذ

عليك أن شعرك يدور في مواضيعه حول نوازعك في البيئة التي كنت تعيش فيها دون أن يصورها كاملة، مع أنك عشت أحداثاً خطيرة أوجدها ظهور الاسلام، وكان حرياً بك أن تتناولها لا أن تقتصر على نواحي ضيقة من نواحي عصرك.

أبو الأسود: الحقيقة أنك مصيب في رأيك، فقد شُغلت عن الأهم بالمهم، واعترف لك بتقصيري في هذه الناحية!

# إبن المقفَّع: مصمّم النـثر الفني
## ورائـــد الانشاء
## (٧٢٤ - ٧٥٩)

صـــوت : عبد الله بن المقفع، إمام من أئمة الفكر، هضم عقله مختلف الثقافات، واستخلص منها زبدة العصور في الفلسفـة والسياسـة والاجتماع. روى ابن سـلّام الجمحي أنه سمع مشايخهم يقولون: «لم يكن للعرب بعد الصحابة أذكى من الخليل بن أحمد ولا أجمع، ولا كان في العجم أذكى من إبن المقفع ولا أجمع!» ولقد كان في نظر إبن النديم، صاحب «الفهرست» أحد البلغاء العشرة المعدودين. وجعله الجاحظ مقدَّماً في بلاغة اللسان والقلم والترجمة واختراع المعاني وابتداع السير. وهو القائل عندما سئل لماذا لم ينظم الشعر:

إن الذي يأتيني منه لا أرتضيه، والذي أرتضيه لا يأتيني.

وقال جعفر بن يحيى:

- «عبد الحميد أصـل، وسهل بن هـرون فرع، وأحمد بن يوسف زهر، وابن المقفع ثمر».

وأخيراً، يقول الأصمعي:

- «إن ابن المقفع نبيل، شريف النفس، حقيق بالتفات الناس إليه».

وعلى ذلك كان لنا هذا اللقاء مع صاحب «كليلة ودمنة»، و«رسالة الصحابة»، و«الأدب الصغير»، و«الأدب الكبير»، عبد الله بن المقفع، لنتحاور قليلاً حول سيرته وأدبه.

إبن المقفع: على الرحب والسعة، يا سيدي... يسرني كثيراً أن نلتقي لنتحاور قليلاً في ما ذكرت. فقبل أن أعرف باسم عبد الله بن المقفع كنت أعرف باسمُ روزِبَهْ بن دَاذُوَيْه، وقد أبصرت النور في قرية بفارس إسمها جور سنة ١٠٦ للهجرة، أو ٧٢٤ للميلاد. ومعنى إسمي بالفارسية «المبارك»!

صوت: وقد عمل أبوك داذُويه للحجاج بن يوسف فتولّى خراج خراسان. فامتدت يده إلى أموال الجباية فرفع أمره إلى الحجاج، فضربه في البصرة حتى تقفعت يداه، أي تقبضت وتشنجت أصابعها فعرف بالمقَفّع... وعرفت أنت بابن المقَفَّع.

إبن المقفع: ولكن ما رأيك في الرواية الثانية التي تقول ان الصواب هو ابن المقفع بكسر الفاء المشدَّدة.

صوت: هذه الرواية ضعيفة، يا أبا محمد... أوردها ابن خلِّكان في كتابه «وفيات الأعيان» عن إبن مكّي، في كتاب «تثقف اللسان» إذ قال:

- «ويقولون إبن المَقَفَّع، والصواب إبن المَقَفِّع لأن أباه كان يعمل القِفاع ويبيعها».

والقِفاع جمع قفعة، وهي شيء يعمل من الخوص شبيه بالزنبيل، لكنه بغير عروة.

ويمضي إبن خلكان فيقول:

- «والقول الأول هو المشهور بين العلماء».

إبن المقفع: وعلى ذلك أكون إبن المَقَفَّع، بفتح الفاء المشددة.

صوت : إتفقنا... ولما أسلمت تحوّل إسمك رُوْزِبَهْ إلى عبد الله، وكُنِّيتَ أبا عمرو، ثم أبا محمد، وهكذا عرفت بين العرب. وقد نشأت بالبصرة متصلاً بالولاء، كأبيك، بآل الاهتم وكانوا ذوي فصاحة، فثقفتها عنهم...

إبن المقفع : وعني أبي بتأديبي، وتخريجي في صناعة الكتابة، شأن أبناء تلك الطبقة من سراة الموالي الطامحين إلى تولي مناصب الدولة.

صوت : وكان من مؤدبيك أيضاً أبو الجاموس ثور بن يزيد، وأبو الغول الأعرابي، وكلاهما معروف بالفصاحة.

إبن المقفع : وكنت من طبعي أميل إلى تنخّل الكلام والتأنق في التعبير...

صوت : ... كما كنت تميل إلى التأنق في مرافق الحياة ومظاهرها...

إبن المقفع : فلم آل جُهدا في التثقيف والتهذيب ومخالطة أدباء

البصرة وفصحائها وبلغائها فتعلمت العربية وتدربت على أساليب الفصاحة والبلاغة.

صــوت : حتى نبغت بـذاك الأسلوب المعروف الـذي تـركتـه دستوراً من بعدك للانشاء العربي وقد تأثرنا جميعاً به وتأثرناه بعد قراءتنا لرائعتك «كليلة ودمنة».

إبن المقفـع : ومن نعم الله عليّ أنه اجتمع لي عاملان هامـان، عامل الثقافة الفارسية، ومنها ثقافة اليونان والهنود، وعامل الفصاحة العربية.

صــوت : فقابلت هكذا العالم الجديد بسلاحين قويين: بسلاح الفكر وسلاح اللسان والفصاحة، فكتبت في شبابك الأول للمسيح بن الحواري في سابور، أو شابور.

إبن المقفـع : وكان لي أن أعرض في هذه الفترة للوالي سفيان بن معاوية المهلّبي...

صــوت : فتسيء إليه إساءة يحفظها لك حتى تجتمعا مجدداً في البصرة. ويتراكم حقد سفيان عليـك، كما يتـراكم تهكّمك بسفيان، إلى أن ينتهي الأمـر بتلك القتلة الشنعاء. ولكننا قبل أن ندخـل في تفاصيلهـا دعنا نتحدث قليلاً عن ذلك الوالي سفيان الذي لم تكن تنظر إليه نظرة رفيعة.

إبن المقفـع : الحقيقة أنني كنت كثير الاستخفاف به، أوجـه إليه قوارص النكت. وقد كـان أنفه كبيـراً، وكنت إذا دخلت عليه قلت له في التحية: «السلام عليكما»! ذلك بأنني كنت أرى واجباً أن لا أسلم على صاحب الأنف الضخم فقط، بل على الأنف أيضاً.

صـوت : وإذا تنحنح الوالي فقال: «ما ندمت على سكوتي قط» ظناً منه بأنه استنبط حكمة عميقة، عاجلته بجوابك المتهكم القـاسي: «الخرس زين لـك، فكيف تندم عليه؟»

إبن المقفـع : وشئت يوماً أن أسخر به على ملأ من الناس، فقلت لـه: «مـا تقـول في شخص مـات وخلَّف زوجـاً وزوجة؟»

صـوت : وكان سفيان هذا يقول: «والله لأقـطعنه إربـاً إربا وعينه تنظر». وعزم أن يغتالك، فجاءه كتاب المنصور بقتلك فقتلك، في ذات يوم من السنة ١٤٢ للهجرة عندما دخلت، ولم تكن بعد قد جـاوزت الخامسـة والثـلاثين من عمـرك أو أنك جـاوزتهـا قليـلاً دار الوالي ـ والي البصرة في عهد الخليفة المنصور سفيان بن معاوية المهلبي.

إبن المقفـع : وكان دخولي آخر العهد بي... دخلت الدار سليماً ولكني لم أخرج منها...

صـوت : كأنما غصت بين سمع الأرض وبصرها. فماذا حلَّ بك؟

إبن المقفـع : لقد بطش بي الوالي!

صـوت : ولكن كيف؟ هل أحرقك بالنار؟ أم دفع بك إلى بئر وردم عليـك الحجارة؟ أم زجّ بـك في حمام حُبس دخـانه وحقنت حـرارتـه، فضـاق عليك بـالنفس حتى اختنقت؟ أم أنه قطع جسدك عضوا عضوا، ثم قذف بك في تنُّور وغطى عليك؟

إبن المقفع : ماذا؟ ماذا؟ من أين لك بكل هذه التساؤلات؟

صـوت : كل هذا مما يقصه رواة الأدب، ثم لا يتفقون منه على شيء واحد، ولكنهم يتفقون على أنه صرعك صرعة وحشية منكرة.

إبن المقفع : وفي ذلك الكفاية، على ما أحسب. فلندع هذا المصرع لغزاً ما دام لم يُتفق بعد على الوسيلة التي استخدمت لتحقيقه.

صـوت : في هذا المقام دعني أخبرك ماذا حدث بعد دخولك دار الوالي واختفائك، فلا بدّ أنك تتشوق لمعرفة ذلك؟

إبن المقفع : بالطبع... هات ما عنك.

صـوت : لقد هاج عمّا المنصور سليمان وعيسى، ورفعاالشكوى على الوالي إلى الخليفة في بغداد. ثم اعتقلا الوالي وكبلّاه بالقيود. وحملاه فوضعاه بين يدي المنصور. وتقدم ناس فشهدوا أن ابن المقفع دخل دار سفيان، ثم لم يخرج، فكأن الدار ابتلعته ابتلاعاً. عندها تفرّس المنصور في الشهود وقال لهم:

ـ «إذا قتلت سفيان، ثم طلع ابن المقفع من هذا الباب الخلفي، فكلمكم، فماذا أصنع بكم؟ أأقتلكم بسفيان؟»

إبن المقفع : وبالطبع، وقعت الرهبة في قلب الشهود ورجعوا عن شهادتهم القائلة ان سفيان قتلني.

صــوت : تماماً. . . هذا ما كان من أمرهم. فأما عمّا المنصور فتغاضيا عنك وتركا المطالبة بدمـك، لأنهما آمنا أن للمنصـور نفسه ضلعـاً في سفك دمـك. وانسـدل الستـار، وغسل الـوالي يـده من الجـريمـة وتنصّـل المنصورا.

إبن المقفـع : ولنســدل نحن الستار الآن على كل ذلك، ولننتقل، إذا رغبت إلى موضوع آخر. ففي سيرتي غير ناحية جديرة بالحديث أكثر من مصرعي. أليس كذلك؟

صــوت : لننتقل الآن إلى صفاتك النفسية، فـإلى جانب مـا جادت عليك به السماء من الذكاء والنشـاط وحدّة النـظر وسـرعـة البـداهـة، وحسن المعشـر وجمــال الطلعة. . .

إبن المقفـع : مهلاً، يا سيدي، إنك تخجل تواضعي.

صــوت : أنا لا أبالغ، فتلك هي الحقيقة. . . وكنت فوق ذلك ميّالاً إلى الفضائل الانسانية على أنها تكمل العنصر الانساني فيك لا على أنها تقود إلى ثواب أو تنجي من عقاب. وسرت في حياتك على النظم السامية التي نقلتها وأوضحتها في كتبك، ويقول الجهشياري فيك:

ـ «كان سرياً سخياً، يطعم الطعام، ويتسع على كـل من احتاج إليـه. وكان قـد أفاد من الكتـابة لداود بن عمر مالاً، فكان يجري على جماعة من وجوه أهل البصرة والكوفة ما بين الخمسمائة إلى الألفين في كل شهر».

ونكتفي بذلك تدليلاً على نبلك وشرفك وجميل خصالك. وننتقل إلى آثارك ومقامك الأدبي. فلقد كنت رجل فلسفة وسياسة واجتماع، كما كنت رجل العقل، والإمام الضليع من أئمة النثر الفني عند العرب...

**إبن المقفع** : ... وإن يكن الخليل بن أحمد صاحب العروض قال عني لما افترقنا بعد اجتماعنا رداً على سؤاله: كيف رأيته؟ «إن علمه أكثر من عقله».

**صوت** : وأنت كيف رأيت الخليل؟

**إبن المقفع** : عقله أكثر من علمه!

**صوت** : حسناً، يا أبا محمد. دعنا نستعرض آثارك التي كان أكثرها مترجماً لا موضوعاً، والتي نستطيع أن نقسمها إلى ثلاثة أقسام: القسم الأول في التاريخ، والقسم الثاني في الفلسفة، والقسم الثالث في الأدب والاجتماع والسياسة والأخوانيات، وهو القسم الذي يهمنا ومرجعه إلى «رسالة الصحابة» و«الأدب الكبير» و«الأدب الصغير» و«كليلة ودمنة»!

**إبن المقفع** : ولا بد لي هنا من التنويه بأنني كنت ناقلاً ومترجماً وجامعاً، إلّا في «رسالة الصحابة» وبعض الرسائل الأخرى، وإن النقل كان من الفهلوية، أي اللغة الفارسية.

**صوت** : ولنبدأ برسالة الصحابة... إنها حصيلة رقي العقل في زمنك، عرضتها بفكرك المثقف، ودلّلت فيها على

معرفتك بأصول الدول ومدارج عمرانها وعزتها، ودواعي انحطاطها وسقوطها. فماذا تقول فيها؟

إبن المقفع : أود أن أوضح في هذا المجال أن المقصود بالصحابة هنا، صحابة الولاة والخلفاء لا صحابة الرسول كما هو شائع. وقد وقفتها على الاصلاح الاجتماعي والسياسي ووجهتها إلى أبي جعفر المنصور، وتناولت فيها قضية بطانته وجميع المقربين من الولاة والأمراء والخلفاء عامة، وجعلتها تقريراً في نقد نظام الحكم ووجوه إصلاحه، ودستوراً من الدساتير الاجتماعية.

صوت : ومجمل القول انك في هذه الرسالة تبدو رجل عقل ونظر، ورجل معالجة عقلية لا رجل ثورة وعنف، وهي أروع ما كتبت في رأي الكثيرين، في الحقل الفكري والاجتماعي، وأنها من أجمل الدساتير المكتوبة باللغة العربية.

إبن المقفع : صحيح، ولكونها كانت صرخة شهيدة منطلقة من قلب الرعية قد احنقت الخليفة لما فيها من صراحة وجرأة، كما أحنقت رجال البلاط أو الصحابة وأرباب الأعمال، وكانت ربما أحد الأسباب التي أدت إلى مقتلي.

صوت : وننتقل إلى الأدبين الكبير والصغير. فماذا يعني الأدب في نظرك؟

إبن المقفع : لفظة أدب تعني في نظري التهذيب الخلقي والرياضة النفسية، قال النبي عليه الصلاة والسلام: «أدّبني ربّي

فأحسن تأديبي» ولذا أطلقت على كتابي اسم «الأدب».

صوت : وكنت في الأدبين معاً ناقلاً ومؤلفاً في آن معاً. وفيهما حكم شتى وأمثال مختلفة لا يربط بينها رابط، وهي من مصادر مختلفة: فارسية، ويونانية، وإسلامية وغيرها... فماذا تقول في مقدمة الأدب الصغير؟

إبن المقفع : «قد وضعت في هذا الكتاب من كلام الناس المحفوظ حروفاً، فيها عون على عمارة القلوب وصقلها، وتجلية أبصارها، وإحياء للتفكير، وإقامة للتدبير ودليل على محامد الأمور ومكارم الأخلاق».

صوت : وفي «الأدب الكبير»، ماذا تقول؟

إبن المقفع : «... لم أجد الأولين غادروا شيئاً يجد واصف بليغ في صفته له مقالاً لم يسبقوه إليه... وقد بقيت أشياء من لطائف الأمور، فيها مواضع لصغار الفطن، مشتقة من جِسام حكم الأولين وقولهم. فمن ذلك بعض ما أنا كاتب في كتابي هذا من أبواب الأدب التي يحتاج إليها الناس».

صوت : حسناً، فلنستمع منك إلى شيء من ذلك مما يتضمّنه كتابك «الأدب الصغير» ماذا تقول في العلم والأدب؟

إبن المقفع : من العلم أن تعلم أنك لا تعلم بما لا تعلم.

- إن أفضل ما يرثه الأبناء عن الآباء الثناء الحسن والأدب والأخوان الصالحون.

- كن عالماً كجاهل، وناطقاً كعيّ، فأما العالم

فسيزينك ويرشدك، وأما قلة إدعائه فسينفي عنك الحسد، وأما الصمت فسيكسبك المحبة والوقار.

صـــوت : وفي الفضائل والرذائل؟

إبن المقفـع : من أفضل البرّ ثلاث خصال: الصدق في الغضب، والجود في العسرة، والعفو عند المقدرة.

ـ من علامات اللئيم المخادع أن يكون حسن القول، سيّىء العقل، بعيد الغضب، قريب الحسد، حمولاً للفحش، مجازياً بالحقد، متكلفاً للجود، صغير الخطر، متوسعاً بما ليس له،ضيقاً فيما يملك.

ـ من أشد عيوب الانسان خفاء عيوبه عليه. فإن من خفي عليه عيبه خفيت عليه محاسن غيره، ومن خفي عليه عيب غيره ومحاسن غيره، فلن يقلع من عيبه الذي لا يعرف ولن ينال محاسن غيره التي لن يبصر أبداً.

صـــوت : ونهي هذا العرض لآثارك بأروع ما أنتجت وبما يقترن باسمك. فكلما ذُكر كتاب «كليلة ودمنة» تبادر إلى الذهن فوراً اسم عبد الله بن المقفع وكلما. . .

إبن المقفـع : . . . كلما ذكر إسم عبد الله بن المقفّع تبادر إلى الذهن كتاب «كليلة ودمنة»!

صـــوت : بالضبط. . . فهو أشهر الآثار، وأنفس الآثار التي خلّفتها لنا، ويسميه الغربيون «خرافات بيدبا» نسبه إلى الفيلسوف الهندي الذي وضعه في صورة أحاديث تتسلسل بينه وبين الملك الهندي دبشليم. فهل لك أن تحدثنا قليلاً عن ذلك؟

إبن المقفـع : قبل أي شيء أذكر لك أن الكتاب هذا أنشىء في الأصل باللغة السنسكريتية، لغة الهند القديمة، ثم تُرجم إلى الفارسيـة الفهلوية في عهـد كسرى أنـو شروان، في القرن الســادس الميلادي، وهـو القرن الذي وافق جاهلية العرب. ثم عرّبته عن الفهلوية بعد قرنين، في زمن الخليفة المنصور.

صـــوت : ولم تكتف بتعريب هذا الكتاب «كليلة ودمنة» وما زيد فيه من أبواب مع الترجمة الفارسيـة الفهلوية، بـل ضممت إليه أبواباً من عملك، وأشهرها «باب عرض الكتاب» و «باب الفحص عن أمر دمنة».

إبن المقفـع : وغني عن البيان أن وراء هذا الكتاب الذي يحفل بالأمثال مغـازي عميقة ومـرامي بعيدة قصـد إليها واضعـه في الأصل، وقصـدت إليها شخصيـاً حين اخترت هذا الكتاب فعرّبته وخصصت به المنصور.

صـــوت : وعلى ذكر الأمثال، هلاّ أسمعتنا مثل الثعلب والطبل؟

إبن المقفـع : «زعموا أن ثعلباً جائعاً أتى على أجمة فيها طبل ملقى إلى جانب شجرة. فإذا هبّت الريح تحركت أغصان الشجرة وأصابت الطبـل فصوّت صوتاً شديداً. فسمع الثعلب ذلك الصوت فتوجه نحـوه حتى انتهى إلى الطبل. فلما رآه ضخماً قال في نفسه: ان هذا لخليق بكثـرة الشحم واللحم. فعالجـه أشد العـلاج حتى شقه. فلما رآه أجوف قال الثعلب: لعل أفشل الأشياء أعظمها جثة وأعظمها صوتاً!»

صـــوت : سيدي إبنِ المقفع، إن خـيـر ما أختتم به هذا اللقاء المتع قولٌ فيك لأبي العيناء:

«كـلامـه صـريـح ، ولسـانـه فصيـح، وطبعـه صحيح...».

إبن المقفـع : وخيرِ الكلام ما قل ودل!.

صـــوت : شكراً!

# جابر بن حيّان: الحجة في الكيمياء
## (٧٣٧ - ٨١٣)

- «. . . وأنا أقول أن رجلاً فاضـلاً يجلس ويتعب فيصنّف كتاباً يحتوي على ألفي ورقة، يُتعب قـريحته وفكره بإخراجه، ويُتعب يده وجسمه بنسخـه، ثم ينحله لغيـره - إما مـوجوداً أو معـدوماً - ضـرب من الجهل، وإن ذلك لا يستمر على أحد، ولا يدخل تحته من تحلّى سـاعـة واحدة بالعلم. وأي فائدة في هذا، وأي عائدة؟ والرجل له حقيقة، وأمره أظهر وأشهر، وتصنيفاته أعظم وأكثر. ولهذا الرجل كتب في مذاهب الشيعة، وكتب في معانٍ شتى من العلوم. وقد قيل أن أصله من خراسان. . .»

صوت: بهذه العبارة يردّ إبن النديم في كتابه «الفهرست» على من ينكـر من أهل العلم وأكـابر الـوراقـين وجـود جابر بن حيان، وأن لا أصل لرجل بهذا الاسم ولا حقيقة. وأن الناس قد نسبوا إليه مؤلفات ورسائل ونحلوه إياها. وقد علّق صاحب «الفهـرست» على ذلك تعليقاً طريفاً ينتهي به إلى أن رجلاً بهذا الاسم «جابر» كان موجوداً وله حقيقة! تماماً كما هي الحال مع شكسبير كبير شعراء الانكليز، وصاحب عشرات الروايات الشعرية التاريخية والمأسوية والهزليـة. فقد

أنكـر كثيرون وجـوده، ولكن ألم يكتب أحدٌ هـذه المؤلفات؟ بالطبع، إذاً، فهنـاك رجلٌ وُجـد، وكان اسمه شكسبير مهما كابر في ذلك المكابرون.

جابر: بالطبع، يا سيدي... انك تنطق بالصواب. فلقد عشت ما يقرب من ثمانين سنة... ولدت في طوس سنة ١٢٠ هجرية وعشت إلى عصر المأمون، وتوفيت حوالي سنة ١٩٨.

صوت: أنت يا سيدي، أبو موسى، جابر بن حيّان الأزدي، ونسبتك الطوسي، أو الطرسوسي أحياناً. ويقال أنك من الصابئة، ومن ثم لقبك الحرّاني.

جابر: ولكنني دخلت في الإسلام، بعد ذلك، وأظهرت كما يعلم الجميـع، ويـعتـرف ولا ريـب المتـرجمـون والمؤرخون، غيرة عظيمة على ديني الجديد. أما لقبي الآخر «الصوفي» فيرجع إلى زمن متأخر عن هذا.

صوت: إن هناك أكثر من سبب يحملنا على الاعتقاد، مع ذلك ان أصلك من القبيلة العربية الشهيرة في الجنـوب «الأزد» الذين استوطن بعض أفرادها في الكوفة بعد تأسيسها على يد الخليفة عمر بن الخطاب سنة ٦٢٨ ميلادية. وكان والدك يتعاطى بيع الأدوية والعقاقير في الكوفة، ومن الأنصار المتحمسين للعباسيين، الذين كانوا آنذاك يتآمرون للاستيلاء على الخلافة. ويعتقد أنك أبصرت النور في طوس بالقرب من مدينة المشهد حالياً، في حين كان والدك حيّان في بلاد فارس يعمل للعباسيين.

جابر: صحيح، وبعد ذلك بفترة وجيزة ألقي القبض على حيّان، والدي، ونفذ فيه حكم الموت على يد جنود أمويين. وأرسلت وأنا فتى صغير السنّ إلى الجزيرة العربية حيث درست على يد حربي الحميري.

صوت: وقد أصبحت، فيما بعد، صديقاً للبرامكة أيام هارون الرشيد، وشاطرتهم، كما يروي التاريخ منفاهم عندما طُردوا من بغداد.

جابر: وانسحبت إلى الكوفة حيث قضيت ما تبقّى من حياتي منسياً، حتى كانت خلافة المأمون.

صوت: وقد سُلِّطت الأضواء على مختبرك العلمي في الكوفة بعد قرنين من الزمن خلال عمليات التعمير والبناء التي أجريت آنذاك في منطقة من المدينة تعرف باسم «بوابة دمشق».

جابر: لكم يسرني أن أسمع ذلك، ففيه دحض لكل من أنكر وجودي واشتغالي بالعلوم، وخصوصاً الكيمياء.

صوت: وعلى ذكر الكيمياء، قيل انك تلميذ الامام جعفر الصادق، الامام الشيعي السادس المتوفى سنة ١٤٨ هجرية، وقيل بل انك تلميذ خالد بن يزيد بن معاوية، وان خالداً هو أول من تكلّم في علم الكيمياء، ووضع فيها الكتب، وبيّن صنعة الأكسير والميزان، ونظر في كتب الفلاسفة في الاسلام. وإن أول من اشتهر عنه علم الكيمياء تلميذه جابر.

جابر: الحقيقة أنني كنت صاحب جعفر الصادق الذي كانت

مدرسته ثابتة المبدأ، متصلة الكفاح، ووجد فيها الناس ثروة علمية، وعاشوا فيها حياة فكرية تهذّب النفس وتسمو بالعقول وترتقي بهم إلى أوج المعرفة والكمال، في ذلك العصر الذي ازدهرت فيه المدينة المنوّرة وزخرت بطلاّب العلم من مختلف الأرجاء الاسلامية.

صوت: ومن الأدلة على أنك كنت على زمن الامام جعفر الصادق قول ابن نباتة المصري:

-«إن جابر بن حيّان إذا قال في كتبه: قال سيدي، وسمعت من سيدي ، فإنه يعني جعفراً الصادق».

جابر: صحيح، ما تقوله، يا سيدي!

صوت: ويؤيد هذا قول القائلين عن اشتغالك بالكيمياء:

- «هي حكمة أُورثناها جابر عن امام صادق القول، ولقد فرّق العلم في كتب كثيرة، لكنه أوصل الحق إلى أهله، ووضع كل شيء في محله. لكن أشغل الناس بالتدهيش والمحال لحكمة اقتضاها عقله ورأيه بحسب الزمان، ومع ذلك لا يخلو كتاب من كتبه من فوائد عديدة».

صوت: ذلك أن علم الكيمياء الذي كان مذكوراً في تلك الأيام كان أمراً موهوماً، وهو بزعمهم صناعة استخراج الذهب بواسطة طبخ مواد نباتية ومعدنية، وأمثال ذلك. فاشتغلت بهذه الصناعة مدة طويلة من عمرك، وألّفت في هذا الفن، على ما قيل نحو

خمسمائة كتاب. وجرّب بعضهم ما ذكرته مدة طويلة فذهب تعبه سدى، فكتب على مصنفّاتك:

هــذا الــذي بمقــالــه غــرّ الأوائـل والأواخــر
مــا أنت إلا كــاســرٌ كذب الذي سمّاك جابر

جابر: سامحه الله... لقد قمت بامتحانات كيميائية كثيرة معروفة، واكتشفت أموراً كثيرة مهمة في علم الكيمياء، ووصفت عمليات التبخير، والتقطير، والتكليس، والاذابة، والتبلور، والتصعيد، وغيرها من العمليات العامة في الكيمياء وصفاً دقيقاً... فضلاً عن أنني ابتكرت شيئاً جديداً في الكيمياء، وأدخلت علم الموازين.

صوت: وكنت حسب روايات الفرس، أول من استحضر حامض الكبريتيك بتقطيره من الشبة، وسميّته زيت الزاج. واستحضرت كذلك حامض النتريك، وكنت أول من كشف الصودا الكاوية، وأول من استحضر ماء الذهب، وأول من أدخل طريقة فصل الذهب عن الفضة بالحل بواسطة الحامض. كما ينسب اليك استحضار مركبّات أخرى لا مجال لتعدادها هنا، إلى جانب درس خصائص مركبّات الزئبق، وقد استحضرته.

جابر: وبحثت، يا سيدي، في السموم، ولي فيها، «كتاب دفع السموم ودفع مضارها»، الذي ينقسم إلى خمسة فصول، إذا شئت ذكرتها لك لتقدير أهميتها».

صوت: بالطبع، فلهذا الكتاب أهمية كبرى عند المشتغلين

بتاريخ العلوم لما له من صلة وثيقة بالطب والكيمياء. . . هات حدّثنا أولاً عما تبحث في كتابك عن السموم التي تقسمها إلى حيوانية ونباتية، وحجرية.

جابر: من السموم الحيوانية ذكرت مرارة الأفاعي، ومرارة النمر، ولسان السلحفاة، وذنب الأيّل، والأرنب البحري، والضفدع والعقارب.

صوت: ومن السموم النباتية، ماذا ذكرت؟

جابر: قرون السنبل، والأفيون، والشيلم، والحنظل، والشوكران. ومن السموم الحجرية الزئبق، والزرنيخ، والزاج، والطلق، وبرادة الحديد، وبرادة الذهب. وقد أسهبت في وصف كل هذه السموم، وأتيت على عملها وأثرها في أجسام الحيوانات.

صوت: ولنستعرض الآن فصول كتابك الخمسة كما وعدنا القراء. . .

جابر: أتناول في الفصل الأول أوضاع القوى الأربع وحالها مع الأدوية المسهلة والسموم القاتلة، وحال تغيّر الطبائع والكيموسات المركبة منها أجسام الحيوان.

والفصل الثاني في أسماء السموم ومعرفة الجيد منها والرديء وكمية ما يُسقى من كل واحد منها، وكيف تُسقى، ووجه إيصالها إلى الأبدان.

والفصل الثالث في ذكر السموم العامة الفعل في سائر الأبدان والتي تخصّ بعض أبدان الحيوان دون

بعض، والتي تخصّ بعض الأعضاء في أبدان الحيوان دون بعض.

والفصل الرابع في علامات السموم المسقاة والحوادث العارضة منها في الأبدان، والانذار فيها بالخلاص والمبادرة إلى علاجه.

وأخيراً الفصل الخامس في ذكر السموم المركّبة وذكر الحوادث الحادثة منها، وفي الاحتراس من السموم قبل أخذها فإذا أخذت لم تكد تضر، وذكر الأدوية النافعة من السموم إذا شربت من قبل بعدم الاحتراس منها.

هذا هو ملخّص كتابي في السموم ودفع مضارّها.

ولي كتب كثيرة سواه، أذكر لك منها «كتاب التجميع» و«كتاب الاستمام» و«كتاب الاستيفاء» و«كتاب التكليس»، و«كتاب الخالص»، و«كتاب الخواص في صناعة الكيمياء»، و«كتاب الملك»، و«كتاب الموازين»، و«كتاب الرحمة»، و«كتاب الزيبق الشرقي».

صوت: في هذا المجال أود القول ان المذهب المنبث في هذه المؤلفات، وبخاصة في كتابك «الرحمة» الذي لا يُشكّ قط في نسبته إليك، تشبيهي مسرف، أو إن شئت روحاني متطرف. فأنت تعد المعدن كائناً حياً ينمو في بطن الأرض أمداً طويلاً آلاف السنين، وينقلب من معدن خسيس كالرصاص إلى معدن نفيس كالذهب.

جابر: إن غاية علم الكيمياء الاسراع بهذا الاقلاب.

صوت: وأنت تطبّق مذاهب التناسل والزواج والحمل والتعليم على المعدن، وكذلك مذاهب الحياة والموت. وتقول للمواد الغليظة الأرضية ميتة. أما المواد المنيرة اللطيفة فتسميها حية. ولكل كيميائي نفس وجسم، جزء روحي وجزء مادي...

جابر: ... وعمل صاحب الكيمياء أن يفصل هذا عن ذاك ويلطفه، ثم يعطي لكل جسم الطبع الذي يناسبه.

صوت: وأود هنا أن أذكر أنه نسب إليك عند الغربيين في القرون الوسطى أكثر من مئتي كتاب، المعروف منها واحد وعشرون في مكاتب أوروبا، وأكثرها قد ترجم إلى اللاتينية والألمانية والفرنسية، وطُبع في مدن عدة. وذكر لك محمد سعيد السرقسطي، المعروف بابن المشّاط الأصطرلابي الأندلسي، أنه رأى لك بمصر تأليفاً في عمل الأصطرلاب يتضمّن ألف مسألة لا نظير له...

جابر: صحيح ما ذكره ابن المشّاط الأصطرلابي الأندلسي عن هذا الكتاب، يا سيدي.

صوت: ولا ندحة في هذا المجال عن القول انك تمتاز على غيرك من العلماء بكونك في مقدمة الذين قاموا بالتجارب على أساس علمي، هو الأساس الحديث الذي نتمشى نحن عليه اليوم في المعامل والمختبرات. ولقد دعوت إلى الاهتمام بالتجارب، وحثثت على

إجرائها مع دقة الملاحظة، ومع الدعوة في الوقت نفسه إلى التأني وترك العجلة.

جابر: إن واجب المشتغل في الكيمياء هو العمل والقيام بالتجربة، لأن المعرفة لا تحصًل إلاّ بها. وقد طلبت إلى الذين يعنون بالعلوم الطبيعية أن لا يحاولوا عمل شيء مستحيل أو عديم النفع والفائدة. وعليهم أن يعرفوا السبب في إجراء كل عملية، ويفهموا التعليمات جيداً، لأن لكل صنعة أساليبها الفنية. وذلك كله مدعوماً بالصبر والمثابرة والتأني باستنباط النتائج واقتفاء أثر الطبيعة مما تريده من كل شيء طبيعي.

صوت: وفوق ذلك طالبت المشتغل بالكيمياء أن يكون له أصدقاء مخلصون يركن إليهم، يحملون مزاياه وصفاته من صبر ومثابرة وشدة ملاحظة، وعدم الوقوف عند الظواهر.

جابر: بالطبع، يا سيدي، ألا توافقني على ذلك؟

صوت: كل الموافقة، والآن شكراً لك، يا أبا موسى، على تكرمك بهذا اللقاء الممتع الذي أتاح لنا التعرّف إلى بعض نشاطاتك العلمية الجليلة، وبخاصة في حقل الكيمياء. فمما لا شك فيه أنك بالاضافات التي أدخلتها على الكيمياء، والأسلوب العلمي الذي تمشيت عليه في بحوثك وتجاربك قد أحدثت أثراً بعيداً في تقدم العلوم والكيمياء بنوع خاص. فأصبحت بذلك أحد أعلام العرب، ومن مفاخر

الانسانية، يعترف لك علماء الغرب بالفضل والسبق والنبوغ لأنك استطعت أن تنتج وتبدع في هذا الانتاج.

## موسى بن شاكر وبنوه الثلاثة: المتقدمون في العلوم

### (القرنان التاسع والعاشر)

صوت: يقول إبن القفطي في كتابه «إخبار العلماء بأخبار الحكماء». مترجماً لعالم الفلك موسى بن شاكر وأولاده الثلاثة:

- «موسى بن شاكر، متقدّم في الهندسة هو وبنوه محمد بن موسى، وأحمد أخوه، والحسن أخوهما، وكانوا جميعاً متقدّمين في النوع الرياضي وهيئة الأفلاك وحركات النجوم. وكان موسى بن شاكر هذا مشهوراً في منجّمي المأمون، وكان بنوه الثلاثة أبصر الناس بالهندسة، وعلم الحيل، ولهم في ذلك تواليف عجيبة تعرف بحيل بني موسى، وهي شريفة الأغراض عظيمة الفائدة، مشهورة عند الناس. وهم ممن تناهى في طلب العلوم القديمة، وبذل فيها الرغائب. وقد أتعبوا نفوسهم فيها وأنفذوا إلى بلاد الروم من أخرجها وأحضرها إليهم، فأحضروا النقلة من الأصقاع والأماكن بالبذل السني، فأظهروا عجائب الحكمة. وكان الغالب عليهم من العلوم الهندسة، والحيل والحركات، والموسيقى، والنجوم. وتوفي ولده محمد بن موسى، وهو الأجل، في سنة تسع وخمسين ومائتين في شهر ربيع الأول. وكان لأحمد بن موسى

ولد يقال له مطهّر، دخل في جملة ندماء المعتضد... ولبني موسى من الكتب كتاب الفرسطون، كتاب الحيل لأحمد بن موسى، كتاب الشكل المدوّر المستطيل للحسن بن موسى، كتاب حركة الأفلاك الأولى، مقالة لمحمد بن موسى، كتاب مخروطات بلينوس لمحمد، كتاب الشكل الهندسي الذي بيّن جالينوس أمره، كتاب الجزء لمحمد، كتاب في أول العلل لمحمد، كتاب في إنكار أن ثمة كرة تاسعة الأفلاك لأحمد بن موسى، كتاب المسألة التي ألقاها أحمد بن موسى على سند بن علي، كتاب مساحة الكرة وقسمة الزاوية بثلاثة أقسام متساوية...»

هذه الأسرة العربية، فذة في تاريخ العلوم، شأنها في ذلك شأن أسرتي أبناء حزم وأبناء زهر الاندلسيتين ـ وستتعرّف بعد قليل على بعض أفرادها، ونعرّف ربّ الأسرة موسى بن شاكر على ما حققه أبناؤه الثلاثة الذين خلّفهم أطفالاً في عهدة صديقه الخليفة العباسي المأمون راعي العلم في عصره. معنا الآن موسى بن شاكر الذي يقول إبن القفطي عنه، عندما يتحدث عن بني موسى بن شاكر، ما نصّه:

ـ «... وكان والدهم موسى بن شاكر يصحب المأمون، والمأمون يرعى حقه في أولاده هؤلاء المذكورين ولم يكن موسى والدهم من أهل العلم والأدب...»

إبن شاكر: ولكن هذه الرواية تخالف، يا سيدي، ما ذكره إبن القفطي في ترجمتي من أنني كنت متقدماً في علم الهندسة، مشهوراً في منجمّي الخليفة المأمون، أليس كذلك؟

صوت: بكل تأكيد، يا أبا محمد، ولكنني أنقل عن لسان إبن القفطي نفسه الذي ربما نسي ما كتب سابقاً، أو كتب ما كتب لغاية في نفس يعقوب، على حد ما تقول العرب. وأترك لهذا المؤرخ نفسه المجال ليتابع ترجمته لك، مع اعتذاري لك:

- «... بل كان في حداثته حراميّاً يقطع الطريق ويتزيّا بزيّ الجند. وكان شجاعاً مجرّباً، وكان يصلّي العتمة مع جيرانه في المسجد، ثم يخرج فيقطع الطريق على فراسخ كثيرة من طريق خراسان، ويركب على فرس له أشقر، ويشد على يديه ورجليه خرقاً بيضاً ليظن من يراه بالليل أنه محجلّ، ويغيرّ زيه ويتلثم. وكان له جاسوس يأتيه بخبر من يخرج، ومعه مال، وربما لقي الجماعة وقاومهم وغلبهم. وينصرف من ليلته فيصلّي الصبح مع الجماعة في المسجد. فلما كثر فعله وأشهر اتهم، فشهد له الجماعة بملازمة الصلاة معهم، في أول الليل وآخره، فاشتبه أمره، ثم تاب ومات...»

صوت: هذه هي القصة، فما قولك فيها، يا من كنت تحيا حياتين في قصر الخليفة العباسي العظيم المأمون، حيث نلت مقاماً كبيراً عجز عن نيله أحد سواك من علماء الفلك والرياضيات؟

إبن شاكر: الواقع أنني كنت صديق الخليفة الحميم، ومن أقرب المقرّبين إليه. إلاّ أنني على الرغم من ذلك لم أستطع، في الحقيقة، أن أنسى أنني من أبناء الصحراء الأحرار، فكنت أعود إلى موطني الأصيل كلما أسدل الليل أستاره على الدنيا، ولكن بحسب أصول الفروسية الصحراوية، ومن هنا كانت الغزوات تعتبر من مظاهر الاقدام والبأس والذكاء الشديد المحموم.

صوت: ولم تكن ذكياً وشجاعاً فحسب، بل كنت بعيد النظر كذلك. فعمدت إلى تفويض صديقك الخليفة الاشراف على الأموال التي جمعتها من غزواتك الليلية وتنظيم أمورها وتوزيعها على أبنائك الذين أصبحوا فيما بعد من كبار الفلكيين والعلماء في قصور خلفاء بني العباس... وهنا أذكر لك أن ثروتك الطائلة أفاد منها أبناوءك كثيراً، إذ أنهم أنفقوها في سبيل شراء المخطوطات وترجمة الآثار اليونانية والسريانية وسائر النشاطات والخدمات الجلّى التي قاموا بها، وقدموها إلى التراث العربي الفكري والعلمي والأدبي.

إبن شاكر: إذاً، فإن عملي ذاك يكتسب صبغة تاريخية انسانية، ما دامت غنائمي الليلية أنفقت على العلوم وتقدّمها، كما تذكر؟!

صوت: ذلك هو الواقع، يا سيدي... ولما ودعت العالم الأول تاركاً وراءك أبناءك الثلاثة، كان المأمون الذي أوصيته بهم على رأس حملة عسكرية في بلاد الروم.

فاغتم لذلك كثيراً، وأرسل إلى بغداد الأمر برعايتهم والاهتمام بهم ريثما يعود من حملته. وكان دائم الاستفسار عنهم كلما أرسل الكتب إلى عاصمة ملكه.

إبن شاكر: لقد سرّيت عني بهذه المعلومات... ألا استمر، بالله عليك، ليطمئن قلبي. فأنا لم أكن أشك يوماً بصداقة المأمون لي، وعنايته بأبنائي من بعدي.

صوت: إسمع في هذا الصدد ما يقوله إبن القفطي في ترجمته لأبنائك:

- «... فوصّى بهم المأمون إسحق بن إبراهيم المصبعي، وأثبتهم مع يحيى بن أبي منصور في بيت الحكمة. وكانت كتبه ترد من بلاد الروم إلى إسحق بأن يراعيهم، ويوصيه بهم، ويسأل عن أخبارهم حتى قال: جعلني المأمون داية لأولاد موسى بن شاكر...»

إبن شاكر: ألا حدثني عن نشأة أولادي في كنف فلكي الخليفة يحيى بن أبي منصور الذي كان يدير بيت الحكمة الذي أنشأه المأمون في بغداد.

صوت: في بيت الحكمة الذي كان يعتبر أعظم المعاهد العلمية الثقافية التي أنشئت بعد المتحف الاسكندري الذي ظهر في النصف الأول من القرن الثالث قبل الميلاد، والذي كان مركزاً للعلم وآلالات الغربية النادرة، ويضم مكتبة قيّمة يعمل فيها العلماء والتراجمة، نشأ أبناؤك وترعرعوا. وكان أكبرهم شأناً وأجلهم محمد، وكان وافر الحظ من الهندسة والنجوم، عالماً باقليدس

والمجسطي، طويل الباع في السياسة، وصار من وجوه القوّاد، إلى أن غلب الأتراك على الدولة وذهبت دولة أهل خراسان، وانتقلت إلى العراق، فعلت منزلته واتسع حاله.

إبن شاكر: وكيف كانت علاقته بالمأمون؟

صوت: كان مثلك كبير التأثير على الخليفة الذي أفسح له ولأخويه مع سائر الفلكيين داراً بالقرب من الشماسية لرصد النجوم رصداً علمياً دقيقاً بإشراف يحيى بن أبي منصور، ولاجراء قياسات كانت تقارن بغيرها في جنديسابور، وبأخرى تجري بعد ثلاث سنوات في دار ثانية تقع على جبل قاسيون بالقرب من دمشق على سبيل المقارنة. . .

صوت: وخلال خلافة المأمون، وبعد وفاته، أنشئت مراصد عديدة في أرجاء مختلفة من البلاد الاسلامية نذكر منها المرصد الذي أقامه بنوك، بقرب جسر الفرات عند باب التاج في بغداد، ومنه استخرجوا حساب العرض الأكبر من عروض القمر.

إبن شاكر: ومتى كان ذلك؟

صوت: بعد انفصالهم عن الفلكي العجوز يحيى بن أبي منصور، لأن محمد كان رجلاً كريماً يحب الاستقلال الذاتي، فضلاً عن توفّر المال لديه مما أمنّ له بحبوحة العيش. «وقد وضع أبناؤك في سبيل البحث عن الحقيقة كل قواهم. وكانوا الوحيدين في عصرهم الذين برعوا في طرقهم الفلكية، وفي حسن استعمالهم

لها. كما أنهم تركوا المجال لغيرهم من العلماء للتحقق من صحة قياساتهم ودقتها» ـ على حد تعبير البيروني بعد مرور ١٥٠ عاماً في سياق تقريره أن ما قام به أبناء موسى بن شاكر من أبحاث وملاحظات يمكن أن يُعتمد عليها. . .

وبعد استقلال محمد بالعمل في مرصده الجديد راح يبذل الجهود المضنية للقيام بحساباته وقياساته وأرصاده، غير عابىء بما ينفق في سبيلها من أموال طائلة. وان كتابه الشامل في التركيبات ذات الغاية استقبله العرب الذين برعوا وكتبوا في الحيل بالتقدير والاعجاب لما فيه من قيمة ومتعة. فقد عالج موضوعات في علم الحيل الذي برع فيه كأخيه أحمد.

**إبن شاكر:** حدثني قليلاً عن بعض الآلات التي صنعها أحمد بفضل علم الحيل هذا.

**صوت:** من الآلات والألعاب التي ابتكرها أذكر الآت تعيين كثافة السوائل، وتركيبات تتيح للأوعية أن تمتلىء تلقائياً كلما فرغت، وزجاجات تفرغ منها حسب الحاجة كميات معينة من الماء أو الخمر، وقناديل ترتفع فيها الفتائل تلقائياً، كما يُصب فيها الزيت تلقائياً، ولا تطفىء ضوءها الريح. وابتكر آلة تحدث صوتاً من نفسها كلما ارتفع مستوى الماء إلى حدّ معيّن في الحقول، وعدد من نافورات الماء التي تُظهر دوماً صوراً متعددة بمياهها الفوّارة. وقد جاء في كتاب «شمس العرب تسطع على الغرب» للمستشرقة الألمانية زيغريد هونكه في هذا المجال ما يلي:

«وفي مرصد سامراء صنع الأخوان محمد وأحمد آلة هي ذات شكل دائري تحمل صور النجوم ورموز الحيوانات في وسطها، وتديرها قوة مائية. وكان كلما غاب نجم في قبة السماء اختفت صورته في اللحظة ذاتها في الآلة. وإذا ما ظهر نجم في قبة السماء، ظهرت صورته في الخط الأفقي من الآلة».

**إبن شاكر:** إذاً فأحمد اشتغل كمحمد في الفلك؟

**صوت:** أجل، يا سيدي، وقد وضع بالاشتراك معه ساعة نحاسية كبيرة الحجم، وقام بأدق الحسابات وخصوصاً فيما يتعلق بطلوع بعض الكواكب الهامة وهبوطها في الدوران النهاري أو السكني . كما نقل حسابات أخيه محمد الدقيقة المعقدة الى آلات حساسة مدهشة تعتبر معجزات فنية حقاً .

**إبن شاكر:** وماذا عن الابن الثالث ، الحسن ، يا سيدي ؟

**صوت:** كان منفرداً بالهندسة، و احب ذاكرة نادرة ومخيلة واسعة قوية وقد حقق بنفسه دون الاشتراك مع أخويه، كتاباً في قطع المستديرات، وأوجد الشكل البيضوي في هندسة الحدائق، وأعانته على حل المسائل الرياضية التي استعصت على القدامى قوة ذاكرته الخارقة. وقد وصف نفسه بنفسه قائلاً: وكلما كنت أغوص باحثاً عن حل لمعضلة تشغل بالي كنت أحسّ كأن العالم أظلم في وجهي وأصابني شعور بالاغماء، أو كأني مستغرق في حلم».

إبن شاكر: غريب، والله، ما أسمع...

صوت: وكان للحسن طبع عجيب في الهندسة لا يدانيه أحد. علم كل ما علم بطبعه، ولم يقرأ من كتب الهندسة إلا ست مقالات من كتاب اقليدس في الأصول فقط، وهي أقل من نصف الكتاب. ولكن ذكره كان عجيباً وتخيله كان قوياً حتى حدّث نفسه باستخراج مسائل لم يستخرجها أحد من الأولين، كقسمة الزاوية بثلاثة أقسام متساوية، وطرح خطين بين خطين ذوي توال على نسبة فكان يحللها ويردّها إلى المسائل الأخرى، ولا ينتهي إلى آخر أمرها لأنها قد أعيت الأولين، فكان يروّض فكره فيها حتى أنه كان يحكي عن نفسه أنه يغرق في الفكر في مجلس فيه جماعة فلا يسمع ما يقولون ولا يحسّ به.

إبن شاكر: إن لساني ليعجز، يا سيدي، عن شكرك على كل هذه المعلومات التي قدمتها إليّ عن أبنائي، أبناء موسى بن شاكر، فبأعمالهم الجليلة في ميدان العلم محوا من مخيلة الناس صورة والدهم، ذلك الغازي الليلي!

# الخُوارزمي: صاحب أعظم عقل علمي في عصره

(٠٠٠ ـ ٨٥٠)

«وإني لما نظرت فيما يحتاج إليه الناس من الحساب، وجدت جميع ذلك عدداً، ووجدت جميع الأعداد إنما تركّبت من الواحد، والواحد داخل في جميع الأعداد، ووجدت جميع ما يلفظ به من الأعداد ما جاوز الواحد إلى العشرة يخرج من مخرج الواحد. ثم تثنّى العشرة وتثلّث كما فُعل بالواحد، فتكون منها العشرون والثلاثون إلى تمام المائة، ثم تثنّى المائة وتثلّث كما فُعل بالواحد والعشرة إلى الألف، ثم كذلك تزيد الألف...

... ووجدت جميع الأعداد التي يُحتاج إليها في حساب الجبر والمقابلة على ثلاثة ضروب، وهي جذور، أموال، عدد مفرد لا ينسب إلى جذر ولا إلى مال.»

صوت: هذه يا سيدي أبا جعفر، من أروع كلماتك التي جاءت في كتابك «الجبر والمقابلة» أليس كذلك؟ وعلى ذكر الجبر، أودّ أن أشير ههنا إلى أن هذه اللفظة تعبير استعملته من أجل حل المعادلات بعد تكوينها. فما معنى ذلك؟

الخوارزمي: معناه، يا سيدي، ان طرفاً من طرفي المعادلة يكمل ويزداد على الآخر وهو الجبر، والأجناس المتجانسة المتساوية في الطرفين تسقط منهما، وهو المقابلة.

صوت: ولعلك تحب أن تعلم، يا أبا جعفر، أن كلمة الجبر التي استخدمتها في كتابك هذا أعطت العالم أجمع إسم هذا العلم، فهو يعرف باسم Algebra بالانكليزية، وباسم Algèbre بالفرنسية، وسوى ذلك من الألفاظ المماثلة في سائر اللغات، وكلها مشتق من الكلمة العربية «الجبر». ومن هنا تستحق لقب «أبي الجبر!» وقبل أن نتحاور قليلاً في ماهية هذا الكتاب في علم الجبر الذي لا تخفى أهميته في الحضارة من حيث الاكتشاف والاختراع اللذين يعتمدان إلى درجة قصوى على المعادلات والنظريات الرياضية، نود أن نعرف الدوافع التي جعلتك تؤلف هذا الكتاب.

الخوارزمي: قبل أي شيء، وقبل أن أبينّ لك يا سيدي، هذه الدوافع التي ذكرتها في المقدمة أشير إلى أن الخليفة المأمون هو من طلب إليّ وضع هذا الكتاب وشجّعني على ذلك. «. . . ولم يزل العلماء في الأزمنة الخالية والأمم الماضية يكتبون الكتب مما يصنّفون من صنوف العلم ووجوه الحكمة نظراً لمن بعدهم واحتساباً للأجر بقدر الطاقة ورجاء أن يلحقهم من أجر ذلك وذخره، ويبقى لهم من لسان الصدق ما يصغر في جنبه كثير مما كانوا يتكلفونه من المؤونة ويحملونه على أنفسهم من المشقة في كشف أسرار العلم وغامضه. إما رجل سبق

إلى ما لم يكن مستخرجاً قبله فورثه من بعده، وإما رجل شرح مما أبقى الأولون ما كان مستغلقاً، فأوضح طريقه وسهل مسلكه وقرَّب مأخذه، وإما رجل وجد في بعض الكتب خللاً فلمَّ شعثه وأقام أزره وأحسن الظن بصاحبه غير رادٍّ عليه ولا مفتخر بذلك من فعل نفسه...»

صوت: حسناً، هلاَّ بينت لنا الآن شأن «كتاب الجبر والمقابلة» هـذا، والفوائـد التي يجنيها النـاس في معـامـلاتهم التجارية وفي مسح الأراضي، ومواريثهم ووصاياهم؟

الخوارزمي: إسمع ما أقول أيضاً في المقدمة في هذا كله: «وقد شجعنا ما فضَّل الله به الامام المأمون أمير المؤمنين مع الخلافة التي حاز لـه إرثها، وأكـرمه بلبـاسها، وحلاَّه بزينتهـا من الرغبـة في الأدب وتقريب أهله وإدنائهم، وبسط كفَّه لهم ومعونته إياهم على إيضاح ما كان مستبْهماً وتسهيله ما كان مستوعراً. على أني ألَّفت من «كتاب الجبر والمقابلة» كتاباً مختصراً حاصراً للطيف الحساب وجليله لما يلزم الناس من الحاجة إليه في مواريثهم ووصاياهم، وفي مقاسمتهم وأحكامهم وتجاراتهم وفي جميع ما يتعاملون به بينهم من مساحة الأرضين وكرْي الأنهار والهندسة وغير ذلك من وجوهه وفنونه، مقدماً لحسن النية راجياً لأن ينزله أهل الأدب بفضل ما استودعوا من نعم الله تعالى وجليل آلائه وجميل بلائه عندهم منزلته وبالله توفيقي في هذا وفي غيره، عليه توكلت وهو رب العرش العظيم...»

صوت: وأعلم، يا أبا جعفر، أن لكتابك في الجبر أهمية تاريخية خطيرة، ذلك بأن كل ما ألّفه علماء الرياضيات الذين أتوا بعدك كان مبنياً عليه وكانت ترجمته إلى اللغة اللاتينية أساساً لدراسات كبار العلماء في الغرب. وقد ظل طوال قرون كثيرة المصدر الذي استقى منه العلماء الأوروبيون، فضلاً عن بقائه كذلك المصدر الوحيد الذي اعتمد عليه العلماء العرب في بحوثهم الرياضية في مختلف أمصارهم وأقطارهم. . .

الخوارزمي: كم يسرّني أن أعلم ذلك، ولكنك لم تذكر أين ومتى ترجم كتابي؟

صوت: صحيح، لقد سهوت عن ذلك. فقد ترجمه إلى اللاتينية كما سبق أن ذكرت لك، روبرت أوف تشستر، في القرن الثاني عشر للميلاد، ونشر في مدينة طليطلة الأسبانية. وظل يدرّس في أوروبا أربعة قرون. . .

الخوارزمي: شكراً لك على هذه المعلومات. . .

صوت: . . . وبينما كان العرب يشتغلون بالجبر ويستعملونه وينبغون فيه، كان هذا العلم في نظر علماء أوروبا نوعاً من الطلاسم أو الألغاز. ولعلّ أروع دليل على ذلك تلك الرواية الطريفة التي سجّلها التاريخ.

الخوارزمي: هلا رويتها لي، يا سيدي، فلكم أتشوّق لسماعها؟

صوت: يُروى أن المفكر والأديب والموسوعي الفرنسي ديدور، مبتدع «دائرة المعارف» الشهيرة، وكان ملحداً، بلغه

في مطلع عصر النهضة الأدبية والفنية والعلمية التي حدثت في القرنين الخامس عشر والسادس عشر في أوروبا، ان العالم الرياضي أويلر، وكان مؤمناً، وضع برهاناً رياضياً على وجود الله، فطلب قيصر روسيا من ديدور، وكان في ضيافته، أن يقارع أويلر بالحجة والدليل العلمي. وتمّت المقارعة بمعادلة جبرية أمام جمع غفير احتشد في البلاط الروسي، لم يرَ ديدور بداً معها من الهرب بعد أن وقف مشدوهاً أمام تلك المعادلة الجبرية.

الخوارزمي: إنها حقاً لرواية ظريفة، يا سيدي.

صوت: وكان لكتابك « الجبر والمقابلة » ،فضلاً عن مصنفاتك في الفلك، السبب في دخول الأرقام العربية إلى أوروبا. وفي هذا المجال يقول ابن الآدمي الذي عاش في بداية القرن العاشر للميلاد في كتابه الفلكي «عقد اللآلىء»:

ـ«في العام ١٥٦ الهجري وقف في حضرة الخليفة ببغداد رجل من الهند، وكان عالماً في طرق الحسابات الهندية المعروفة باسم «سند هند» والتي تهتم بحركات الكواكب. وكان يحمل كتاباً أخذه من المجموعة التي تحمل إسم الملك فيجار. وقد أمر المنصور بترجمة هذا الكتاب إلى العربية، وبأن يؤلف كتابٌ على نهجه يشرح للعرب سير الكواكب. وعُهد بهذا العمل إلى محمد بن إبراهيم الفزاري الذي ألّف على نهجه كتاباً يعرفه الفلكيون باسم «السند هند الكبير» وكلمة

«السند هند» تعني باللغة الهندية «الخلود» وقد أخذ العلماء بهذا الكتاب حتى عصر المأمون، وحين أعاد محمد بن موسى الخوارزمي كتابته وأضاف إليه عدة زِيجة اشتهرت في البلدان الاسلامية. وأعجب الفلكيون الذين أخذوا بكتاب «سند هند» إعجاباً شديداً وعملوا على نشره».

الخوارزمي: ومن هذا الكتاب عرفنا نحن العرب نظام الأرقام والأعداد الهندية. وقد ألفّت كتاباً بينّت فيه ذلك النظام الهندي وطريقة استخدامه عملياً، وضربت الأمثلة على ذلك لكي أسهّل على رجال المال والتجار والناس أعمالهم. وقدمت، فضلاً عن ذلك، الأمثلة على تقسيم الميراث بين مستحقيه، كما نص على ذلك القرآن الكريم، بطريقة مبسطة جداً بدلاً من تلك العمليات الحسابية المعقدة التي كانت شائعة إذ ذاك.

صوت: ولم تقتصر، يا سيدي، على تعليم الغرب كتابة الأعداد والحساب، بل تخطيت تلك المرحلة إلى المعقّد في مسائل الرياضيات. وما تزال القاعدة الحسابية «اللوغارتم» تحمل حتى اليوم اسمك كعلم من أعلامها. وقد عرف أنصارك في أسبانيا وألمانيا وانكلترا الذين كافحوا كفاحاً مريراً من أجل نشر طريقتك الرياضية باسم «الخوارزميين». وكان انتصارهم على أنصار الطريقة الحسابية المعروفة باسم « أباكوسى» عظيماً، فانتشرت الأرقام العربية التسعة، يتقدمها الصفر، في مختلف أرجاء أوروبا. . .

الخوارزمي: إذاً فأن للعرب، يا سيدي، كما أفهم الفضل في نقلهم إلى العالم الحساب الهندي وتهذيبهم الأرقام الهندية؟!

صوت: أجل يا سيدي، وذلك جزء من النعم العلمية الكثيرة التي جاد بها العرب على العالم... ونأتي الى حساب اللوغارتمات، وأصل كلمة «لوغارتم» المستعملة في الغرب. فقد كان كتابك في هذا الحساب أول كتاب دخل أوروبا. فهلاً بينّت لنا ما هو الحساب الذي يحمل اسمك بعد أن شوه الغربيون لفظه وكتابته؟

الخوارزمي: اللوغارتمات هذه، كما تسميها، هي الحساب الذي يحوّل عمليات الضرب إلى جمع، وعمليات القسمة إلى طرح.

صوت: وقبل أن أذكر لك كيف أُعيد الحق إلى نصابه والعدل إلى محرابه، فيما يتعلّق بهذه التسمية «اللوغارتم» أود القول ان الذين يجهلون هذا الحساب يرددون على سبيل الفكاهة أنها عمليات عقّد بها العلماء الحساب، مشيرين بذلك إلى صعوبة إدراكه...

الخوارزمي: بلا أدنى شك... وماذا لديك الآن حول هذه التسمية؟

صوت: من سخريات القدر حقاً أن تكون ذاكرة التاريخ ضعيفة، فيجهل العالم أصل كلمة «لوغارتم» هذه، فيروح الباحثون في القرن الثالث عشر للميلاد يجهدون فكرهم سعياً وراء معرفة أصلها، فعادوا إلى

كل الحضارات والعلوم القديمة علّهم يجدون لها ذكراً، دون أن يفطنوا إلى البحث عن أصلها عند العرب. ولا مجال لتعداد التأويلات والتفسيرات المختلفة التي طلعوا بها، حتى كانت سنة ١٨٤٥...

الخوارزمي: وماذا حدث في تلك السنة؟

صوت: في تلك السنة ١٨٤٥ وضع رجل فرنسي يدعى رينو، بعد أن تعرّف على اسمك «الخوارزمي» كأصل للفظة أو لحساب «اللوغارتم»، الحلّ الصحيح لهذه المشكلة التي تضاربت حولها الآراء مدة غير قصيرة.

الخوارزمي: شكراً لهذا العالم المنصف إذ أعاد، كما تقول، الأمور إلى نصابها والحق إلى محرابه...

صوت: وقبل أن نختتم هذا اللقاء باستعراض سريع لترجمتك زيادة في التعريف بك، أود أن أشير إلى بعض مؤلفاتك العلمية، وهي، فضلاً عن كتاب «الجبر والمقابلة» و«كتاب الحساب الهندي»، كتاب الزيج، وكتاب في تقويم البلدان تشرح فيه آراء بطليموس، وكتاب التاريخ، وكتاب «الجمع والتفريق»، وكتاب العمل بالاسطرلاب، وكتاب «عمل الأسطرلاب»، غير أن هذين الكتابين الأخيرين لم يصلا إلينا، لا بالعربية ولا باللاتينية، مع الأسف الشديد، ويستدل من كتبك، وبعضها هام ومبتكر، أنك كنت عظيم الموهبة.

الخوارزمي: عفواً، يا سيدي. وقد أعددت أيضاً مجموعة من صور

السماوات والعالم بناءً على إشارة المأمـون، واشترك معي عدد من العلماء في ذلك. ومن هـذه الصور «كتاب صورة الأرض». . .

صوت: ويسميه المؤرخ أبو الفداء «كتاب المربع المعمور».

الخوارزمي: وقد تناولت مسائل التنجيم من الناحية العلمية. مثال ذلك بحثي إلى أي حدّ تنبّأ اقتران الكواكب عند مولد الرسول العربي الكريم برسالته.

صوت: صحيح، ولقد ذكر ذلك ورواه أبو معشر البلخي. ويقـول الطبـري، المؤرخ المعـروف انـك كنت من المنجمين الذين استدعاهم الخليفة الواثق ابان مرضه الأخير لتنبئه بمـا يكون من أمره. فبشرتموه بالعمر الطويل. . .

الخوارزمي: . . . ولكنه توفي بعد ذلك بفترة قصيرة!

صوت: وعـلى ذكر الـطبري أذكـر أنه يلقبـك بالمجـوسي، والقُطْرُبُليّ، فلماذا؟

الخوارزمي: اللقب الأول لست أدري له أي سبب، أما اللقب الثاني القُطْرُبُلّي ، فتعني الذي عاش أو خرج من قُطربلّ، وهي ناحية غربي دجلة بالقرب من بغداد.

ودعني، يا أبا جعفر، أسرد ما تجمَّع لدينا من الأخبار عن حياتك، فهي قليلة وغير موثوق بها لأننا في الكثير من الأحيان لا نعرف أأنت المقصود بها، أم محمد بن موسى بن شاكر. ونحن لا نعرف تاريخ مـولدك، وكل ما نعرفه أنك عاصرت الخليفة المأمون الـذي

تكشفت لـه عبقريتـك وسعة ادراكـك ومعـارفـك، فشملك بـرعايتـه الساميـة، وغمرك بـالنعم الكثيرة وقرّبك إليه، وكنت أحد منجميه. . .

**الخوارزمي:** . . . وعيّنني قيّماً على بيت الحكمة الذي أنشـأه، حيث كنت أجلس السـاعات الـطوال عاكفـاً عـلى الدرس والتأليف. . . وقد اشتركت في حساب ميل الشمس في عهده.

**صوت :** ونبغت حوالى السنة **٢٠٥** هجرية. وكانت وفاتـك حوالي السنة **٢٣٢** هجرية. ويعود السبب في معرفة تاريخ وفاتك إلى أن المؤرخين العرب لم يكونوا يهتمّون بتواريخ الميـلاد للأشخـاص، ولكنهم كانـوا يحتفون بتواريخ وفاتهم بعد ظهور نبوغهم. فشكراً، لك يا أبا جعفر، محمد بن مـوسى الخوارزمي، عـلى كل مـا أسديت من خدمات لتطور العلوم الحديث.

**الخوارزمي:** لا شـكر على واجب، يا سيدي! . .

# الكندي: فيلسوف العرب
## (٨٠١ - ٨٦٧)

ـ «وقد ذكروا من عجيب ما يحكى عن يعقوب بن اسحق الكندي أنه كـان في جواره رجـل من كبار التجار موسَّع عليه في تجارته، وكان له إبن قد كفاه أمر بيعه وشرائه، وضبط دخله وخرجه. وكان ذلك التاجر كثير الازراء مع الكندي والطعن عليه، مدمناً لتكفيره والاغراء به. فعرض لابنه سكتة فجأة، فورد عليه من ذلك ما أذهله، وبقي لا يدري ما الذي له في أيدي الناس وما لهم عليه، مع ما دخله من الجزع على ابنه. فلم يدع بمدينة السلام طبيباً إلّا ركب إليه واستركبه لينظر ابنه ويشير عليه من أمره بعلاج. فلم يجبه كثير من الأطباء لكبر العلة وخطرها إلى الحضور معه، ومن أجابه منهم، فلم يجد عنده كبير غناء. فقيل له: أنت في جوار فيلسوف زمانه، وأعلم الناس بعلاج هذه العلة، فلو قصدته، لوجدت عنـده ما تحب. فدعته الضرورة إلى أن تحمّل عـلى الكندي بأحد أخوانه، فثقل عليه بالحضور، فأجاب وصار إلى منزل التاجر. فلما رأى ابنه، وأخذ مجسّه أمـر بأن يحضر إليه من تلاميذه في علم الموسيقى من قد اتقن الحـذق بضرب العـود، وعـزف الـطرائق المحـزنـة

والمزعجة للقلوب والنفوس. فحضر إليه أربعة نفر فأمرهم أن يديموا الضرب عند رأسه، وأن يأخذوا في طريقة أوقفهم عليها. فلم يزالوا يضربون في تلك الطريقة، والكندي آخذ مجسّ الغلام، وهو في ذلك يمتد نفسه، ويقوى نبضه ويرجع إليه نفسه شيئاً بعد شيء، إلى أن تحرك، ثم جلس وتكلم، وأولئك يضربون في تلك الطريقة دائماً لا يفترون. فقال الكندي لابنه: سل ابنك، فجعل الرجل يسأله وهو يخبره ويكتب شيئاً بعد شيء. فلما أتى على جميع ما يحتاج إليه غفل الضاربون في تلك الطريقة التي كانوا يضربونها وفتروا. فعاد الصبي إلى الحال الأول وغشيه السكات. فسأله أبوه أن يأمرهم بمعاودة ما كانوا يضربون به. فقال: هيهات، إنما كانت صبابة قد بقيت من حياته، ولا يمكن فيها ما جرى، ولا سبيل لي ولا لأحد من البشر إلى الزيادة في مدة من انقطعت مدته، إذ استوفى العطية والقسم الذي قسمه الله له...»

صوت: هذه القصة يرويها لنا القفطي في كتابه «إخبار العلماء بأخبار الحكماء» تدليلاً على شهرة الكندي في الطب ورسوخ قدمه فيه، وابتكاره العلاج الذي يتلاءم وحالة المريض. وقد ذكر ابن النديم لدى إيراده مؤلفات الكندي الطبية عناوين بضع وعشرين رسالة ضاع منها الكثير، ولم يبقَ منها سوى النزر اليسير، ومنها رسالة في الطب البقراطي، ورسالة في تدبير الأصحاء، ورسالة في كيفية الدماغ وغيرها... وما

دمنا ذكرنا بعض مؤلفات الكندي الطبية، فلنشر إلى أن القائمة الكاملة التي أوردها إبن النديم في «الفهرست» تضم مئتين وواحداً وأربعين كتاباً ورسالة... وفيه يقول ابن النديم في كتابه الذي أفرد ست صفحات منه لذكر عناوين مؤلفاته العبارة التي تلخص سيرته:

- «فاضل دهره، وواحد عصره، في معرفة العلوم القديمة بأسرها، بما في ذلك المنطق والفلسفة والهندسة والرياضيات والموسيقى والتنجيم، ويسمّى فيلسوف العرب».

والواقع أن الكندي كان فيلسوف العرب في غير ناحية. فهو الفيلسوف الوحيد من بين مشاهير فلاسفة المسلمين المتحدر من أصل عربي صافٍ. فضلاً عن كونه أول فلاسفة الاسلام.

مع هذا العبقري سيكون لقاؤنا الممتع حقاً... فمن هو الكندي، وماذا عن نشأته وتعلّمه، وشخصيته، واتجاهاته العلمية التي أحلّته هذا المقام المرموق؟ هذا ما سنتحاور معاً فيه، يا أبا يعقوب...

الكندي: وهو كذلك، يا سيدي. أبصرت النور حوالي سنة ١٨٥ هجرية في الكوفة زمن كان أبي أميراً عليها، وأبي توفي بعد مولدي بفترة قصيرة، وقد نشأت في دار الامارة، ثم تربيت في الدار التي انتقلنا إليها في الكوفة نفسها بعد مغادرتنا القصر ووفاة والدي.

صوت: وعلى الرغم من نشأتك في حضن اليتم، وظل الجاه

الزائل، فأنك لا ريب قد شاهدت في طفولتك آثار العز والمجد في قصر أبيك، وسمعت الكثير عن حسبك ونسبك، وأخبار قبيلة كندة اليمنية التي تفاخر بامرىء القيس أشهر شعراء المعلّقات، وأسلافك، الذين طمعوا بالملك، ومن الذين سبق لهم أن كانوا ملوكاً في اليمن.

الكندي: لقد عرفت أنني من سلالة ملوك ووارث تقاليد عريقة اشتهرت بها أسرتنا على مرّ الأجيال، وكانت الدار التي انتقلنا إليها فخمة تليق بالأسرة التي كان ربّها أميراً، غير أننا لم نقم طويلاً في الكوفة، بل انتقلنا إلى بغداد، وأقمنا في دار لا تقلّ فخامة عن دارنا بالكوفة.

صوت: ونأتي إلى درسك وتحصيلك العلم، فنقول انك تثقّفت في حداثتك وصباك في الكوفة والبصرة اللتين غدتا على كرّ الأيام مركزين للعلم والعلماء، بعد أن بناهما الخليفة عمر بن الخطّاب معسكرين، وكانتا تتنافسان تنافساً شديداً على احتلال المقام الأول في العلم والثقافة.

الكندي: وهكذا تعلمت في حداثتي وصباي كل ما كان يتعلمه الصبيان من قراءة، وكتابة، ونحو، وحفظ القرآن، وبعض الحديث والفقه والبلاغة والفصاحة، وقد حفظت قدراً وافراً من الشعر.

صوت: ومن هناك انتقلت إلى بغداد، وكانت آنذاك أعظم المراكز الفكرية في العالم الاسلامي، إن لم يكن في

العـالم بأسـره، وفيها تـأدبت، على حـد تعبير إبن جُلْجُل. فبعد أن أخذت علومك الدينية والأدبية في الكوفة، أكملت ثقافتك بالعلوم الفلسفية والرياضية في بغداد. وقد مكّنتك معارفك الواسعة بهذه العلوم من الارتفاع إلى منزلة مرموقة في خلافة المأمون، إذ انتقلت إلى بلاطه، فقمت بمهام مختلفة، وتمتعت مع عدد غير قليل من العلماء برعاية الخليفة المحب للعلم والعلماء، ونعمتم بسخائه...

الكندي: الواقع أنني تابعت في ذلك الجو دراسة الفلسفة والعلم اليونانيين. ذلك بأنه كان في متناولي ترجمة حنين بن إسحق لمؤلفات أرسطو، وفي طليعتها كتاب «ما وراء الـطبيعـة»، وكتاب آخر يُنسب إلى أرسـطو بعنـوان «الربوبية» إلاّ أنه في الحقيقة من تأليف أحد علماء الافلاطونية المستحدثة، وقد ترجمه لي ابن نعيمة من حمص، ولكنني عدّلت فيه ورتبت مواده، جاعلاً منه كتاباً مدرسياً استعملته في تعليم تلميذي أحمد، إبن الخليفة المعتصم.

صوت: ولقـد قيل ان هـذين الكتابـين، «ما وراء الـطبيعة» و «الربوبية» تركا في الفلسفة العربية أثراً بالغاً أكثر مما تركه أي كتاب آخر. وتجدر الاشارة ههنا إلى أنك لم تكن بعيداً عن الأدب، فقد عُرف عنك أنك كنت ذا أسلوب عربي حسن، وعلى جانب كبير من الذوق الأدبي النقدي، فضلاً عن نظمك الشعر. وهذا يدلّ على أنك كنت عـلى قدر كبـير من الثقافـة الأدبية الرفيعة، ومع ذلك فأن الأدب لم يكن المجال الذي

برزت فيه مواهبك وتجلّت عبقريتك الفذة، بل كانت علوم الفلسفة.

الكندي: إن أعلى الصناعات منزلة، يا سيدي، وأشرفها مرتبه، صناعة الفلسفة التي حدّها علم الأشياء بحقائقها بقدر طاقة الانسان، لأن غرض الفيلسوف في علمه إصابة الحق، وفي عمله العمل بالحق.

صوت: هذا ما تقوله في مقدمة الرسالة التي بعثت بها إلى الخليفة المعتصم، وعنوانها «رسالة في الفلسفة الأولى». وما دمنا في مجال الفلسفة فأني أشير إلى أنه تتجلّى في تحديدك هذا الروحُ الافلاطونية.

الكندي: ينبغي لنا، يا سيدي، أن لا نستحي من استحسان الحق واقتناء الحق من أين أتى، وإن أتى من الأجناس القاصية عنا والأمم المتباينة لنا. فانه لا شيء أولى بطلب الحق، وليس ينبغي بخس الحق، ولا تصغير قائله، فالحق يشرّف الجميع . . .

صوت: والفلسفة بنظرك هي، كما في نظر سواك من الفلاسفة، أم العلوم، ونظريتك في النفس أقرب ما تكون إلى نظرية أفلاطون، منها إلى أرسطو. والروح عندك ليست جسماً بل هي جوهر واحد بسيط، منبثق من الله كما ينبثق النور من الشمس، وهي ليست مادة بل جوهر الهي.

الكندي: تماماً، يا سيدي . . .

صوت: حسناً، يا أبا يعقوب، وانتقل إلى موضوع تدريس

أحمد بن الخليفة المعتصم الذي اتخذت منه سبيلا إلى التأليف في مختلف الموضوعات الفلسفية، والرياضية، والطبيعية، والميتافيزيقية - أي ما وراء الطبيعة -، والأخلاقية، والسياسية. ولم يكن ابن الخليفة تلميذك الوحيد. فقد كان كثيرون يجتمعون بك، ويأخذون عنك، ويقرأون عليك، ويسمعون منك، ويتذاكرون وإياك... وقد ذكر «الفهرست» من تلاميذك ووراقيك حسنويه، ونفطويه، وسلمويه، ورعمويه.

الكندي: ومن تلامذتي أيضاً أبو اسحق إبراهيم، وإبن كرنيب، وأحمد بن الطيب السرخسي، وأبو زيد البلخي، وكانوا جميعاً يترددون علي في داري حيث تقوم مكتبتي المعروفة بالكندية، الزاخرة بالكتب. فكنت ألقي المواضيع عليهم، ثم نتذاكر معاً، ويوجهون إليَّ الأسئلة والاعتراضات، وأتولّى الرد عليهم، وذلك بتأليف الرسالة في الموضوع المدروس ذاك.

صوت: ومن هنا جاءت معظم مؤلفاتك بشكل تعليمي مرتّب. وقد كُشف النقاب عن الجانب التعليمي النافع في الحضارة بالنسبة لفلسفتك بعد العثور على بعض كتبك ونشرها. فقد كنت صاحب مدرسة في الفلسفة والعلوم، بمعنى التفاف التلاميذ حولك، يأخذون عنك وينشرون آراءك، وفي ذلك يقول مايرهوف في كتابه «التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية»:

- «الكندي الذي عاش آنئذ في بغداد، كان أول

فيلسوف مسلم، لم يكن يدير مدرسته، وإنما كان يعطي دروساً خاصة. . .»

الكندي: الواقع أنني استطعت انتزاع الفلسفة من أربابها، وخلق جيل من التلاميذ أصبح أحدهم رئيساً لمدرسة في بغداد، وهو إبن كرنيب.

صوت: غير أنك لم تشتهر في العالم الاسلامي شهرتك في العالم الأوروبي، لأن تلاميذك لم يكونوا كثيرين. ونعود، إذا سمحت، إلى حديثنا عن مناحي عبقريتك المتعددة. ومع أنك صاحب مؤلفات في الطب والكيمياء، فانك أغفلت هاتين الصناعتين في جملة التصنيف. وفوق ذلك كنت طبيباً في بلاط الخلفاء الذين زهوت في عصرهم. إلّا أنك لم تكن تمارس الطب بصورة خاصة.

الكندي: ذلك هو الواقع، وقد كنت أميل إلى درس الكتب والتصانيف الطبية، وتأليفها، أكثر مما أميل إلى معالجة المرضى.

صوت: وماذا تقول عن اشتغالك بالكيمياء؟

الكندي: أما في علم الكيمياء فقد ألفت كتاب «كيمياء العطر» و«رسالة في العطر وأنواعه»، و«كتاب التنبيه على خدع الكيميائيين»، و«كتاب في إبطال دعوى من يدعي صنعة الذهب والفضة».

صوت: ولكن هاتين الرسالتين الأخيرتين اللتين تتحدث فيهما عن خدع الكيميائيين وعن إبطال دعوى من يدعي صنعة الذهب والفضة مفقودتان مع الأسف الشديد،

الأمر الذي لا يتيح لنا معرفة آرائك، وأدلتك على ذلك.

الكندي: لقد راود الأمل، يا سيدي، منذ الأزل الكثيرين من العلماء والفلاسفة بإمكان تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب باستخدام ما كانوا يسمونه الاكسير، أو حجر الفلاسفة، للحصول على الثروة من أهون سبيل. وكنت معاصراً للنزاع الذي قسم الفلاسفة في أمر الكيمياء فريقين، الواحد منهما يقول بإمكان ذلك، والآخر ينكره، وقد كنت شخصياً على رأس الفريق الثاني، ولذا ألفت هاتين الرسالتين...

صوت: لقد دهمنا الوقت، وبات لزاماً علينا ذكر سائر اهتماماتك العلمية بإيجاز ما أمكن. وقد كانت الرياضيات تأتي بعد الطب من حيث الأهمية عندك. ومن العلوم المشاركة للرياضيات والمرتبطة بها علم الفلك. وأشير هنا إلى أن بعض كتبك تُرجم إلى اللاتينية في وقت مبكر، الأمر الذي أذاع شهرتك في الغرب.

الكندي: وقد اشتغلت كذلك في علم المناظر، وألفت كتباً فيه.

صوت: نحن نسمي هذا العلم اليوم علم البصريات، وقد جعل اسمك معروفاً في الغرب أيضاً، بعد أن نقلت كتبك فيه إلى اللغة اللاتينية. وأذكر في هذا المجال أن مؤلفاتك في هذا الموضوع هيأت الجو للحسن بن الهيثم، هذا العالم العربي الذي يُعتبر من أعظم علماء المناظر في كل العصور...

الكندي: وقد اشتغلت بالتأليف في الموسيقى، وعالجت هذا الفن بطريقة علمية دقيقة...

صوت: ... وكنت مبتكراً في دراساتك. فضلاً عن أنك أضفت وتراً نظرياً خامساً إلى أوتار العود فحصلت على السلّم الثاني المضاعف دون أن يكون هناك حاجة إلى المناوبة. ولا يزال السلّم الموسيقي الذي وضعته شائع الاستعمال إلى يومنا الحاضر هذا. وقد مهّدت السبيل للعالمين الفارابي وابن سينا اللذين اشتغلا مثلك في حقل الموسيقى والفلسفة...

الكندي: يسرني أن أعرف منك ذلك...

صوت: وأخيراً، أقول ان معلوماتنا قليلة وغير أكيدة عن تاريخ وفاتك، والعلّة التي أودت بك. ولكن الآراء تتفق على أن نهايتك كانت في أواخر سنة ٢٥٢ هجرية/ ٨٦٧ ميلادية، وهي السنة التي قتل فيها المستعين بالله، إثر الفتنة التي اندلعت تلك السنة.

الكندي: وهو كذلك... وماذا يُعرف عن العلة التي مت فيها؟

صوت: يقول لنا أبو معشر البلخي، وهو المنجم الذي كان معاصراً لك، انك كنت تشكو من ألم في ركبتك، وكنت تداوي علتك هذه بالخمرة المعتقة. فلما استبدلتها بالعسل ساءت صحتك، وازدادت آلامك، إلى أن بلغت الدماغ، فمتّ...

وفي الختام يعدد إبن النديم في فهرسته مؤلفات الكندي ويصنفها كما يلي: ٢٢ كتاباً في الفلسفة،

و١٩ في النجوم، و١٦ في الفلك، و١٧ في الجدل، و١١ في الحساب، و٢٣ في الهندسة، و٢٢ في الطب، و١٢ في الطبيعيات، و٨ في الكريات، و٧ في الموسيقى، و٥ في تقدمة المعرفة، و٩ في المنطق، و١٠ في الاحكاميات، و١٤ في الاحداثيات، و٨ في الابعاديات... «وكذلك له رسائل في إلاهيات أرسطو، وفي معرفة قوى الأدوية المركبة، وفي المد والجزر، وفي علة اللون اللازوردي الذي يُرى في الجو، وفي بعض الآلات الفلكية، ومقالات في تحاويل السنين وعلم المعادن وأنواع الجواهر والأشباه وأنواع الحديد والسيوف وجيّدها»...

# الجاحظ: أبو الأدب العربي
## (٧٧٥ - ٨٦٨)

- «لم أَرَ قَطُّ ولا سمعت من أحبّ الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ، فانه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته، كائناً ما كان، حتى أنه كان يكتري دكاكين الورّاقين ويبيت فيها للنظر».

صوت: هذا ما أورده ياقوت في «معجم الأدباء» على لسان أبي هفّان، وهو أصدق صورة للجاحظ - عصامي الأدباء، وأبي الأدب العربي الذي نحاول في هذا اللقاء أن نرسم صورة مصغرة لشخصيته الجبارة التي ملأت تاريخ الأدب العربي بعقلها الواسع وثقافتها البعيدة الغور. وقد تجلّت تلك الشخصية في مؤلفاته الكثيرة التي سنُلِمُّ بها قدر المستطاع بعد أن نُلِمَّ بوقائع حياته الحافلة الطويلة التي امتدت إلى زهاء قرن من الزمن. فقد ولد في مدينة البصرة حوالي سنة ١٥٩ هجرية (أو ٧٧٥ ميلادية)، ومات سنة ٢٥٥ هجرية (أو ٨٦٨ ميلادية) فيكون قد عاش ستة وتسعين عاماً.

الجاحظ: ولقد شكوت أنا نفسي كبر السن في قولي عند ذكري مرضي:

«وأشد من ذلك ست وتسعون سنة أنا فيها».

صوت: ولكن اسمح لي يا شيخ أدباء العرب، قبل الخوض في تفاصيل سيرتك، أن أنقل إليك رأي أديب لبناني كبير كان شديد الاعجاب والتقدير لك هو مارون عبود. فهو القائل:

ـ «ما رأيت لعظيمنا شبيهاً إلا فولتير، أديب أوروبا الأعظم، فكأنهما جُبِلا من طينة واحدة... صبهما الباري في قالب واحد ثم كسره، وهيهات أن يُبدع ثالثاً... شخصيةٌ بارزةٌ في كل شيء. ففي حياته شخصية بارزة لا تمتزج بغيرها من الشخصيات، وفي آرائه متكلم شخصي، وفي إنشائه أديب شخصي. هو الرجل الذي يكوِّن نفسه ويطبعها على غرار خاص. وكلمة «نسيجُ وَحْدِهِ» كأنها كُتبت لتقال في الجاحظ».

صوت: بعد هذه المقدمات أبدأ بالقول: السلام على معلم أهل القلم في عصره وبعد عصره.

الجاحظ: وعليك السلامُ ورحمة الله وبركاته، خير إن شاء الله.

صوت: خير ولا شيء غير الخير، بإذن الله. هلّا سمحت لي يا أبا عثمان عمرو بن بحر ببعض الوقت لتعريفك إلى قرائنا الكرام.

الجاحظ: كدت أنسى إسمي الأصلي لأن أهل الأرض عرفوني باسم الجاحظ. ولا عجب فقد نسيت كنيتي مرة ثلاثة

أيام، فسألت أهلي: بماذا أُكنّى؟ فقالوا لي: أبا عثمان... والغريب في الأمر أن لا عثمان هناك.

صوت: وأنت نفسك أهملت إسمك عمرو...

الجاحظ: مع انني كنت أعتد باسمي الحقيقي هذا وأُسميه الاسم المظلوم لزيادة الواو عليه... ان هذا الاسم عمرو لم يقع في الجاهلية والاسلام إلا على فارس مذكور، أو ملك مشهور، أو سيد مطاع، أو رئيس متبوع.

صوت: ولُقِّبْتُ بالجاحظ لجحوظ عينيك،وبالحَدْقي لنتوء حَدْقتيك. وقد كنت كسقراط بشاعةً ودمامةً.

الجاحظ: على أني استطعت أن ارتفع بلقب الجاحظ رغم هُجْنته إلى أعلى المراتب. ولا يثيرني في شيء قولُ بعض خصوم المعتزلة يهجوني بقوله:

لو يُمسَخُ الخِنزير مسخاً ثانياً
ما كان إلاَّ دون قُبْحِ الجاحظِ

صوت: تُدهشني صراحتك، يا أبا عثمان، ويدهشني ظرفك. ولكن ما العملِ وجَدُّكَ كان جمّالاً وعبداً أسود فَوْرِثت عنه الدمامة وخُلقتَ قصيراً؟

الجاحظ: لا تذهب إلى ما تُريك العينُ بل اذهب إلى ما يُريك العقل!

صوت: واعلم أن غيرَ واحد من مشاهير العلماء والأدباء نازعك هذه التسمية «الجاحظ» حتى أن الأستاذ

الرئيس أبا الفضل بن العميد، من شدة إعجابه بك، أحبَّ أن يوصف بالجاحظ الثاني.

**الجاحظ:** حسناً، أحسب أننا استرسلنا في هذا كثيراً، فهلا انتقلت بنا إلى موضوع آخر.

**صوت:** نشأتَ في البصرة نشأةً مثيرة في أول أمرك، وكنت تبيع في صباك الخُبزَ والسمك في سِيْحَان، أحدِ أنهر البلدة. وربما أفدت من هذه التجارة ما سهل لك العيشَ الكريم وطلبَ العلم في الكُتَّاب، ومخالطة العلماء والأدباء ممن كانوا يتخذون المسجد منتدى لهم، واكتراء حوانيت الورّاقين للمطالعة.

**الجاحظ:** وما أن ناهزتُ البلوغَ حتى تلقيتُ الفصاحة وأساليب التعبير شفاهاً عن خطباء العرب في المربد الذي ألِفْتُ التردد عليه منذ حداثتي. فلما حصَّلت قدراً صالحاً من العلم والأدب قصدت بغداد واتصلت فيها بالكبار من رجال الدين وعلماء اللغة. وترددت إلى مجالس الأدباء مثل إبن وهب وابن الزيات، فوجدت عندهم ما لم أجده عند مشايخي الذين أخذت عنهم الشعر والأدب.

**صوت:** وكانت مصادر ثقافتك كثيرة ومتنوعة، منها أساتذتك، ومطالعاتُك في كتب العرب واليونان والفرس والهنود وغيرهم، ثم تجاربك ومعايناتك. ومن أساتذتك نذكر أبا عُبيَدة، والأصمعي، وأبا زيد الأنصاري، وأبا إسحق النظَّام. . .

**الجاحظ:** وقد قلت فيه: الأوائل يقولون: في كل ألف سنة

رجل لا نظير له، فإن كان ذلك صحيحاً فهو أبو إسحق النظَّام...

صوت: وكنت في بادىء أمرك تلميذاً للنظَّام الذي كان يسير على مبادىء أرسطو وتلامذته، مُحكِّماً العقل في الوحي.

الجاحظ: فلما رأيتُ جفاف تلك الفلسفة «اليونانية المنطقية» لجأت إلى تطبيق مبادئي على التاريخ والاختبار. فانفردت عن المعتزلة وأسست مذهباً جديداً في الفلسفة عُرف بالجاحظية.

صوت: وكنت تحكِّمُ العقل، فإذا بالجاحظية لا تقل شأناً عن غيرها من الحركات الفكرية المعاصرة لها. وفي سنة ٢٠٤ هجرية أي بعد أن تجاوزت الخمسين، قصدت بغداد في عهد المأمون.

الجاحظ: فكنت مِحَجّة العلماء والأدباء. وبدأتْ شهرتي تتخطى الآفاق وشرعت أؤلف الكتب، وكنت أنسِبُها، أول الأمر، إلى إبن المقفع وسهل بن هارون أو غيرهما من المتقدمين، حتى يقبل الناس عليها وينسخوها وتسير بينهم.

صوت: وظهرتَ أول ما ظهرتَ مؤلّفاً في زمن المأمون. وقد جعلك هذا الخليفة على ديوان الرسائل فلم تتحمل الوظيفة أكثر من ثلاثة أيام، ثم استعفيت. وقد قال سهل بن هارون في ذلك:

«إن ثَبُتْ الجاحظ في هذا الديوان أفَل نجمُ الكُتّاب».

الجاحظ: والحقيقة أنني تركت ديوان الرسائل لأنني لم أشأ التنازل عن شخصيتي فخرجت منه هازئاً طموحاً.

صوت: فلما كان زمن المعتصم، وصارت الوزارة إلى إبن الزيات لمع نجمك لصلتك بالوزير، فألفتَ له كتاب «الحيوان»، وكان أول كتاب في موضوعه باللغة العربية. ولا عجب أن يكون عهد إبن الزيات عهدكَ الذهبيَ من حيث الاستفادة المادية والقيام بالأسفار إلى دمشق وأنطاكية ومصر، فاتسع بذلك خيالك وزاد علمك.

الجاحظ: ومما لا شك فيه أن هذه الأسفار كانت ثقافة جديدة اكتسبتها من غير الكتب بدرس طبائع الناس وأخلاقهم ومعرفة دخائلهم.

صوت: ولذا فنحن نرى في كتبك شيئاً ملموساً عن الحياة، فكأننا نراها ونذوقها من وصفك لها، وهذا لا نراه إلاّ في كتبك. ومن هنا كانت كتب الجاحظ أغزرَ مصدر لدرس الحياة الاجتماعية في عصرك.

الجاحظ: وأحب هنا أن أوضح أمراً وهو أنني لم أكن مؤرخاً في رحلاتي إلى مختلف البلدان، بل كنت عالماً ينقّب!

صوت: وكان زمن خلافة المتوكل الذي بطش بالوزير ابن الزيات ورفع من منزلة خصمه القاضي إبن أبي دؤاد. وكان هذا حاقداً عليك لصدودك عنه وانقطاعك إلى إبن الزيات. فطلبك ليقتص منك فهربت، ولكنه اعتقلك وأحضرك مقيد الرِجلين مغلولَ العُنق وعليك قميصٌ مخرَّق.

الجاحظ: ثم رضي عني، وألّفت له كتاب «البيان والتبيين»!

صوت: ... وهو باكورة الكتب العربية التي تشتمل على لمعٍ في تقويم الذوق الأدبي وتعليم نقد الكلام.

الجاحظ: وبعد أن فلج القاضي إبن أبي دؤاد لزمتُ ابنه أبا الوليد، وبقيت في خدمته حتى كثر الشاكون، فصرفني المتوكل.

صوت: وكان بينك وبين الفتح بين خاقان، وزير المتوكل، مودَّة. وقد اتصلتَ به وقدَّمت إليه بعض كتبك، ولطالما سعى الفتح في تقريبك من بلاط الخليفة، ولكنَّ دمامة وجهك كانت تحول دون ذلك.

الجاحظ: ذُكرتُ للمتوكلِ لتأديب بعض وُلده، فلما رآني استبشع منظري، فأمر لي بعشرة آلاف درهم وصرفني.

صوت: وامتدت الأيام بك حتى جاوزت عصر المتوكل. وكان عمرك ستاً وتسعين سنة حين توفيت بالبصرة عام ٢٥٥ هـ/٨٦٨ م. وفي أواخر أيامك اشتدت عليك وطأة المرض ومع ذلك كنت تقول بسخريتك اللاذعة المعروفة لمن يسألك عن حالك...

الجاحظ: «... إصطلحت على جسدي الأضدادُ، إنْ أكلت بارداً أخذ برجلي، وإن أكلت حاراً أخذ برأسي... أنا من جانبي الأيسر مفلوجٌ لو قُرِضَ بالمقاريض ما علمت، ومن جانبي الأيمن مُنْقَرِسٍ لو مرّ به الذباب لتألمت. وبي حصاة لا يَنْسَرِحُ البولُ مَعَها. وأشد ما علي ست وتسعون سنة!»

صوت: ونأتي الآن إلى آثارك الكتابية التي تؤلف موسوعة علمية وأدبية حقاً. ولكن مما يؤسف له أنها لم تصل إلينا كلها. فقد ضاع منها عدد كبير. وما وصلنا منها طبع معظمه، ولا يزال بعضه مخطوطاً ومبعثراً في خزائن الشرق والغرب.

الجاحظ: ماذا تقول، أضاع عدد كبير من مؤلفاتي؟ يا للخسارة فقد بلغت ثلاثمئة وخمسين ويزيد بين كتاب ورسالة... فأنا كتبت في الفلسفة والاعتزال، والدين، وفي الاجتماع والأخلاق، وفي التاريخ والجغرافية والطبيعيات والرياضيات، وفي العصبية وتأثير البيئة، وفي الأدب والشعر والعلوم اللسانية والأدبية، وفي موضوعات شتى...

صوت: الواقع انه ليس في العربية أغزر إنتاجاً منك، ولا أكثر تنويعاً في الموضوعات التي عالجتها، ولا أقدر على ضروب الأساليب. وسنستعرض باختصار بعض مؤلفاتك للتعريف بها، ثم نختار قطعتك الرائعة في وصف الكتاب وفضائله نظراً لحبك العظيم للعلم والكتب.

الجاحظ: كما تشاء، فبمَ تود أن نبدأ؟

صوت: دعنا نبدأ بكتابك الشهير «الحيوان» الذي جعلته في سبعة أجزاء، وألّفته لبيان الحجج على حكمة الله السامية وقدرته العجيبة. وهو أيضاً مزيج من جدّ وهزل، وحكمة، وتاريخ، وعلم. ولكنك لم تؤدِ لنا بأسلوبك العلمي في هذا الكتاب إلّا حقائق تعدّ اليوم بدائية بسيطة.

الجاحظ: الحقيقة، يا سيدي، أنني لم أقصد إلى مجرد الحقائق العلمية أؤديها، بل كما سبق وقلت، قصدت إلى غاية من غايات علم الكلام، وهي إثبات وجود الخالق وحكمة الخالق بدرس مخلوقاته.

صوت: ولكن برغم هذا تبقى لكتابك هذا قيمة علمية عظيمة تنحصر في محض الأسلوب العلمي الذي كنتِ أول ممثل له في العربية، فضلاً عن إبداعك الأدبي.

الجاحظ: في هذا المجال أحب أن أقول انني في أسلوبي العلمي ذهبت إلى أعمق من تركيز الكلام على الموضوع، وإلى أبعد من استعمال الألفاظ الوضعية. فقد كنت محققاً أتحرّى معرفة الصحيح واليقين بالوسائل التي أستطيعها، فكنت أجمع الأخبار وأقارن بينها، وأقيسها بالمعقول إذا لم يمكنّي العيان والتجربة.

صوت: والعيان والتجربة والسماع لمن مارس الأسفار وركب البحار وسكن الصحارى لم تكن لتعدل بها شيئاً، وكنت كثير الشك، جريئاً على نفي ما لا يصحّ...

الجاحظ: ... حتى ولو نسب الخبر إلى أساطين العلم والفهم كأرسطو مثلاً...

صوت: وننتقل الآن إلى كتابك الرائع «البخلاء» هذا الأثر الفني الذي يتميز بروح القصص، وحكمة الفيلسوف الناقد الاجتماعي. ولئن كتب موليير، المسرحي الفرنسي الساخر واصفاً بخيلاً واحداً، بعدك بقرون، فأنت لم تدع بخيلاً يفلت منك.

الجاحظ: هنا أحبُّ أن أقول إن القارىء، يخال أن كتاب «البخلاء» مجرد حكايات ونوادر مضحكة، مع أنها أعمق دراسة للنفس البشرية، تحلل الأعمال وبواعثها وأغراضها.

صوت: ونصل أخيراً إلى كتابك «البيان والتبيين» وهو آخر ما ألّفت، وموضوعه الأدب والنقد. فيه تظهر نزعتك العربية، فأنت تردّ على الشعوبية، وتكثر من إيراد ما للعرب من مظاهر البلاغة.

الجاحظ: وأنا أُضيف فيه إلى الثقافة العربية الواسعة عناصر مختلفة مما تقدمّه الثقافات الأخرى اليونانية والفارسية والهندية وغيرها...

صوت: والآن، هلاَّ أسمعتنا مختارات من قطعتك الرائعة في وصف منافع الكتاب؟.

الجاحظ: «... الكتاب وعاء ملىء علماً، وظَرْف حُشي ظُرفاً، وإناء شُحن مزاحاً وجداً. إن شئت كان أبين من سحبان وائل، وإن شئت كان أعيا من باقل، وإن شئت ضحكت من نوادره، وإن شئت عجبت من غرائب فرائده... ولا أعلم جاراً أبرَّ، ولا خليطاً أنصف، ولا رفيقاً أطوع، ولا معلماً أخضع، ولا صاحباً أظهر كفاية، ولا أقل جناية، ولا أقل إملالاً وإبراماً، ولا أجمل أخلاقاً، ولا أقل خلافاً وإجراماً، ولا أقل غيبة، ولا أقل تصلقاً وتكلّفاً، ولا أبعد من مراد، ولا أترك لشغب، ولا أزهد في جدال، ولا أكفّ عن قتال من كتاب... ولا أعلم قريناً أحسن

موافاة ولا أعجل مكافأة، ولا أحضر معونة، ولا أخفّ مؤونة، ولا شجرة أطول عمراً، ولا أجمع أمراً، ولا أطيب ثمرة، ولا أقرب مجتنى، ولا أسرع إدراكاً، ولا أوجد في كل إبّان من كتاب!.. والكتاب هو الجليس الذي لا يطريك، والصديق الذي لا يغريك، والرفيق الذي لا يملّك، والمستميح الذي لا يشتريك، والجار الذي لا يستبطيك، والصاحب الذي لا يريد استخراج ما عندك بالملق، ولا يعاملك بالمكر، ولا يخدعك بالنفاق، ولا يحتال لك بالكذب... والكتاب هو الذي يطيعك بالنهار، ويطيع في السفر كطاعته في الحضر، ولا يعتلّ بالنوم، ولا يعتريه كلال السهر. وهو المعلم الذي إن افتقرت إليه لم يخفرك، وإن قطعت عنه المادة لم يقطع عنك الفائدة، وإن عُزلت لم يدع طاعتك، وإن هبت ريح أعاديك لم ينقلب عليك، ومتى كنت منه متعلقاً بسبب، أو معتصماً بأدنى حبل، كان لك فيه غنىً من غيره، ولم تضطرك وحشة الوحدة إلى جليس السوء!

صوت: شكراً، يا أبا بحر، سأدعك الآن لكتبك وكتابتك، والسلام عليك...

الجاحظ: ... ورحمة الله وبركاته!

# أبو معشر البلخي : صـاحب الاصابـات العجيبة

(٨٠٥ - ٨٨٥)

صوت : - « كان ابو معشـر جعفر بن محمـد بن عمر البلخي متصـلا بخـدمـة بعض الملوك ، واتفق أن هـذا الملك طلب رجـلا من أتباعـه وأكـابـر دولتـه ليعـاقبـه بسبب جـريمة صـدرت منه. فـاستخفى. وعلم أن أبـا معشـر يدل عليه بـالطرائق التي يستخـرج بها الخبـايا والأشيـاء الكـامنة. فـأراد أن يعمل شيئـا لا يهتدى اليـه، ويبعد عنه حدسه. فأخذا طستا، وجعـل فيه دمـا. وجعل في الـدم هاون ذهب. وقعـد على الهـاون أيامـا. وتـطلب الملك ذلـك الـرجـل. وبـالـغ في التـطلب. فلما عجـز عنه، أحضر أبـا معشر وقـال له: « تعـرفني موضعـه بما جـرت عادتـك به ». فعمـل المسألـة التي يستخرج بهـا الخبـايا. وسكت زمـانا حـائرا. فقـال له الملك : « مـا سبب سكـوتـك وحيـرتـك؟ » قـال : « أرى شيئـا عجيبـا ». فقال : « ومـا هو ؟ » قـال : « أرى الرجـل المـطلوب على جبـل من ذهب، والجبـل بحـر من دم. ولا أعلم في العـالم مـوضعـا من البـلاد عـلى هـذه الصفـة ». فقال لـه : « أعـد نـظرك، وغـيّر المسـألـة، وجدد أخذ الطالع ». ففعل. ثم قال : « مـا أراه، إلا كـما ذكرت. وهـذا شيء مـا وقـع لي مثله ». فلما أيس

الملك القدرة عليه بهذا الطريق أيضا، نادى في البلد بالأمان للرجل، ولمن أخفاه. وأظهر من ذلك ما وثق به. فلما اطمأن الرجل ظهر وحضر بين يدي الملك. فسأله عن الوضع الذي كان فيه. فأخبره بما اعتمده. فاعجبه حسن احتياله في إخفاء نفسه، ولطافة أبي معشر في استخراجه ».

هذا ما نقله إبن خلكان صاحب كتاب « وفيات الأعيان » من بعض المجاميع في الدلالة على إصابات أبي معشر البلخي الذي قرن، شأنه في ذلك شأن علماء عصرة، علم النجوم بصناعة التنجيم. وفيه يقول ابن النديم في كتابه « الفهرست »: « وكان فاضلاً، حسن الاصابة والقريحة »!... فلنتعرف الآن إلى هذا العالم العربي الذي يعتبر من كبار علماء النجوم والمنجمين من العرب وأشهرهم في أوروبا منذ القرون الوسطى، في هذا اللقاء...

أبو معشر : سيدي الجليل، قبل أن نبدأ حوارنا، أود أن اذكر في صدد الاصابات التي تحدثت عنها، أن الخليفة المستعين ضربني مرة أسواطا لأنني أصبت في شيء خبرت به قبل وقته وقد حدث، وقد قلت ذلك: « أصبت فعوقبت! »

صوت : حسنا، يا أبا معشر، وعلى ذكر التكهنات، وقبل أن ننتقل إلى عرض سيرتك، ومصنفاتك الكثيرة العلمية القيمة أذكر أنك تؤكد في كتابك « كتاب أحكام تحاويل سني المواليد »، وهو ثماني مقالات، الذي

ترجمه الى اللاتينية العالم الالماني يوهانس هيسبالنسيس وطبع في مدينة أوغسبورغ الألمانية سنة ١٤٨٩، ثم في البندقية سنة ١٥١٥، شيئا عن خلق العالم، ونهايته فهلا ذكرت لنا ذلك؟

أبو معشر : قلت يا سيدي، ان العالم خلق عندما اقترنت الكواكب السيارة السبعة عند الدرجة الأولى في منطقة برج الحمل، وسينتهي عندما تقترن اقترانا مماثلا في آخر درجة من منطقة برج الحوت. . .

صوت : لاسمح الله، واسمح لي في هذا المجال أن أردد المثل العربي القديم. . .

أبو معشر «كذب المنجمون ولو صدقوا»! أليس هذا ما كنت تود ترديده؟!

صوت : أصبت! ولمعلوماتك أذكر لك ان العلماء الفلكيين اكتشفوا بعد زمنك ثلاثة كواكب أو ثلاث سيارات اخرى هي : أورانوس، ونبتون، وبلوطو، فعسى ألا تصدق تكهناتك التي كانت قائمة على سبع سيارات فحسب، وخصوصا أن العلماء اليوم يحددون سنة ١٩٨٢ المقبلة موعدا لاقتران الكواكب، أو تجمعها. . .

أبو معشر : أصحيح ما تقول ؟

صوت : أجل، ولزيادة معلوماتك أنقل ان العلماء يقررون ان مثل هذا التجمع أو الاقتران، إذا شئت، يحصل كل ١٧٩ سنة، وفي كل مرة يحصل ذلك تحدث

زلازل وكوارث، واضطرابات عنيفة، والأمثلة على ذلك كثيرة وليس هنا مجال التبسط فيها.

أبو معشر : أرأيت، إذن يا سيدي، ان اقتران الكواكب نذير شؤم، وترافقه كوارث واضطرابات وأحداث خطرة ؟

صوت : بكل تأكيد... أبعد الله عنا هذه الكوارث، وبالأخص نهاية العالم التي طالما تحدث عنها الناس، وفعلوا الكثير لاتقائها. ولنتحول الآن إلى ترجمتك، إذا شئت، فأنت معروف في الغرب بأسم ALBUMASAR

أبو معشر: أبصرت النور في بلخ، شرقي خراسان سنة ٨٠٥ ميلادية، ونُسبت إلى مسقط رأسي. وهبطت بغداد طلباً للعلم، وأقمت بباب خراسان، الواقع في الجانب الغربي منها...

صوت: وقبل اشتغالك بالعلوم كنت من أصحاب الحديث في بادىء أمرك. وكنت تضاغن الفيلسوف أبا أسحق يوسف يعقوب بن أسحق الكندي، وتغري به العامة، وتشنع عليه بعلوم الفلاسفة، على ما جاء في الفهرست لابن النديم الذي يقول في هذا المجال:

ـ «فدس عليه الكندي من حسّن له النظر في علم الحساب والهندسة. فدخل في ذلك، فلم يكمل له. فعدل إلى علم أحكام النجوم، وانقطع شرّه عن الكندي بنظره في هذا العلم لأنه من جنس علوم الكندي».

صوت: ويقــال انـك تعلمت النجــوم في سن الســابعــة والأربعين...

أبو معشر: ... بل في سن الأربعين، يا سيدي، أو بعيدها بقليل، فضلاً عن دراستي التـاريخ العـام، وأخبار الفرس خصوصاً.

صوت: حتى غدوت «أعلم الناس بسير الفرس وأخبار سائر الأمم» - حسب قول ابن صاعد الأندلسي في كتابه «طبقات الأمم». فهلا ذكرت لنا من أخذت عنه من العلماء؟

أبو معشر: في طليعـة من أخـذت عنهم من علماء عصــري، سند بن علي، وعبد الله بن يحيى، ومحمد بن الجهم.

صوت: وعلى ذكر ابن صاعد الأنـدلسي أحب قبل الاستـرسال في الحـوار، أن أنقـل إليــك، وإلى القـراء رأيــه هـذا فيك:

- « عـالم أهل الاسـلام بأحكـام النجوم، وصـاحب التآليف الشريفة والمصنفات المفيـدة في صناعـة الأحكام وعلم التعديل ».

أبو معشر: حسناً، وقد اتصلت بأخي الخليفة المعتمد، الخليفة المـوفق، الذي اتخـذني منجماً لـه، وقـد رافقتـه في محاصرته للزنج في البصرة زمن ثورتهم. وأقمت في واسط في أيام حياتي الأخيرة.

صوت: وفيها كانت وفاتك، في ٢٨ رمضان من سنة ٢٧٢

للهجرة، وقد جاوزت حد المائة... وكـان السبب الصرع على حد قول إبن العبري:

ـ «كـان يعتريـه صرع عنـد أوقـات الامتـلاءات القمرية، وكان مدمناً على الخمر، مستهتراً بمعاقرتها».

أبو معشر: سامح اللّه إبن العبري...

صوت: ولننتقل الآن إلى آثارك، فكم تركت لنا من المصنَّفات في النجوم والتنجيم؟

أبو معشر: أذكر أنها تبلغ بضعة وثلاثين كتاباً، وأحب أن أشير ههنا إلى انني استفدت في أحكام النجوم من آثـار معـاصريّ، كـما استفدت من آثـار قدامى الفـرس والهنود.

صوت: غير أنك لم تنجُ، كسائر رجال الأدب والعلم في كل مكان وزمان، من تهمة انتحال مؤلفات غيرك، وأنت من كـل ذلك بـراء. فهلّا تحـدثّنـا الآن عن أهم مصنفاتك. ولنبدأ بكتاب «المدخل الكبير».

أبو معشر: يتـألف هـذا الكتـاب من ثمـانيـة فصـول، وأبـرز مـا يتضمنه العرض لظاهرة المد والجزر، مما جمعته بواسطة الملاحظات الـدقيقة والتعليـلات الخيـاليـة. وقـد لفت النـظر إلى كون القمـر يبسط تأثيـره حتى على الأهـويـة والأمطار، وسائر العناصر في عالم الكون والفسـاد.

صوت: واعلم أن كتاب «المدخل الكبير» هذا لم يُطبع بعد بالعربية، ولكنه تُرجم إلى اللاتينية مرتين، الأولى سنة ١١٣٠ ميلادية والثانية سنة ١١٥٠ وذلك بعناية عالمين

ألمانيين. وقد تعددت طبعات الترجمة الثانية في كل من ألمانيا وإيطاليا، الأمر الذي يدل على أهمية ما جاء في الكتاب من علم وصناعة، واهتمام الناس بالمعلومات التي انطوى عليها!

أبو معشر: من عجب، يا سيدي، أن يتعرَّف العالم على منصفاتي من الترجمات، وتبقى مخطوطاتي غير مطبوعة.

صوت: ونذكر من كتبك أيضاً، «كتاب القرانات»، و«كتاب مواليد الرجال والنساء»، و«كتاب الألوف في بيوت العبادات». فماذا في هذا الكتاب؟

أبو معشر: ... إنه ثماني مقالات، وفيه وصف لما أنشىء في العالم من هياكل ومعابد لمختلف الديانات على مرّ السنين ألفاً ألفاً.

صوت: وكتاب «الزيج الكبير» أو «زيج الهزارات» في حركات النجوم.

أبو معشر: أي مجموعة الجداول الفلكية... وقد حسبت فيه حركات السيارات فيها وفقا لخط الهاجرة المقرر لدى فلكيي الفرس ولنظرية علماء الهند في الأدوار الألفية المعروفة بالهزارات. وفيه لمعلوماتك، نيف وستون بابا.

صوت: وفيه يقول إبن صاعد الأندلسي:

«وهو كثير الفائدة، جامع لأكثر علم الفلك بالقول المطلق المجرّد من البراهين».

صوت: وماذا عن «كتاب الزيج الصغير» أو «زيج القرانات والاحترافات»؟

أبو معشر: إنه يتضمّن معرفة أوساط الكواكب لأوقات. اقتران زحل والمشتري منذ عهد الطوفان.

صوت: وماذا هناك أيضاً من كتب؟

أبو معشر: «كتاب الأوقات على إثني عشرية الكواكب»، و «كتاب المواليد الكبير»، ولم أتمه...

صوت: ... وقد خرج منه، يا سيدي، كتاب هيئة الفلك واختلاف طلوعه، في خمسة فصول.

أبو معشر: وهناك «كتاب المواليد الصغير»، وهو مقالتان في ثلاثة عشر فصلاً... و «كتاب الأمطار والرياح وتغّير الأهوية»، و «كتاب المزاجات»، و «كتاب طبائع البلدان وتولّد الرياح»، و «كتاب تفسير المنامات من النجوم»، و «كتاب إثبات علم النجوم»، و «كتاب السهام»، أعني سهام المأكولات، والملبوسات، والمشمومات، والرخص، والغلاء، والحكم على ذلك، وكتاب أردت أن أسميه «الكامل» أو «المسائل»، جمعته ولم أتمه!

صوت: ولك أيضاً «كتاب الدول والملل» و«كتاب الملاحم» و «كتاب الأقاليم» و «كتاب الأصول» الذي ادّعاه أبو العنبس الصيمري، وكان معاصراً لك، وله أكثر من ثلاثين كتاباً بين جاد وهازل.

أبو معشر: لقد كان من ظرفاء الأدباء والشعراء والمنجمين، وله عدد من المصنفات في النجوم...

صوت: وكان شاعراً هجّاء خبيث اللسان، اتصل بالمتوكل ودخل في جملة ندمائه. ومن شعره المتناقل:

كم مريض قد عاش بعد يأس
بعد موت الطبيب والعوّاد
قد يصاد القطا، فينجو سليما
ويحلّ القضاء بالصياد.

أبو معشر: ومن أقواله المتداولة: «قوام أمر الانسان بتسع دالات: دار، ودينار، ودرهم، ودقيق، ودابة، ودبس، ودن، ودسم، ودعوة».

صوت: شكراً لك، يا أبا معشر، على هذا اللقاء الممتع والمفيد حقاً!

# ثابت بن قُرَّة: الحلقة الضرورية في تطور العلم العربي
## (٨٣٥ ـ ٩٠٠)

صوت: في حرَّان، مدينـة الصابئـة التي أصبحت في عصر الخليفة المتوكل مقرّ مدرسة الفلسفة والطب التي كانت قبلاً في الاسكندرية وانتقلت إلى أنطاكية، ولد ونشأ ثابت بن قُرَّة وتلاميذه وترعرعوا. وإلى هؤلاء جميعاً ينسب الفضل في نقل القسم الأكبر من كتب اليونان في الرياضيات والفلك والطب، كما سيمر معنـا في حوارنا مع مضيفنا ثابت بن قرة الذي اعتبر حلقـة ضرورية في تطور العلم العربي. وقد أصّل ريـاسة الصابئة في هذه البلاد وبحضرة الخلفاء، ثم ثبتت أحوالهم وعلت مراتبهم وبرعوا. فلقاؤنا، إذن، مع عالم عربي ممن تعددت نواحي عبقريتهم. درس العلم للعلم، وأكبَّ عليه ليستزيد منه ما أمكن وليكتشف الحقيقة، وليدفع المدنيّة أشواطاً بعيدة إلى الأمام. . .

فلنبدأ حوارنا باستعراض سيرتك، يا أبا الحسن.

ثابت بن قرة: إسمي أبو الحسن ثابت بن قرة، أبصرت النور في حرَّان، بين دجلة والفرات ـ وهي موطن الصابئة كما ذكرت، في سنة ٢٢١ هجـرية حيث بـدأت حياتي صَيْـرفيّـاً. ثم انتقلت إلى بغـداد واشتغلت بعلوم الأوائل. . .

صوت: . . . ومهرتَ فيها وبرعت. ولكن كان لانتقالك إلى بغداد سبب دعنا نذكره هنا. فلقد حدث بينك وبين أهل مذهبك ما أنكروه عليك في المذهب فحرّم عليك رئيسهم دخول الهيكل. فتبت ورجعت عن مقالتك. ثم بعد مدة عدت إلى تلك المقالة فمنعوك من دخول المجمع، فخرجت من حرّان ونزلت كفرتوثا وأقمت مدة. . .

ثابت بن قرة: . . . وهناك التقيت بمحمد بن موسى بن شاكر الذي اصطحبني إلى بغداد حيث تلقيت على يديه العلم. وهو الذي أدخلني في خدمة الخليفة المعتضد، فعينني في جملة المنجّمين.

صوت: في هذا المجال أود أن أشير إلى ما تقوله المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه في كتابها القيّم المنصف «شمس العرب تستطع على الغرب» ـ أثر الحضارة العربية في أوروبة، الذي نقله إلى العربية فاروق بيضون وكمال دسوقي لدى كلامها على أبناءموسى بن شاكر العلماء الثلاثة الذين تناهوا في طلب العلوم القديمة، وأنفقوا المبالغ الطائلة في إظهار عجائب الحكمة:

ـ «. . . ومن كبار العلماء الذين ساهموا عند بني موسى في دفع معجزة الحكمة إلى الأمام حنين بن إسحق، وإسحق بن حنين، وولده وابن أخيه حُبْيش إبن الحسن. وإلى جانب هؤلاء تفتحت في بيت بني موسى عبقرية خلّاقة احتلت، فيما بعد، مركزاً مرموقاً ين العلماء العرب، ونعني به الفتى ثابت بن قُـرّة،

أحد أتباع الصابئة، وهو ممن كشفهم محمد. وكان ذلك في سفرة قام بها محمد إلى اليونان وآسيا الصغرى، بحثاً عن المخطوطات القديمة. وفي إيابه مرّ بحران، والتقى صدفة في «كفرتوثا» صبياً بارعاً ذكياً كان يدير هناك مصرفاً مالياً، وقد صرف له بلمح البصر، عدداً من الدراهم المختلفة المنتسبة إلى بلدان متعددة. وكان هذا الصبي حائزاً على الشروط كلها التي ينشدها محمد. فهو بارع في علم الحساب، ومتضلع من الترجمة، فاصطحبه معه إلى بغداد، وأدخله داره ليطلب العلم. ثم عرّف الخليفة المعتضد على النابغة الصابئي، فقرّبه منه وفضلّه على غيره من العلماء».

صوت: والمعتضد هو الخليفة العباسي السادس عشر، وكان بعد المنصور أعظم العباسيين مقدرة في تدبير الشؤون المالية، وعلى أيامه ظهر القرامطة أو الاسماعيلية. وكان أول من سكن دار الخلافة في بغداد.

ثابت بن قرة: وقد أعلى منزلتي وأكرمني لما عهده فيَّ من محبة للعلم والتفاني في سبيل تحصيل المعارف... وكنت أجلس بحضرته في كل وقت وأحادثه، وأضاحكه... وكان يرعاني ويؤاكلني.

صوت: ... فضلاً عن خدمتك له وهو في السجن بسبب غضب أبيه عليه. فكنت تدخل عليه السجن في كل يوم ثلاث مرات، فتحادثه وتسليّه، وتعرّفه بأحوال الفلاسفة وأمر الهندسة والنجوم. فلما خرج من

السجن وبويع بالخلافة أقطعك ضياعاً جليلة، وأنعم عليك بالهبات والعطايا، وأجلسك بين يديه بحضرة الخاص والعام.

ثابت بن قرة: لقد كان الخليفة المعتضد شديد الرعاية للعلم والعلماء تقديراً منه لعلمهم وإجلالاً. ومما يعزّز هذا القول أننا بينما كنا ذات يوم نمشي معاً في بستان في داره يسمى «الفردوس»، اتفق أن اتكأ على يدي. ولكنه سرعان ما نتر يده من يدي بشدة، أفزعتني حقاً، لأنه كان مهيباً جداً. غير أن روعي أفرج عندما سمعته يقول: «يا أبا الحسن، سهوت ووضعت يدي على يدك، واستندت عليها، وليس هكذا يجب أن يكون، فأن العلماء يَعْلون ولا يُعْلَوْن!...»

صوت: وصحيح أنك دخلت في خدمة المعتضد، غير أنك بقيت رئيساً للصابئة، وأنت منهم. وعملت في مجالات علمية مختلفة منها الطب، والفلسفة، والمنطق، والنجوم، والموسيقى، والرياضيات.

ثابت بن قرة: وكنت أُحسن السريانية، والعبرية، واليونانية، وقد نقلت عن هذه اللغات أعمالاً كثيرة، لاهتمامي الكبير بالترجمة.

صوت: وهذا ما دعا العالم المعاصر سارتون إلى اعتبارك من أعظم المترجمين، وأشهر من عرف في مدرسة حرّان في العالم العربي. فأنت مؤسس مدرسة الترجمة التي انتهى إليها كثيرون من أفراد أسرتك. وترجمت بنفسك، كما تُرجمتْ بإشرافك كتبٌ كثيرة، وبعضها كان قد تُرجم

من قبل، فأعدتَ مراجعته وتصحيحه. يقول صاعد الأندلسي، نقلاً عن أبي معشر في كتاب «المذكرات»:
«إن حذّاق الترجمة في الاسلام أربعة: حنين بن إسحق، ويعقوب بن إسحق الكندي، وثابت بن قُرّة الحرّاني، وعمر بن الفرخان الطبري».

والمقصود بالترجمة النقل عن اليونانية أو السريانية. صحيح أنه كانت ثمة ترجمات عن الفارسية أو الهندية، إلا أنها كانت ضئيلة بالنسبة إلى ما ترجم عن السريانية واليونانية. وفضلاً عن كونك بارزاً في الطب والفلسفة والرياضيات، فقد طارت لك شهرة في الترجمة. وقد ذكرك إبن أبي أصيبعة وقال ان من تآليفك:

ـ «كتاب الوقفات التي في السكون بين حركتي الشريان المتضادتين، مقالتان. صَنَّفَ هذا الكتاب سريانياً لأنه أومأ فيه إلى الرد على الكندي، ونقله إلى العربي تلميذ له يعرف بعيسى بن أُسيد النصراني، وأصلح ثابتٌ العربيَّ. وذكر قوم أن الناقل لهذا الكتاب حبيش بن الحسن الأعسم. وهذا غلط. وقد ردَّ أبو أحمد الحسين بن إسحق بن إبراهيم المعروف بابن كرنيب على ثابت في هذا الكتاب، بعد وفاة ثابت، بما لا فائدة فيه ولا طائل. وهذا الكتاب أنفذه لما صنّفه إلى أسحق بن حنين، فاستحسنه استحساناً عظيماً، وكتب في آخره بخطه يقرّظ أبا الحسن ثابتاً، ويدعو له، وينصفه...»

ثابت بن قرة: الحقيقة، يا سيدي، أن الكندي كان ملمّاً بالسريانية واليونانية، ولكنه لم يكن يتقنها. وكان يقوم بتصحيح الترجمات التي كان يكلفُ من ينقلها له، وأنه كان يجدها مترجمة فيبتاع نسخاً منها. وقد ألفت حقاً كتابي في الطب عن الوقفات التي في السكون الذي بين حركتي الشريان بالسريانية وأومأت إلى الردّ على الكندي. وكان بوسعي تأليفه بالعربية، ولكنني فضلّت اللغة السريانية لأحصُرَ الأمر بين أهل الصناعة، ومنهم الكندي الذي كان يفهم هذه اللغة، ولو لم يكن يتقنها. وعلى ذكر إبن كرنيب أودّ الاشارة إلى أنه كان من المتكلمين في بغداد، ومذهبه مذهب الفلاسفة الطبيعيين، فاضلاً، سديد الاطلاع على العلوم الطبيعية القديمة، وواسع المعرفة...

صوت: ... وله تصانيف كثيرة، ومنها كتاب الردّ على ثابت بن قُرّة في نفيه وجود سكونين بين كل حركتين متضادتين. وفي ذلك العصر كان هناك مدرستان في الطب والتفسير الطبيعي، إحداهما يرئسها الكندي ويشايعه إبن كرنيب، والثانية يرئسها ثابت بن قرّة ويتابعه فيها إسحق بن حنين.

ثابت بن قرة: أود الرجوع إلى موضوع النقل والترجمة لايضاح نقطة ربما غابت عن البال، وهي أننا كَنَقَلةٍ كان لنا تفكيرنا المستقل ورأينا الشخصي. فلم نكن مترجمين وحسب، بل كنا نلخّص، ونضيف من عندياتنا تفسيراً جديداً، فنخطو بذلك خطوات تتقدم بالعلم أشواطاً

وأشـواطـا. . . وقـد وضعت مؤلفـات في الفلك، والطب، والرياضيات بلغت ١٥٠ مؤلفاً بالعـربية، وعشرة مؤلفات باللغة السريانية. . .

صوت: ويجرّنا هذا الحديث إلى ذكـر بعض مؤلفاتـك، كما ذكرها إبن النديم في «الفهرست» حيث يقول:

ـ «ولثابت بن قُرّة كتاب حساب الأهلة، كتـاب رسالته في سنة الشمس. كتاب رسالته في المسـائل الهندسية. كتاب رسالته في الأعداد. كتاب الشكل والقطاع، مقالة. كتاب رسالته في الحجة المنسوبة إلى سقراط. كتاب ابطال الحركة في فلك البروج، مقالة. كتاب رسالته في الحـصى المتولد في المثانة. كتاب وجع المفاصل والنِقْرِسْ، مقالة. كتاب رسالته في السبب الـذي من أجله جُعِلَتْ مياه البحـر مالحـة. كتاب رسالته في البيـاض الذي يـظهر في البـدن. كتاب رسالته إلى دانق. كتاب جوامعه لكتاب جالينوس في الأدوية المفردة. كتاب رسالته في الجدري والحصبة».

صوت: وأضيف إلى هـذه اللائحـة ما جمعت شخصيـاً من عناوين كتبك ومصنفّاتك التي فـاقـت المئة والخمسين، وقد ذُكرت في تضاعيف بعض المراجعِ التي تناولت ترجمتك ومنجزاتك القيّمـة. فقد كنتَ ذلـك العالِمَ المتشّعب الاهتمامات، وذا العبقرية المنتجة التي خطت بالعلوم الفلكية والرياضية خطوات واسعة، ومهدّت لايجاد فروع هـامة من الـرياضيـات، مثل حسـاب التكامل والتفاضل. مسائل طبية. اختصار المنطق.

اختصار كتاب ما بعد الطبيعة. كتاب في مراتب العلوم. جوامع كتاب تشريح الرحم لجالينوس. جوامع كتاب جالينوس في المولودين لسبعة أشهر. كتاب المدخل إلى المَجَسْطِي، وقد عدّه إبن أبي أصيبعة أجود مؤلفاتك في هذا الموضوع. كتاب في العمل بالكرة. كتاب في قطع الأسطوانة. كتاب في الموسيقى. كتاب في الأعداد المتحابّة. كتاب في حالة الفلك. الذخيرة في الطب، ولقد ألّفته لولدك «سِنان». كتاب في تركيب الأفلاك وخلقتها وعددها. كتاب القرسطيون، ويتعلق بعلم اعتدال الأجسام الميكانيكية ونظرية الميزان. كتاب في الأخلاق. مقالة في صفة كون الجنين. كتاب تفسير الأربعة. كتاب البصر والبصيرة في علم العين وعللها ومداواتها. كتاب في أن سبيل الأثقال التي تعلّق على عمود واحد منفصلة هي سبيلها إذا جُعِلَتْ ثِقَلاً واحداً مبثوثاً في جميع العمود على تساوٍ. رسالة في العدد الموفق. مقالة في تصحيح مسائل الجبر بالبراهين الهندسية.

ثابت بن قرة: ولي كتب غير هذه التي عددت، مثل آلات الساعات، وتركيب الأفلاك، وطبائع الكواكب، وعلة الكسوف والخسوف ... وقد نقلت إلى العربية لبني موسى بن شاكر، عدداً غير قليل من الأعمال الفلكية والرياضية والطبية لكثيرين من العلماء اليونانيين مثل أبولونيوس الفلكي الرياضي الذي علّم في الاسكندرية، وأرخميدس، وأقليدس، أبي الهندسة، وثيودوسيوس الفلكي الرياضي، وآرسطو، وأفلاطون،

وجالينوس، وأبقراط، وبطليموس، وكلهم علماء يونانيون. ولقد صححت ترجمات حنين بن إسحق وولده.

صوت: وعلى أيدي المترجمين المهرة وأنت وحنين بن إسحق منهم، عدا كونكما من العلماء البارزين، استطاع العرب العبور من جانب المترجمين المقتصرين على الترجمة، إلى مرحلة العلماء الأصيلين بخطى سريعة. وهكذا تبوأت المقام الأول بين العلماء العرب ليس في زمانك فحسب بل في مختلف الأزمان.

ثابت بن قرة: إنك تخجل تواضعي، يا سيدي!

صوت: وفي هذا المجال يؤسفني القول ان الكثير من مؤلفاتك فُقد بسبب توالي الحروب والانقلابات السياسية، مثلك في ذلك مثل سائر العلماء والأدباء الذين ضاعت مؤلفاتهم التي اقتضتهم الكثير من البحث والجهد والاستقصاء. وثق بأننا لو عثرنا على بعض مؤلفاتك في الرياضيات لانجلت أمامنا بعض النقاط الغامضة في تاريخ هذا العلم. فلقد ظهر من رسالتك في النسبة المؤلفة أنك استعملت «الجيب» والخاصة الموجودة في المثلثات والمسماة بدعوى الجيوب. ولولا بعض القطع التي وصلتنا من كتاب لك في الجبر لما عرفنا أنك بحثت في المعادلات التكعيبية!

ثابت بن قرة: لكم أحزنني قولك ان الحروب والانقلابات قد تسببت في فقدان الكثير من التراث العربي في الفكر والأدب والعلم... وإننا لنحمد الله على أنه بقي شيء كثير من هذا التراث الذي يضم الكنوز الثمينة.

صوت: وقد مارستَ الطبَ وبرعت فيه حتى قيل انه لم يكن في زمانك من يماثلك في هذه الصناعة. وتروى لك قصة مع قصّاب أصيب بالسكتة، فعالجته بالضرب على كعبه بالعصا...

ثابت بن قرة: وبدواء ركبته له، فأفاق، وتمّ له الشفاء...

صوت: واهتممتَ بعلم الفلك، وقمت بأرصادٍ للشمس في بغداد، ووضعت كتاباً بيّنت فيه مذهبك في سنة الشمس، وما أدركته بالرصد في موضع أوجها، ومقدار سنيها، وكمية حركاتها، وصورة تعديلها.

ثابت بن قرة: وقد استخرجت حركة الشمس وحسبت طول السنة النجمية، كما حسبت ميل دائرة البروج.

صوت: لقد عشت، يا أبا الحسن، في العالم الأول حتى سنة ٢٨٨ هجرية، وكان لك من العمر عندما ودعته سبع وستون سنة شمسية. وقد رثاك أبو أحمد يحيى بن عليّ يحيى المنجمّ النديم...

ثابت بن قرة: ... لقد كانت بيننا صداقة وثيقة، يا سيدي..

صوت: لنسمع هذه الأبيات من مرثيته:

ألا كل حيّ ما خلا الله مائتُ
ومن يغترب يُؤمَلْ ومن مات فائتُ
أرى من مضى عنا وخيّم عندنا
كسَفْر ثَوْوا أرضا فسارٍ وبائتُ
نَعَيْنَا العلوم الفلسفيات كلَها
عداها التماعُ النور مُذ مات ثابتُ

وأصبــح أهلوهــا حيــارى لفقــده

وزال بــه رُكــنٌ من العِلْمِ ثــابـتُ

ولمــا أتــاه المــوت لم يُغْـنِ طِــبُّـهُ

ولا نــاطـقٌ ممــا حــواه وصــامتُ

فلو أنــه يُســطاع للموت مــدْفَـعٌ

لـدافـعه عـنــه حُمــاةٌ مَـصــالـتُ

ثِقَــاتٌ من الاخــوان يُـصْفُــون وُدَّهُ

ولـيس لمــا يقـضي بــه اللّه لافـتُ

أبــا حَـسَــنٍ لا تَـبْـعُــدَنَّ وكــلُنــا

لِهَلْكِـكَ مفجـوعٌ لــه الحُـزْنُ كــابتُ

# البتّاني: أحد العشرين فلكياً المشهورين في العالم كله
## (٨٤٧ - ٩٢٩)

صوت: مع أحد مشاهير العلماء من الصابئة، هو أبو عبد الله البتّاني، سيكون لقاؤنا الآن. فلقد سمّاه بعض الباحثين «بطليوس العرب». وقال عنه سارتون انه أعظم علماء عصره، وأنبغ علماء العرب في الفلك والرياضيات. وعدّه كاجوري وهاليه من أقدر علماء الرصد. ويبلغ من اعجاب العالم الفرنسي الشهير لالاند ببحوث البتّاني ومآثره حداً جعله يقول: «إن البتّاني من العشرين فلكياً المشهورين في العالم كله! . . .»

البتّاني: شكراً، لك يا سيدي، على هذه النعوت، فأنا لم أقم بما قمت به إلاّ خدمة للعلم، وخصوصاً علم الفلك. فإن الانسان ليصل، عن طريق النجوم، إلى برهان وحدة اللّه ومعرفة عظمته الهائلة، وحكمته السامية، وقوته الكبرى، وكمال خلقه. . .

صوت: ذلك هو الواقع، وقد آن الأوان لتعريفك إلى القراء الأعزاء. يقول القفطي في كتابه « إخبار العلماء بأخبار الحكماء».

ـ «محمد بن جابر بن سنان أبو عبد الله الحرّاني، المعروف بالبتّاني، أحد المشهورين برصد الكواكب والمتقدمين في علم الهندسة وهيئة الأفلاك، وحساب النجوم وصناعة الأحكام. وله زيج جليل ضمّنه أرصاد النيرين، وإصلاح حركاتها المثبتة في كتاب بطليموس المعروف بكتاب «المجسطي». وذكر فيه حركات الخمسة المتميزة على حسب ما أمكنه من إصلاحها وسائر ما يحتاج إليه من حساب الفلك، وكان بعض أرصاده التي سمّاها في زيجه في سنة تسع وستين ومائتين من الهجرة. ومن ذلك في سنة سبع وثمانين. ولا يُعلم أحدٌ في الاسلام بلغ مبلغه في تصحيح أرصاد الكواكب وامتحان حركاتها. وله بعد ذلك عناية بأحكام النجوم أدته إلى التأليف في ذلك. فمن تواليفه فيها كتابه في شرح المقالات الأربع لبطليموس. وأثبت الكواكب الثابتة في زيجه لسنة تسع وتسعين ومائتين. وورد إلى بغداد مع بني الزيّات من أهل الرقة في ظلامات كانت لهم. فلما رجع مات في طريقه بقصر الجصّ سنة سبع عشرة وثلثمائة. وله من الكتب «كتاب الزيج» نسختان، وكتاب «مطالع البروج»، وكتاب «أقدار الاتصالات»، عمله لأبي الحسن بن الفرات، و«كتاب شرح الأربعة لبطليموس».

ولنعرض معاً نشاطاتك العلمية في حقلي الرياضيات والفلك. فأنت، باعتراف الكثيرين من المؤرخين والعلماء الغربيين، من المشتغلين بعلم الفلك، النابهين

الذائعي الصيت. ولقد أجمع علماء الفرنجة المحققون على أنك كنت في عملك أسمى مكانة من بطليموس، إذ احتوت مصنفاتك من شتات الحقائق الفلكية أكثر مما احتوته منها مصنفات العالم الأغريقي. ولهذا عدّك الفلكي الفرنسي الكبير لالاند المتوفى سنة ١٨٠٧ من الفلكيين العشرين المبرزين الذين أنجبتهم الانسانية ·منذ خلق اللّه الخلق حتى الآن...

البتّاني: إذاً، فهذا هو السبب الذي جعل بعض الباحثين يطلق عليّ لقب «بطليموس العرب»؟! فلقد درست تآليف بطليموس بتعمق وبعد أن عرفت دقائقها انتقدت بعض نظرياته، وعملت على إصلاح بعضها، سائراً في ذلك على التجربة وتحكّم العقل والمنطق.

صوت: وفضلاً عن ذلك قمت بإكمال النتائج التي توصّل إليها ثابت بن قرّة بواسطة قياساتك الدقيقة الصحيحة للسنوات الاستوائية والقطبية والمخالفة، بعد أن قمت بقياس دوران الأرض حول الشمس بطريقتين مختلفتين.

البتاني: ... ثم صححت تحقيقات الخوارزمي حين شرعت بأبحاث حول ظهور الهلال الجديد، وحول كسوف الشمس وخسوف القمر، وحول اختلاف المنظر من الأرض. وأما في حقل الرياضيات فقد كنت أول من عمل الجداول الرياضية لنظير المماس. واستعملت الجيوب بدلاً من أوتاد مضاعف الأقواس.

صوت: وهـذا مهم جداً في الـرياضيـات. ويدرك الملمـون بالمثلثات أهميـة إدخال الجيب، ويـرون فيه ابتكـاراً ساعد على تسهيل المثلثات، ويعتبرونه تغييراً ذا شأن في العلوم الـرياضيـة. يقول ابن العبـري في هـذا الصدد:

- «وكفى البتّـاني فخراً استبـداله أوتـاد الـدائـرة بالجيوب، ووضعـه لهذه الـطريقة علماً اسمـه «علم المثلثات».

البتّاني: وهناك بعض عمليات أو نظريات رياضية حلّها أو عبّر عنها اليونان هندسياً، تمكنت من حلّها والتعبير عنها جبرياً...

صوت: فكنتَ بذلك مبتكراً، وقد أتيت بشيء جديد لم يعرفه القدماء. ومن هنا يتضح لنا أنك من الذين ساهموا أجلّ مساهمة في وضع أساس المثلثات الحديثة، ومن الذين عملوا على توسيع نطاقها. ودعنا الآن ننتقل إلى تصانيفك المعروفة وهي أربع: فالأول هـو «كتاب معرفة مطالع البروج فيما بين أرباع الفلك»...

البتّاني: ... أي مطالع نقط البـروج التي ليست في وقت معلوم واحـدة من الأوتاد الأربعـة، ويتنـاول هـذا الكتـاب الحلّ الـرياضي للمسـألة التنجيميـة لاتجاه الراصد.

صوت: والكتـاب الثـاني هــو «رسـالــة في تحقيق أقــدار الاتصالات»...

البتّاني: ... أي الحلول المضبوطة بحساب المثلثات للمسألة التنجيمية عندما تكون النجوم المقصودة لها خط عرض، أي خارج فلك البروج.

صوت: والكتاب الثالث هو «شرح المقالات الأربع لبطليموس». وأما «الزيج الصابىء» ـ نسبة إلى دينك ـ وهو رابع تصانيفك وأهمها، فنتوقف عنده بعض الشيء مع الاشارة إلى أنه لم يصلنا غيره. فهلاً أخبرتنا، قبل أي شيء آخر، ما هو الزيج؟

البتّاني: أولاً الزيج هو اسم كتاب تعرف به أحوال الكواكب، وحركاتها، ويؤخذ منه التقويم. فالزيج وجمعه أزياج، هو عندنا نحن العرب، صناعة حسابية على قوانين فيها يختص كل كوكب من طريق حركته وما أدّى إليه برهان الهيئة في وضعه من سرعة وبطء، واستقامة ورجوع، وغير ذلك، يعرف به مواضع الكواكب في أفلاكها لأي وقت فرض من قبل حسبان حركاتها على تلك القوانين المستخرجة من كتب الهيئة. ولهذه الصناعة قوانين كالمقدمات والأصول لها في معرفة الشهور والأيام والتواريخ الماضية، وأصول متقررة في معرفة الأوج والحضيض والميول وأصناف الحركات، واستخراج بعضها من بعض، يضعونها في جداول مرتبة تسهيلاً على المتعلمين.

صوت: ومن الأزياج المشهورة يعدّون زيج إبراهيم الفزاري، وزيج الخوارزمي، وزيج البتّاني الذي نتحدث عنه الآن، وأزياج المأمون، وزيج إبن الشاطر، فماذا ضمّنت زيجك الصابىء؟!

البتّاني: قبل أن أذكر بعض التفاصيل، أرى أن من شروط التقدم في علم الفلك التبحّر في نظرياته ونقدها والمثابرة على الأرصاد والعمل على اتقانها «لأن الحركات السماوية لا يحاط بها معرفة مستقصاة حقيقة إلّا بتمادي العصور والتدقيق في الرصد». وأود قراءة هذه العبارات مما جاء في مقدمة الزيج، حيث أقول: «... وان الذي يكون فيها من تقصير الانسان في طبيعته عن بلوغ حقائق الأشياء في الأفعال كما يبلغها في القوة يكون يسيراً غير محسوس عند الاجتهاد والتحرّز لا سيما في المدد الطوال. وقد يعين الطبع وتسعد الهمة وصدق النظر، وإعمال الفكر والصبر على الأشياء وإن عسر إدراكها. وقد يعوق عن كثير من ذلك قلة الصبر، ومحبة الفخر، والحظوة عند ملوك الناس بإدراك ما لا يمكن إدراكه على الحقيقة في سرعة، أو إدراك ما ليس من طبيعته أن يدركه الناس...»

صمت: ونجد في مقدمتك الشهيرة أنك تعتبر علم الفلك من العلوم السامية المفيدة التي يمكن الانسان بواسطتها أن يقف على أمور هو في أمسّ الحاجة إليها، ومعرفتها، واستغلالها في سبيل نفعه... كما أننا نجد أيضاً بياناً للطريقة التي سرت عليها في هذا الكتاب الذي وفقت فيه توفيقاً عظيماً حمل علماء الفلك في أوروبا على الاعتراف بقيمته العلمية وأهميته التاريخية. ولقد ترجمت مقدمتك للزيج الصابىء إلى اللاتينية، وعلّق

عليها العالم رجيومونتانوس، ثم صدرت بالاضافة إلى مؤلف العالم العربي الفرغاني الـذي كان يعمـل في بغداد أيام أبناء موسى بن شاكر، وهكذا أصبحت في متناول المثقفين في بلاد الغرب.

البتاني أشكرك على هذه المعلومات، يا سيدي...

صوت: لم تدعني أكمل حديثي عن ترجمة المقدمة. ففي سنة ١٦٤٥، طبعت طبعة ثانية كمخطوطة مفردة في مدينة بولونيا الايطالية، تحت العنوان اللاتيني التالي: «كتاب محمد البتّاني في علم النجوم مع قليل من الحواشي ليـوحنا رجيـومونتـانـوس». وأمـر الفـونس العـاشـر الاسباني، صاحب قشتـاله، الـذي حكم بين سنـة ١٢٥٢ و١٢٨٣ بأن يترجم هذا الزيج من العربية إلى الأسبانية رأساً. ولهذه الترجمة مخطوط غير كامل في باريس. فهات حدثنا الآن عن محتوى زيجك هذا!

البتّاني: بالاختصار لقد ضمنته أرصاد الكواكب الثابتة لسنة ٢٢٩ هجرية، ضمن ما قمت به من الأعمال الفلكية المختلفة التي تتابعت من سنة ٢٦٤ إلى سنة ٣٠٦، أي مدة اثنتين وأربعين سنة.

صوت: وكنت ترصد في الرقة على الضفة اليسرى من نهر الفرات، وموقعها على الدرجة السادسة والثلاثين من العرض الشمالي، وقد حددت وأنت مقيم في تلك البلدة بالدقة ميل «دائرة فلك البروج»...

البتّاني: أريد بهذه الدائرة ما اصطلح الفلكيون على تسميته بالدائرة الكسوفية.

صوت: والواقع أنك حددت هذا الميل بـ ٢٣ درجة و ٣٥ دقيقة. . . .

البتّاني: هذا قصارى ما كان يبلغ إليه محقق من الدقة في زمن لم تكن لدينا إلاّ آلات فلكية بسيطة!

صوت: وفي ذلك كل الفخر لك، لأن العالم الفرنسي الفلكي الشهير لالاند الذي سبق وذكرته في سياق هذا اللقاء، قام بحساب ذلك الميل بعد حوالي ألف سنة من وفاتك فوجد أنه ٢٣ درجة و ٣٥ دقيقة و ٤١ ثانية، أي بزيادة هذا الفرق من الثواني لأنه أضاف إلى تقديرك ٤٤ ثانية للانكسار، ثم طرح منها ثلاث ثوانٍ للاختلاف الأفقي، ولم تكن أنت عملت لها حساباً.

البتّاني: أصحيح، ما تقول، يا سيدي؟. . . ان ذلك لمما يثلج الصدر حقاً!

صوت: واسمع أخيراً، يا سيدي، ماذا يقول العالم الفرنسي الآخر «سيديّو»:

ـ «إن نتائج الأبحاث العربية التي تتعلق بعلمي الطبيعة والفلك تمتعت في العالم قاطبة بأهمية واهتمام زائدين. ولقد توصل فلكيو بغداد، في نهاية القرن العاشر الميلادي، إلى أقصى ما يمكن أن يتوصل إليه انسان في رصد السماء، وما دار فيها من كواكب ونجوم بالعين المجردة، دون اللجوء إلى عدسات مكبرة أو منظار. . .»

صوت: وهذا القول يشملك، يا أبا عبد الله وينصفك مع سائر الذين عملوا في ميدان الفلك وخلّفوا لنا ما خلّفوا من تراث علمي قيّم!

# أبو بكر الرازي: أبو الطب العربي

(٨٦٥ - ٩٢٥)

صوت: أبو الطب العربي، وحجة الطب في أوروبا حتى القرن السابع عشر، والكثيرون يعتبرونه مؤسس الكيمياء الحديثة في الشرق والغرب. إنه الرازي الذي كان أوحد دهره وفريد عصره، وقد جمع المعرفة بعلوم القدماء ولا سيما الطب. وعرف بلقب جالينوس العرب، ومن هنا القول الشائع: كان الطب معدوماً فأوجده أبقراط، وميتاً فأحياه جالينوس، ومشتتاً فجمعه الرازي». وقد أطلق مؤرخ العلوم العلامة المعاصر الدكتور جورج سارتون على العصر الذي عاش فيه الرازي وتألق نجمه فيه، وهو النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي، إسم «عصر الرازي» بسبب أثره الفعّال الذي يمتد قروناً عدة في الشرق والغرب معاً.

بعد كل هذه الألقاب التي استحقتها عبقرية هذا الطبيب العربية، وهي غيض من فيض مما أطلقه عليه المؤرخون العرب القدامى، نأتي إلى لقب حديث طلعت علينا به منظمة الصحة العالمية، التابعة لهيئة

الأمم المتحـدة، في عـدد خـاص من المجلة التي تصدرها خصصته لموضوع الطب منذ فجر التاريخ إلى العصر الحديث، فقالت:

ـ «لقد كان الرازي، بحق، معدوداً أمير الأطباء. وفي حقل العلاج كان ممتازاً، متفوقاً، ذا تشخيص أكيد ومداواة فعّالة. استعمل عقاقير كثيرة جديدة، منهـا مركّبـات الأفيون في عـلاج السعال، ونشـوق مركّبات الكبريت في علاج النطاع ـ أي تهيّج الأغشية المخاطية، ولا سيما الحلق والأنف، وينشأ عنه رشح المنخرين وسيلانهما، وشاعت تسميته بالنزلة».

الرازي: لقد أسهبت كثيراً، يا سيدي، في التقديم لشخصي المتواضع، فشكراً لك...

صوت: لاشكر على واجب، يا أبا بكر. قبل بدء حوارنا أود أن أورد مثالاً على تشخيصـك الأكيد ـ عـلى حد تعبـير منـظمة الصحـة العـالمية التي ذكـرت. فقـد روت الدكتورة زيغريد هـونكه الألمـانية في كتـابها النفيس المنصف والمـوضـوعي «شمس العـرب تشـرق عـلى الغرب» أن صبياً يافعاً أتى إليك ذات يوم وشكا لك في اضطراب كبير وخوف عظيم حالته التي ساءت خلال رحلته وانتهى به الأمر إلى بصق الدم...

الرازي: أذكر تلك الحادثة. فقد عاينت الفتى بهدوء كبير ولم أعثر على أي سبب لما أصابه. ذلك بأنه لم يكن ثمة أي سرطان أو التهاب رئوي، أو سواه من الالتهابات يمكن أن يكون السبب. فطلبت منه التريّث والصبر

ليتسنى لي درس قضيته مجدداً لعلي أوفّق في الكشف عن علته. . .

صوت: وهنا انهمرت دموعه وعلا صراخه، وقال وهو ينتحب أحرّ نحيب:

«إذا كان أمهر أطباء العالم عاجزاً عن معرفة ما بي، فسلام عليَّ، وإن بوسع النـاحبات أن يـولولن من ورائي عاجلاً».

الرازي: وبعد أن قلّبت القضية من كل جوانبها سألته: أي ماء شربت في رحلتك؟ فكان جوابه: شـربت هنا وهناك من ماء الآبار والمستنقعات. فما كان من كلامه هذا إلاّ أن ألقى ضوءاً ساطعاً أنار سبيل تشخيصي فقلت له:

- لاريب أنك ابتلعت علقـة دمـوية ثبتت في أمعائك. فارجع إليّ في الغد حتى أقوم بمعالجتك. ودع الخدم ينفذوا تعليماتي.

الرازي: وكـانت تعليمـاتي تقضي بحمـل كميـة كبيـرة من الـطحلب، وهو نبـات يسمّى شيبة العجـوز. وقد أشرت عليه بأن يشرع في أكلها وأمعاؤه خاوية. فراح المريض يمضغ منها حتى اتخم، وشعر بأن ما أكله قد بلغ حلقه. ولما تقيأ خرجت من أمعائه علقة دموية مفزعة.

صوت: وطار الفتى من شدة الفرح لأنه شفي وخيّب آمال الناحبات، ومضى ينشـر في طول البـلاد وعرضهـا

معجـزة «أمير الأطبـاء» و«أبقراط العـرب» و«منقذ المؤمنين». . .

الرازي: الحقيقة أنها لم تكن معجزة، بل إصابة في التشخيص تمهيداً لوصف العلاج.

صوت: ونعود الآن إلى ما كان يتعيَّن علينا البدء به في هذا اللقاء، وهو استعراض سيرتك وأعمالك التي تدعم كل ما تقدَّم من كلامنا، فمن أنت، يا سيدي؟

الرازي: أنا أبو بكر محمد بن زكريا، أبصرت النور في الريّ في سنة ٢٥١ هـ/٨٦٥ م.

صوت: ومن الريّ، وهي من أعمال خراسان، جاءت نسبتك الرازي، وهو الاسم الذي اشتهرت به عندنا نحن العرب، في حين عُرفت في الغرب باسم «رازيس». وعلى ذكر الغرباودّ الاشارة إلى أنه أقيم لك نصب تذكاري في القاعة الكبرى في كلية الطب الفرنسية في باريس.

الرازي: لكم يغبطني أن أعرف ذلك. . .

صوت: يروي المؤرخون أن المكتبة في هذه الكلية الطبية كان يتصدرها قبل حوالي ستة قرون من الـزمن مؤلفك الطبي الذي يتضمَّن كل المعارف الـطبية منـذ أيام الإغريق حتى سنة ٩٢٥، وهي تاريخ وفاتك، إلى جانب بضعة كتب أخرى. وقد ظلت مـوسوعتـك الطبية الضخمة طوال أربعة قرون المرجع الأساسي للتدريس دون منازع.

الرازي: وهذا أيضاً خبر يغبطني كثيراً لأنه يثبت لي أن ما قمت به في حياتي كان ذا فائدة للبشر. فهل لديك ما تضيفه في هذا المجال قبل المضي في سرد وقائع حياتي؟

صوت: الحقيقة أن ثمة ما أضيفه، فهذه الاسطرادات مهمة ولو جعلتنا نبتعد قليلاً عن متابعة سيرتك بين آن وآخر. فجامعة برنستون الأميركية الشهيرة أفردت لمآثرك جناحاً فخماً من أجنحتها ليكون ملتقى الباحثين والمؤرخين الذين يقومون من حين إلى حين بتقييم جديد لمؤلفاتك التي سنستعرضها في هذا اللقاء. وقد رُسمت صورتك على زجاج ذلك الجناح.

الرازي: إذا كان هذا آخر ما عندك فاسمح لنا بالعودة إلى وقائع حياتي. ففي البداية كنت مولعاً بالدراسات الرياضية، واللغوية، والفلسفية، والأدبية، وينظم الشعر.

صوت: وتركت الكثير من القصائد في موضوعات شتى، مع قصيدة في المنطقيات، وأخرى في العلم الآلهي، وسأورد فيما يلي هذين البيتين:

لعمري ما أدري وقد آذن البلى
بعاجل ترحال إلى أين ترحالي

وأين محل الروح بعد خروجه
من الهيكل المنحلّ والجسد البالي

الرازي ولقد ترجمت إلى العربية الكتاب الشهير في المنطق

المسمى «إيساغوجي» وكتاب «هيئة العالم» وغـرض هذا الكتاب بيان كروية الأرض، وأنها سابحـة في الفضـاء وتدور حـول الشمس التي هي أكبر منهـا وأعـظم، وأن القمـر أصغـر من الأرض، وأقـرب الأجرام السماوية إليها، وسوى ذلك مما ليس هنا مجال التبسط فيه، أليس كذلك؟

صوت: بالطبع، وحبذا لو كان بالامكان الاحاطة بكل شيء. هل تتلطّف بمتابعة سرد ما لديك من معلومات عن حياتك..

الرازي: حسناً. وقد أولعت أيضاً بالموسيقى من غناء وضرب على العود. ولكنني لما بلغت العقد الثالث من العمر طرأ عليّ تبدّل كبير صرفني عن هذه الهواية وحملني على ملء الفراغ في حياتي...

صوت: ... فأقلعت عن هواية الموسيقى قائلاً: كل غناء يخرج من بين شارب ولحية لا يُستظرف!

الرازي: ذلك هو الواقع، يا سيدي، وقد يممت وجهي شطر بغداد قبلة طلاب العلم من مختلف البلدان في ذلك الزمان حيث شرعت في دراسة الطب على أحد تلاميذ حنين بن إسحق، وكان رئيس متـرجمي إبن موسى وعدد من الخلفاء. وقد درست جميع فنـون العلاج الأغـريقي، والفارسي، والهنـدي، والعربي، وكـان آنذاك حديث العهد.

صوت: وبعد أن ارتويت من عبّ هـذا العلم رجعت إلى الريّ، مسقط رأسك، لتتولى البيمارستان فيها...

**الرازي:** وقد انتدبت بعد أن ذاعت شهرتي الطبية ـ وأستمحيك العذر لاستعمالي هذه العبارة ـ لتولّي البيمارستان العضدي في بغداد حيث سبق لي أن درست. وكان ذلك أيام الخليفة المكتفي.

**صوت:** حسناً... وقد أثر عنك رأفتك بالمرضى، ورفقك بهم، وإحسانك إليهم بكرم وسخاء. ويروى أنك كنت تجلس لتعليم الطب ودونك تلاميذك، ودونهم تلاميذ آخرون. فإذا ما جاء المريض شكا ما به لأول من يلقاه من التلاميذ، فإن عرف أجابه، وإلاَّ انتقل إلى آخر، فآخر، فإلى المتقدمين على هؤلاء جميعاً. فإما أن يصيبوا في تشخيصهم لمرضه، وإما أن يقدموا المريض إذ ذاك إليك ـ إلى أستاذهم ـ لتقول رأيك فيه.

**الرازي:** إنها لعمري أفضل طرائق التعليم والتدرّب على العلاج، أليس كذلك؟

**صوت:** بلى، وهذا ما هو متبع في أيامنا الحاضرة في المستشفيات التعليمية ـ أو البيمارستانات، كما عرفتموها ـ بعد انقضاء أكثر من ألف سنة على وفاتك. ويقول الأستاذ الدكتور عزة مريدن في مقال عنك في هذا الصدد: «يؤخذ رأي الطبيب المقيم، ثم يؤخذ رأي الأستاذ المساعد، ويكون القول الفصل أخيراً للأستاذ، وبذلك يدرك هؤلاء وهؤلاء ما يمكن أن يقعوا فيه من أخطاء...»

الرازي: هذا هو المفروض، يا سيدي، وقد درجت على مراقبة المرضى وتسجيل ما يبدو عليهم من أعراض لكي يساعدني ذلك على استنتاج تطورات مرضهم. وقد ذكرت في كتابي «الحاوي» بعض الطرائق التي كنت أتبّعها. فأجرّع القردة الزئبق والمغليات والحشائش وسائر الأدوية وأروح أراقبها وأسجل ملاحظاتي وأثر الأدوية فيها.

صوت: أودّ هنا الاشارة إلى أن هذه الطريقة تعرف في أيامنا الحاضرة بالطب التجريبي الذي وضعت أنت أسسه، والغربيون ينسبونه إلى العالم والطبيب الفرنسي كلود برنار. ويقول الدكتور عزة مريدن إنك أول من «ابتكر طريقة المشاهدة، وهي التي يقوم بها الطبيب الأول بعد استجواب المريض عن شكايته وتاريخها وأطوارها، وبعد فحصه الفحص المبدأي يسجل ملاحظاته ليقدّم الكشف إلى الأستاذ. وهذه هي الطريقة نفسها المتبعة في معظم مستشفيات العالم اليوم... وكان الرازي، حسبما جاء في «دائرة المعارف الإسلامية» أول من سجّل أحوال المرضى على صحيفة خاصة يذكر فيها تشخيص المرض ومعالجته، ونتائج هذه المعالجة».

الرازي: الحمد لله أنني أديت بعض الخدمة بهذه «الأوليات» التي تفضلّت بالاشارة إليها.

صوت: ونأتي الآن إلى ما خلّفت من الآثار النفيسة التي يراوح عددها حسب بعض المؤرخين بين ٢٣٢ و٢٧١

تصنيفاً، معظمها في الطب. وأبرزها كتاب «الحاوي»، وكتاب «المنصوري»، وكتاب «الفاخر»، وكتاب «المدخل»، وكتاب «الكافي»، وكتاب «الملوكي». والبعض الآخر في العلوم الطبيعية، والكيمياء، والمنطق، والرياضيات، والفلسفة... فكيف تسنّى لك أن تقوم بكل ما قمت به.

**الرازي:** الحقيقة، يا سيدي، أنني كنت أقضي وقتي في المطالعة والكتابة، متتبعاً ما تتضمّنه كتب الطب، مدققاً فيها...

**صوت:** ... حتى قال عنك إبن أبي أصيبعة في هذا الصدد:

«... لم يكن يفارق المدارج والنسخ. ما دخلت عليه قط إلا رأيته ينسخ... يسوّد أو يبيّض».

**الرازي:** صحيح ما يقول، ولو لم أفعل ذلك لما استطعت أن أخلف ما خلّفت من آثار تقول انها كانت ذات فائدة في عالم الطب بعدي.

**صوت:** وتاريخ الطب، يا أبا بكر، لا ينكر قط سبقك إلى عدد من الاكتشافات والابتكارات التي سأذكرها قبل استعراض محتوى أهم كتبك. فرسالتك، مثلاً، عن الجدري تتصف بالاصالة والدقة، ويصفها الكاتب نوبرغر بأنها «حلية في جيد الطب العربي، وأن لها أهمية عظمى في تاريخ الأمراض الوبائية لأنها أول بحث سطّر عن مرض الجدري». وقد ترجمت إلى اللغات اللاتينية والفرنسية، والانكليزية، والألمانية.

وقد وضعت كذلك أول رسالة رصينة في الأمراض الوبائية. وكنت أول من ابتكر خيوط الجراحة المعروفة بالقصاب، فضلاً عن كونك أول من قال بالعدوى الوراثية، واعتبر الحمّى عرضاً لا مرضاً. ولا ينكر فضلك على جراحة التوليد، وأمراض النساء، والعين...

**الرازي:** على ذكر العين، أذكر ههنا أنني لما أصبتُ بمرض الساد، أو الماء الأبيض بسبب اشتغالي بالكيمياء، وتصاعد الأبخرة إلى عيني مع طول إنكبابي على القراءة، وأعيتني الرؤية أتيَّ لي بطبيب قدّاح ليقدح عيني. فلم أشأ أن أدعه يعالجني قبل امتحانه. فسألته عن عدد طبقات العين، فأجاب أنه لا يعلم. عندئذ قلت: «والله لا يقدح عيني من لا يعلم ذلك!»

**صوت:** وكنت، يا أبا بكر، أوله من صنع مراهم الزئبق، وقد جرّبت الزئبق وأملاحه على القردة لاختبار مفعولها. واكتشفت حمض الزاج والفَوْل، أو الكحول باستقطار المواد النشوية والسكّرية المختمرة. وكانت لك آراء طبية باهرة أرى من المفيد الاستماع إليها في هذا المقام. فلقد باتت اليوم من المسلّمات والقواعد الراسخة في المعالجة. فهل لك بإسماعنا بعضها؟

**الرازي:** كما تشاء:

ـ «مهما قدرت أن تعالج بالأغذية فلا تعالج بالأدوية. ومهما قدرت أن تعالج بدواء مفرد فلا تعالج بدواء مركّب...

ـ إذا كان الطبيب عالماً والمريض مطيعاً فما أقلّ لبث العلة. . .

ـ الحقيقة في الطب غاية لا تُدرك، والعلاج بما تنصّه الكتب دون إعمال الماهر الحكيم برأيه خطر. . .

ـ الناقهون من المرضى إذا اشتهوا من الطعام ما يضرّهم، فعلى الطبيب أن يحتال في تدبير ذلك الطعام على نحو مفيد، ولا يمنعهم ما يشتهون. . .

ـ ينبغي للطبيب أن يوهم المريض أبداً بالصحة ويرجيه بها، وان كان غير واثق بذلك، لأن مزاج الجسم مرتبط بمزاج النفس. . .

ـ ينبغي للمريض أن يقتصر على واحد ممن يوثق به من الأطباء، فخطؤه في جنب صوابه يسير جداً. . .

ـ من تطبّب عند كثيرين من الأطباء يوشك أن يقع في خطأ كل واحد منهم. . .

ـ ما اجتمع عليه الأطباء، وشهد عليه القياس والتجربة، فهو الأقوم، فاجعله أمامك، والعكس بالعكس. . .

ـ العمر يقصر عن الوقوف على فعل كل نبات في الأرض، فعليك بالأشهر مما أُجمع عليه، ودع الشاذ، واقتصر على ما جرّبت. . .

ـ ينبغي للطبيب أن لا يدع مساءلة المريض عن كل ما يمكن أن تتولد عنه علته من داخل وخارج، ثم يقضي بالأقوى. . .

ـ إن الحمية المفرطة، والمبادرة إلى الأدوية، والتقليل

من الأغذية، لا يحفظ الصحة بل يجلب الأمراض. . .»

صوت: حبذا لو كان المجال يتسع للاسترسال في ترداد هذه الآراء القيّمة التي تزخر بها كتبك، فدعنا الآن نستعرض أبرزها. فهناك كتاب «الحاوي» ويقع في ثلاثين جزءاً، وهو المؤلف الأشمل للفن الطبي، وكان واحداً من الكتب التسعة في المكتبة الطبية في جامعة باريس سنة ١٣٩٥. وقد ترجم مرتين إلى اللغة اللاتينية. فماذا في هذا الكتاب؟

الرازي: في هذا الكتاب جمعت كل ما وجدته متفرقاً في ذكر الأمراض ومداواتها من سائر الكتب الطبية للمتقدمين، ومن أتى بعدهم إلى زماني، ونسبت كل شيء نقلته إلى قائله، وعقّبت على كل ذلك بالنتائج التي كنت استخلصها من اختباراتي وتجاربي الشخصية.

صوت: ويأتي بعده كتاب «المنصوري» الذي يقع في عشرة مجلدات، وقد ترجم أيضاً إلى اللاتينية. وقد ألفته للمنصور بن إسحق صاحب خراسان وكرمان. وكان للمجلد التاسع تأثير كبير في أوروبا، إذ بقي وكتاب «القانون» لابن سينا، كتابي التدريس فيها حتى القرن السابع عشر.

الرازي ضمّنت هذا الكتاب «المنصوري» الكثير من العلوم الطبية، أو قل كل ما يمكن أن يخطر بالبال. وفيه وصف دقيق لأعضاء الجسم من قمة الرأس إلى

أخمص القدمين، ووصف دقيق لتشريح الجسم البشري.

صوت: ويقول العارفون إنه أكثر وضوحاً، وأفضل تقسيماً من كتاب «الحاوي». ولعله أول تصنيف عربي في هذا المجال. فضلاً عن تضمينك إياه آراء جديدة في الطب النظري.

وهناك كتاب «الجامع» الذي ترجح «دائرة المعارف الاسلامية» انه «الحاوي» نفسه. غير أن إبن أبي أصيبعة يحسم هذا الجدل الذي أُثير حوله بقوله إنه مجموعة رسائل في موضوعات مختلفة من الطب تركتها مسوَّدة، وجمعت من بعدك، وسميت «بالجامع» أو «حاصر صناعة الطب» ولست أنت من أطلق هذا الاسم عليه بل هو من وضع من جمع رسائلك الطبية المتفرقة. إلاَّ أنه، مع الأسف، من الكتب المفقودة.

الرازي: يحزنني سماع ذلك. ففيه كل ما يتعلق بالطب الداخلي والخارجي حتى زماني، وذكرت أسماء الأعضاء والأمراض والأدوية باللغات اليونانية، والسريانية، والفارسية، والهندية، والعربية.

صوت: ومن كتبك «الطب الروحاني» ويعرف أيضاً بـ «طب النفوس» ويشتمل على عشرين فصلاً منها فصل في ضرر المسكرات، فهل تعطينا ملخصاً لما جاء فيه؟

الرازي: «إن إدمان السكر ومواترته هو أحد الأعراض الرديئة، المؤدية بصاحبها إلى البلايا والأسقام الجمة، وذلك أن المفرط في الشراب مشرف في وقته على السكتة أو

الاختناق، وعلى انفجار شرايين الدماغ، وعلى التردي في الأغوار والآبار، وعلى الحميّات والأورام الدموية والصفراوية، وعلى الرعشة والفالج...»

صوت: ... إلى أن تقول: ومن أجل ذلك ينبغيْ للعاقل أن يتوقاه! ومن تآليفك الجديرة بالتنويه كتاب في اللقوة، أو شلل الوجه، والفالج، أو شلل نصف الجسم...

الرازي. ورسالة في علل المفاصل وداء النقرس، وعرق النسا. وكتاب «من لا يحضره الطبيب» وفيه أصف الأمراض وأسبابها، ذاكراً العلل واحدة واحدة مع طرق معالجتها...

صوت: وقد عُرف هذا الكتاب أيضاً باسم «طب الفقراء» ونحن نسميه اليوم «الاسعافات الأولية». ولك أيضاً كتاب «برء الساعة» ويتضمن الأمراض التي تشفى في ساعة. وقد وضعته بطلب من الوزير أبي القاسم بن عبد الله إثر مناقشة عن مدة علاج العلل المختلفة.

الرازي: وقد جاء في مقدمة هذا الكتاب أن جمعاً من الأطباء زعموا في حضرة الوزير أبي القاسم هذا مرة أن علاج الأمراض يدوم وقتاً طويلاً، فرددت عليهم بأنني استطيع علاج الكثير من الأمراض في ساعة واحدة وأنهم لم يقولوا ما قالوه إلا رغبة منهم في الربح المادي واستنزاف أموال المرضى. عندئذ أبدى الوزير تعجبه من قولي ودعاني إلى وضع كتاب بهذا المعنى يكون مرجعاً للأطباء. فاستجبت لطلبه، وكان كتاب «برء الساعة».

صوت: ولك كتاب «الفاخر» وفيه وصف الأمراض من الرأس إلى القدم وبيان علاجها، وقد ذكرت فيه مراجعه وهو أشبه بالموسوعة الطبية، إذ يصف أعراض المرض وعلاجه وصفاً دقيقاً، وليس فيه من الاستشهادات ما في كتاب «المنصوري».

الرازي: صحيح ما تقول. ولي رسالة في تجبير الكسور وكيفية سكون آلامها، ورسالة في حصيّات الكلى والمثانة وطرق معالجتها. وكتاب «في الأوهام والحركات النفسانية» وفي «صفات البيمارستان»، وكتاب «العلة التي من أجلها صار ينجح جهّال الأطباء والعوام والنساء في المدن في علاج بعض الأمراض أكثر من العلماء، وعذر الطبيب في ذلك».

صوت: وعلى ذكر هذا النوع من المطببين يورد العالم «فرند» هذه العبارة التي أعجبته كثيراً في كتابك المنصوري، وفيها تقول: للمشعوذين والدجّالين في الطب حيل كثيرة لا تكفي لاستيعابها رسالة كاملة. وان جهلهم المطبق، وقحتهم الشديدة تفوقان الجرم الشائن الذي يقترفونه في تعذيب المرضى بدون سبب، ولا سيما في ساعاتهم الأخيرة...»

الرازي: إن حيلهم، يا سيدي، لا تنطلي على الأذكياء من المرضى، وإن على العقلاء ألّا يجعلوا حياتهم ألعوبة في أيدي هؤلاء المشعوذين.

صوت: ولك كذلك مصنف طريف في «الريح التي تسدّ

المنخرين ومنع التنفس بهما». وأخيراً، وليس آخراً، لك مقالة في موضوع ما يزال لغزاً طبياً إلى يومنا هذا ـ وهو ما يُعرف بأمراض الحساسية ـ موضوعها «مقالة في العلة التي صار من أجلها يعرض الزكام لأبي زيد البلخي في فصل الربيع عند شمة الورد». ويسمّون ذلك الآن في لغة الطب الحديث «حمّى القش» أو «حمّى الهشيم».

الرازي: إنها، والله، لتسمية معبّرة جداً. وقد أعجبتني أيضاً التسمية التي ذكرتها قبلاً «أمراض الحساسية».

صوت: في نهاية هذا اللقاء لا يسعني إلاّ شكرك، والتنويه بالدين الكبير الذي تدين لك به الحضارة فعسى أن تستطيع الوفاء به في قابل الأيام!

# الفارابي: فيلسوف العرب والمعلم الثاني

(٨٧٢ - ٩٥٠)

الفارابي: (مردداً هذا الدعاء) «أللهم اني أسألك، يا واجب الوجود، ويا علة العلل، يا قديماً لم يزل، أن تعصمني من الزلل، وأن تجعل لي من الأمل ما ترضاه لي من عمل. أللهم امنحني ما اجتمع من المناقب، وارزقني في أموري حسن العواقب، نجّح مقاصدي والمطالب يا آله المشارق والمغارب.

أللهم ألبسني حلل البهاء، وكرامات الأنبياء، وسعادة الأغنياء، وعلوم الحكماء، وخشوع الاتقياء.

أللهم انقذني من عالم الشقاء والفناء، واجعلني من إخوان الصفاء وأصحاب الوفاء، وسكان السماء مع الصدّيقين والشهداء.

أنت الذي لا إآله إلا أنت ، علة الأشياء ، ونور الأرض والسماء. امنحني فيضاً من العقل الفعّال، يا ذا الجلال والأفضال. هذّب نفسي بأنوار الحكمة، وأوزعني شكر ما أوليتني من نعمة، أرني الحق حقاً، والهمني اتباعه، والباطل باطلا واحرمني اعتقاده واستماعه ، هذّب نفسي من طينة الهيولى، انك أنت العلة الأولى.

أللهم ربّ الأشخاص العلوية والأجرام الفلكية، والأرواح السماوية، غلبت على عبدك الشهوة البشرية، وحب الشهوات والدنيا الدنية، فاجعل عصمتك مجنىّ من التخليط، وتقواك حصني من التفريط... انك بكل شيء محيط ...»

صوت: السلام على فيلسوف العرب، والمعلم الثاني، أبي نصر محمد بن نصر، الشهير بالفارابي إطلاقاً!

الفارابي: وعليك السلام، يا سيدي.

صوت: ما أروع هذا الدعاء!... هلا أذنت لي بإجراء حوار معك لنتعرف من خلاله على سيرتك، وآثارك كما سبق لي أن فعلت مع الكثيرين من أعلام الحضارة البشرية؟

الفارابي: على الرحب والسعة، يا سيدي.

صوت: لقد اتفق معظم المترجمين لك على أنك تركي الأصل، ولكن إبن أبي أصيبعة في كتابه «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» يذكر أن والدك كان قائد جيش، وهو فارسي المنتسب. غير أن الشيخ مصطفى عبد الرازق في كتابه عنك الموسوم «فيلسوف العرب والمعلم الثاني» يقول في هذا الصدد:

ـ «ولا سبيل إلى تحقيق نسبه من هذه الناحية لتقارب البلدين واشتراك الأعلام فيهما. وإذا صحّ أن أباه كان قائد جيش، فهو لم يكن من كبار القواد الذين يشيد بذكرهم التاريخ. ولعل فيما امتاز به

الفارابي من الشجاعة والصبر على احتمال متاعب الدرس ومشاق الأسفار وشظف العيش ما يشعر بأنه سليل أبطال».

الفارابي: أنا أنسب، يا سيدي، إلى بلدة فاراب التركية...

صوت: ... ولكن صاحب «الفهرست»، إبن النديم، يذكر أنك من بلدة فارياب من أرض خراسان...

الفارابي: لو كنت من فارياب، كما يقول إبن النديم، لكن إسمي الفاريابي، لا الفارابي...

صوت: ويذكر إبن خلّكان في «وفيات الأعيان» أن وفاتك كانت سنة ٣٣٩ هجرية عن ثمانين عاماً، ومن هنا نستنتج أن مولدك كان حوالي سنة ٢٥٩ هجرية.

الفارابي: إن هذا الاستنتاج في هذا المجال ضروري، إذ انني لم أترجم لنفسي كما صنع بعض مفكري العرب وأعترف بأنه تقصير أو سهو من جانبي...

صوت: وكذلك قصّر تلاميذك في هذا المجال أو سها ذلك عن بالهم. ومما يؤسف له أن المؤرخين لم يذكروا شيئاً يروي غليل من يودّ الاطلاع على فترة طفولتك وشبابك، واكتفوا بتتبع حركة أسفارك بعد بلوغك سن الخمسين، وبعد انتقالك من بلدك إلى بغداد سنة ٣١٠ هجرية.

الفارابي: صحيح أنني كنت أهوى الأسفار والتنقل، ولكن ذلك كله كان سعياً وراء الاستزادة من العلم.

صوت: بالطبع، فقد نشأت على ثقافة لغوية ودينية، وأقبلت

على العلوم الاسلامية من فقه وحديث وتفسير.

**الفارابي:** وتعلمت اللغات العربية والتركية والفارسية...

**صوت:** وليس صحيحاً أنك اتقنت أي لغة أخرى غيرها. وما يرويه إبن خلكان عن إلمامك بسبعين لساناً إنما يدخل في باب الأساطير!

**الفارابي:** بالطبع! ويهمني هنا القول انني نلت قسطاً من الدراسات العقلية من رياضيات وفلسفة في فترة متأخرة نوعاً.

**صوت:** وذكر إبن أبي أصيبعة أنك عنيت بدراسة الطب عناية خاصة، ولكن ذلك مستبعد. أليس كذلك؟

**الفارابي:** وهو كذلك... وفي بغداد درست المنطق على إمام المناطقة أبي بشر متى بن يونس، بعد اتقاني اللغة العربية، واتصلت بجماعة من اللغويين، وكان لي إذ ذاك من العمر خمسون سنة.

**صوت:** ودرست المنطق أيضاً على يوحنا بن حيلان المتوفى أيام المقتدر في مدينة السلام ـ على حد قول صاعد في كتابه «طبقات الأمم».

**الفارابي:** الحقيقة هي أنني-درست المنطق على يوحنا بن حيلان في حرّان التي توجهت إليها من بغداد. وقد تتلمذ عليّ يحيى بن عدي المنطقي المعروف.

**صوت:** بهذا تبدأ المرحلة الثانية من حياتك يا أبا نصر، وهي مرحلة النضج الكامل، والتأثير في من كان يتصل بك؟

الفارابي: ورجعت إلى بغداد ثانية، حيث عكفت على دراسة علوم الفلسفة، وبخاصة كتب أرسطو محاولاً استخراج معانيها، وقرأتها مراراً كثيرة.

صوت: مما يذكر في هذا الصدد أنك كتبت بخطك على كتاب «النفس» لأرسطو: «إني قرأت هذا مائة مرة».

الفارابي: وقرأت كتاب أرسطو الآخرْ «السماع الطبيعي» أربعين مرة، وكنت بعدها بحاجة إلى معاودة قراءته.

صوت: وفي بغداد، حسبما يروي إبن خلكان، ألّفت معظم كتبك، لأنك قضيت في هذه المدينة نحواً من عشرين عاماً من عمر نضجك العلمي.

الفارابي: صحيح، وبعد قضائي هذه الفترة في بغداد توجهت إلى حلب حيث عشت في كنف سيف الدولة الحمداني، ملتقياً في بلاطه بالعلماء المسلمين من لغويين وأدباء وفلاسفة، جاؤوا من كل مصر ومن كل جنس وثقافة.

صوت: وفي غضون إقامتك في حلب رحلت غير مرة إلى مصر ودمشق من فرط حبك للأسفار...

الفارابي ... ومن فرط رغبتي في الانقطاع إلى الدرس والتعليم والتأليف أيضاً...

صوت: ومما يؤثر عليك أنك لم تكن لتبالي بمظاهر الدنيا الفارغة حتى أنك قضيت عمرك تكسب قوتك بعمل يديك.

الفارابي: لقد قضيت حياتي في شظف من العيش، ولم أتورع عن العمل كناطور خلال الفترة التي أقمتها في دمشق . . .

صوت: . . . وفي دمشق كانت وفاتك سنة ٣٣٩ هجرية . . . وقد كرّمك سيف الدولة بن حمدان بالصلاة على جثمانك مع بعض خواصه. ودفنت بظاهر دمشق خارج الباب الصغير. ولقد كانت وفاتك طبيعية كما ذكر جلّ المؤرخين . . .

الفارابي: لماذا تقول جلّ المؤرخين يا سيدي، لا كل المؤرخين؟

صوت: لأن البيهقي خالفهم في كتابه «تاريخ الحكماء»، فذكر أن بعض اللصوص قتلوك في أثناء رحلتك من دمشق إلى عسقلان. غير أن الشيخ مصطفى عبد الرازق يستبعد ذلك في كتابه عنك.

الفارابي: حسناً، وشكراً لك على هذه المعلومات التي نقلتها إليّ. وأحسب أن الوقت حان الآن للتحدث عن مؤلفاتي.

صوت: كما تشاء، يا أبا نصر . . . فقد كنت منتجاً، وضعت ما يزيد على السبعين مؤلفاً بين كتب ورسائل أتيت فيها على الفلسفة بعلومها، وعلى النجوم، والمناظر، والمنطق، والعدد، والهندسة، والموسيقى . . . . ولكن لم يقدّر لكتبك أن تعرف حظ الانتشار مثلما حظيت به كتب تلميذك إبن سينا.

الفارابي: وفضلاً عن عدم حظها بالانتشار فإن أكثر مؤلفاتي ضاع أثناء الانقلابات والفتن، ولم يسلم منها إلاّ القليل.

صوت: ومن هذا القليل ترجم الأوروبيون ما حصلوا عليه. فقد انتشرت مؤلفاتك في الشرق في القرنين الرابع والخامس الهجريين، وانتقلت إلى الأندلس في الغرب، حيث تتلمذ عليها كثيرون من الأندلسيين. وترجم بعضها إلى اللاتينية والعبرية. وفيما بعد ترجمت إلى عدد من اللغات الأوروبية الحديثة. فهلاّ قسمت لنا العلوم، أيها المعلم الثاني؟

الفارابي: أنا أقسم العلوم قسمين. أولاً: العلوم النظرية، أو الفلسفة النظرية، وتشتمل على علوم التعاليم، والعلم الطبيعي، وعلم ما بعد الطبيعة.

وثانياً: العلوم العملية أو الفلسفة العملية، وقد ذكرت منها العلم المدني - أي علم الأخلاق وعلم سياسة المدينة، ثم علم الفقه، وعلم الكلام.

صوت: يبدومن هذا التقسيم أنك قدّمت العلوم النظرية على العلوم العملية لتوقّف هذا على تلك. . .

الفارابي: بالطبع، فالأولى دعامة للثانية.

صوت: على هذا الترتيب العقلي وضعت كتابك «إحصاء العلوم» الذي يدلّ على أنك أول من وضع النواة لدائرة المعارف في العالم، فضلاً عن أنه يعتبر أول محاولة من نوعها في تاريخ الفكر الاسلامي.

الفارابي: قصدت، كما يظهر من هذا الكتاب، إحصاء العلوم المشهورة علماً علماً، ومعرفة ما يشتمل عليه كل علم، وأجزائه، وتفريعاته، وجعلته في خمسة فصول.

صوت: وكنت مؤسس الفلسفة العربية، في نظر الكثيرين من المستشرقين والمؤرخين الأوروبيين والأميركيين، بعد أن درسوها وتأثروا بها...

الفارابي: ... الحقيقة أنني أخذت عن غيري، ولكنني وضعت فلسفتي في الاطار الذي يتلاءم والبيئة التي عشت فيها. فقد أخذت عن أرسطو وأفلاطون وأفلوطين، ولكنني مزجت كل ذلك وصبغته بصبغة إسلامية واضحة.

صوت: إسمح لي أن أنقل إليك ما يقوله المفكر دوبور في كتابه «تاريخ الفلسفة العربية»:

ـ «لئن كان المعلم الثاني أرسططاليسيا في المنطق والطبيعيات، افلاطونياً في الأخلاق والسياسة، أفلوطينياً في فلسفة ما بعد الطبيعة، فهو قبل كل شيء فيلسوف الانتقاء والتوفيق، والمؤمن بوحدة الفلسفة، المدافع عنها في كل حال».

الفارابي: أنا أرى أن الفلسفة القديمة واحدة، أو على الأقل، أرى أن أرسطو وأفلاطون ـ أكبر فيلسوفين قديمين ـ لا تتناقض فلسفتهما. فإن مذهبيهما ليسا إلا تعبيرين مختلفين لحقيقة واحدة!

صوت: لن نتوقف كثيراً عند هذه النقطة، بل أود أن اتحدث

قليلاً عن كتابك الشهير «آراء أهل المدينة الفاضلة» الذي ضمنته مذهبك الفلسفي كله مما يتعلق بآرائك في الآلهيات والنفس الانسانية وقواها المتعددة المختلفة وفي الأخلاق والسياسة. وأنقل إليك هنا قول الأستاذ عباس محمود العقاد في صدد هذا الكتاب:

ـ «ويمتاز الفارابي من بين فلاسفة الاسلام بأنه عالج البحث في السياسة من الناحية الفلسفية الخالصة. فالتفكير السياسي في نظام الدولة، وتصوّر المثل الأعلى للحكم، ووضع الموازين الخلقية والمقاييس السياسية، وتحديد الغاية من الحاكم والمحكوم، ونقد المجتمع الذي يؤدي إلى الشرور والمفاسد، كل هذه من الوسائل التي انفرد بها الفارابي بالبحث فيها والتي تدل على قوة الشخصية واستقلال الرأي...»

الفارابي: والمدينة الفاضلة اسم أطلقته على المثل الأعلى للحكم، وبه أردت المدينة التي تحقق لأعضائها السعادة القصوى في الدارين. وأودّ أن أوضح أنها مدينة جويدة تختلف كثيراً في فروعها وتفاصيلها عن جمهورية أفلاطون، على الرغم من بعض المشاركات والتشابه بينهما في الأصول. فلقد استعنت بفلسفة اليونان وجمهورية أفلاطون، واستعنت بالاسلام وأحكامه، مضيفاً إلى هذا كله تجاربي وخبراتي... فجاءت ملونة بالألوان الأفلاطونية والاسلامية...

صوت: ... كما جاءت تتضمن القواعد السامية والأصول العلمية التي يجدر بكل أمة السير عليها والاقتراب

منها. وسيكون الختام هذه الطرفة عنك كموسيقي بارع. وأذكر في هذا المجال أن لك كتاباً في الموسيقى أسميته «كتاب الموسيقى الكبير» الذي ألفته للوزير أبي جعفر محمد بن القاسم الكرخي.

**الفارابي:** ولي أيضاً كتب أخرى في الموسيقى هي: كتاب في إحصاء الايقاع، وكلام في النقلة مضافاً إلى الايقاع، وكلام في الموسيقى... ولكن ما هي الطرفة التي ذكرتها؟

**صوت:** روى إبن خلكّان أن الآلة المسماة بالقانون هي من وضعك، وأنك أول من ركّبها هذا التركيب. وحكى أنك كنت يوماً في مجلس سيف الدولة، فجرى بينكما حوار، أتذكره؟

**الفارابي:** إني أذكره تماماً كما لو كان هذا المشهد يجري الان

**صوت:** هل لك أن تسمعنا إياه؟

**الفارابي:** قال لي سيف الدولة: هل لك في أن تأكل؟ قلت: لا. فهل تشرب؟ قلت: لا. قال: فهل تسمع؟ قلت: نعم فأمر سيف الدولة إذ ذاك بإحضار القيان، فحضر كل ماهر في هذه الصناعة بأنواع الملاهي. فلم يحرك أحد منهم آلته إلاّ وعبته في شيء وقلت له: أخطأت. فقال سيف الدولة: هل تحسن في هذه الصناعة شيئاً؟ قلت: نعم. ثم أخرجت من وسطي خريطة ففتحتها، وأخرجت منها عيداناً وركبتها، ثم لعبت بها فضحك كل من في المجلس. ثم فككتها

وركبتها تركيباً آخر وضربت بها، فبكى كل من كان في المجلس. ثم فككتها وغيرت تركيبها، وضربت بها ضرباً آخر، فنام كل من في المجلس حتى البواب، فتركتهم وخرجت.

صوت: إسمح لي أن أورد لك التعليق الذي أورده على ذلك الشيخ مصطفى عبد الرازق وهو:

ـ «ولئن كانت هذه الحكاية أدنى إلى الأساطير منها إلى التاريخ، فهي تشبه أن تكون غلوّاً مجاوراً لا اختراعاً صرفاً».

# المسعودي: بلينوس أو هيرودوتس الشرق
## (٩٠٠ - ٩٥٧)

صوت: المسعودي من بين نخبة الكتّاب الذين أنشأوا بالعربية مؤلفات ترتدي طابع الموسوعات إلا أنه من المؤسف حقاً أن موسوعته التي ألّفها في ثلاثين مجلداً وسماها «أخبار الزمان» قد ضاعت. وكذلك ضاع الملخّص الأول الذي اختصر به هذه الموسوعة وسماه «الكتاب الأوسط». ولم يسلم من موسوعته غير السفر الذي اختصر به «الكتاب الأوسط» وسمّاه «مروج الذهب ومعادن الجوهر»، وهو مطبوع متداول. وله كتاب ثانٍ قيّم مطبوع ومتداول اسمه «التنبيه والاشراف»!

المسعودي: لقد أحزنتني، يا سيدي، بهذه المعلومات المؤسفة حقاً. واني لأحمد الله الذي لا يحمد على مكروه سواه، لأنني اختصرت ما سمّيته بالموسوعة مرتين حتى سلم على الدهر «مروج الذهب ومعادن الجوهر».

صوت: وقبل أن نبدأ باستعراض سيرتك أودّ أن أشير إلى أن المفكرين في الغرب اهتموا كثيراً بك وبإنتاجك العلمي، فترجموا إلى اللغات الأوروبية الكثير مما كتبت، ووصفك بعضهم بأنك «بلينوس الشرق»، و«هيرودوتس الشرق». وقال عنك كاترمير:

ـ «إذا ما نظر الانسان إلى كتبه بُهت من تنوع المواد التي كتب فيها، ومن كثرة المسائل المهمة العويصةِ التي حلّها، والحقُّ أنه كان واسع الفضل في الزمن الذي نبغ فيه لا لأنه قرأ جميع الكتب الخاصة بالعرب وتأمل فيها فقط، بل لاحاطة مباحثه الواسعة بتاريخ اليونان والرومان وجميع أمم الشرق حديثها وقديمها أيضاً».

صوت: وإذا ما عدنا إلى المؤرخين والكتّاب العرب القدامى فاننا نرى أنهم أشادوا بمنزلتك وفضلك على الدراسات التاريخية والجغرافية. ومنهم إبن شاكر الذي وصفك بأنك إخباري علّامة، وصاحب غرائب وملح ونوادر. ووصفك إبن النديم بأنك «مصّنِف لكتاب التواريخ وأخبار الملوك». وعلى الرغم من أن إبن خلدون ناقش بعض الأخبار التي رويتها في كتبك، ونقض بعضها، إلا أنه، مع ذلك أشاد بك واعترف بفضلك على التاريخ، قائلاً:

ـ «صار إماماً للمؤرخين يرجعون إليه، وأملاً يعوّلون عليه في تحقيق الكثير من أخبارهم».

المسعودي: هل لديك أقوال أخرى، يا سيدي؟

صوت. أكتفي بهذا القدر من التنويه بقيمتك كمؤرخ وجغرافي معاً، يا أبا الحسين، وأُسارع إلى البدء بترجمتك... فأنت علي بن الحسين المسعودي، نسبةً إلى عبد الله بن مسعود الصحابي وتُكنّى أبا الحسين. ولدت في بغداد سنة ٢٨٧ هجرية الموافقة سنة ٩٠٠ ميلادية، وذلك

في أواخر عهد الخليفة العباسي المعتضد بالله، ونشأت في بغداد على ثقافة معتزلية، منفتحة الآفاق، تدين بالعقل. وكانت بغداد آنذاك من أعظم مراكز العلم الكبرى في العالم، مشهورة بمكتباتها التي حوت الكثير من تراث العرب، فضلاً عمن كانت تضمهم من كبار الفقهاء والعلماء والأدباء، الأمر الذي أتاح لك فرصة التزود بقسط وافر من العلم والثقافة، كالثقافة التي أثرت عن الجاحظ...

المسعودي: على ذكر الجاحظ أقول هنا أنني انتقدت الجاحظ لأنه ألّف كتاباً في البلدان والأمصار دون أن يسافر أسفاراً بعيدة، لكنني لا أنكر أنني مدين لأبي عثمان بتوجيهي إلى درس أحوال البشر وأقاليمهم.

صوت: وفي مرحلة الشباب عاصرت الشاعر إبن الرومي وأشدتَ بشعره، وأشرتَ إلى تأثره بالفلسفة اليونانية، وشهدت وفاته في بغداد. وقد درست العلوم اللغوية والفقهية، وألممت بالتاريخ والجغرافيا والفلسفة، وتعلّمت كثيراً من اللغات كالفارسية، والهندية، واليونانية، والرومية، والسريانية...

المسعودي: وأردت أن أنمّي ثقافتي وأزيد معلوماتي بعد أن نهلت العلوم من مصادرها المختلفة في بغداد، فرأيت أن أرحل إلى الأقطار المختلفة من عربية وغير عربية، لألتقي بالثقافات المتنوعة وجهاً لوجه، بعد أن التقيت بها في متون الكتب، فضلاً عن رؤيتي صوراً من حياة الشعوب، وألواناً عديدة من الحضارات...

صوت: هذا صحيح، ولكن يجمل بنا هنا أن نشير إلى أن بغداد كانت عندما عـزمت على الـرحيل تمـرّ بفترة سياسية قلقة، تميزت بسيـطرة عناصـر أجنبية عـلى الخلفاء العباسيين واستئثارهم بالسلطة من دون هؤلاء الخلفاء. وهكذا تكون أكثر تحرراً لدى تدوين تاريخ هؤلاء الخلفاء العباسيين وأنت بعيد عن الاضطرابات السياسية هذه. وكان لك من العمر حينئذ عشرون سنة.

المسعودي: وأفدت كثيراً من هذه الرحلات، إذ انني جمعت الكثير من الحقائق التاريخية والجغرافية. فقد بدأتها سنة ٣٠٩ هجرية متوجهاً من بغداد إلى الأطراف الشرقية من الدولة العباسية. وفي السنة التالية رحلت إلى الهند وملتان والمنصورة. وأقمت فترة في بومباي، ثم في سرنديب (سيـلان) فترة أخـرى. ومن هناك ركبت البحر بصحبة بعض التجار إلى بلاد الصين. وجبت المحيط الهنـدي وزرت جزره ومـوانئـه، وبخـاصـة مدغشقر وزنجبار، ثم عدت في نهاية رحلتي الأولى هذه إلى عُمان.

صوت: أما رحلتك الثانية فجرت سنة ٣١٤ هـ وكانت إلى ما وراء أذربيجان وجُرْجَـان، رحلت بعدهمـا إلى بلاد الشام وفلسطين. وفي سنة ٣٣٢ رحلت إلى أنطاكية، وزرت ثغور الشام، ثم عدت إلى البصرة، وما لبثت أن عدت إلى بلاد الشام، وأقمت فترة في دمشق، وقضيت الشطر الأخير من حياتك منتقلاً بين مصر وسوريا عاكفاً على التدوين والتأليف.

المسعودي: وقد أتممت كتابي «مروج الذهب ومعادن الجوهر» في الفُسطاط بمصر سنة ٣٣٦، بعد أن كنت بدأته سنة ٣٣٢. وكنت في سنة ٣٣٤ أعمل في وضع النسخة الأولى من كتابي «التنبيه والاشراف» في الفسطاط كذلك. ولكنني في سنة ٣٤٥ أصلحتها وزدت فيها. وكانت وفاتي في سنة ٣٤٦ هجرية/٩٥٧م.

صوت: أما كتابك «التنبيه والإشراف» الذي سلم هو الآخر من الضياع مثل «مروج الذهب» فقد جعلته أشبه بدليل مختصر لمؤلفاتك الأخرى. وفيه قسمت الكائنات تقسيماً يتصل بعضه ببعض، ودرجتها من معادن إلى نبات إلى حيوان. ودعني هنا أذكر أنك أبديت في «مروج الذهب» أملك في أن تطول حياتك لتؤلف كتاباً آخر. ولكن المنية عاجلتك قبل أن يتاح لك الوقت لذلك. فهلا حدثتنا عن هذا الكتاب؟

المسعودي: لقد اخترت لهذا الكتاب عنوان «وصل المجالس بجوامع الأخبار ومختلط الآثار»، شئت أن أضمِّنه فنوناً من الأخبار، وأنواعاً من طرائف الآثار، على غير نظم من التأليف، ولا ترتيب من التصنيف على حسب ما يسنح من فوائد الأخبار ويوجد من نوادر الآثار.

صوت: وقبل أن نقتطف مقاطع من كتابك «مروج الذهب» الذي اشتهرت به كمؤرخ، سنحاول أن نرسم صورتك النفسية والعقلية، ونتحدَّث عن تأثّرك وتأثيرك، وعن منزلتك كمؤرخ وكجغرافي.

المسعودي: وهو كذلك، فماذا تود معرفته أولاً؟

صوت: حبذا لو أن من كتب عن إنتاجك العلمي رسم لنا صورة واضحة عنك ومفصلة من الناحيّتين الخلقية والنفسية، وصوّر لنا حياتك اليومية لنتعرّف اليك أكثر فأكثر.

المسعودي: بإمكانك، يا سيدي، أن تلملم خيوط هذه الصورة التي تعني من بين سطور كتابيَّ اللذين ذكرت.

صوت: صحيح ما تقول، فأننا نجد فيهما ملامح صورة لبعض جوانبك النفسية. فأنت صورة صادقة للوطني المخلص. فعلى الرغم من أنك أصبحت شخصية عالمية بعد قضائك أكثر من ربع قرن في التجوال الدائم، نراك تحنّ إلى موطنك الأصلي العراق حيث ولدت ونشأت. فأنت دائم الحنين والشوق إلى هذا البلد. وافر الوطنية، والوفاء للوطن...

المسعودي: «لقد ذكر الحكماء فيما خرجنا إليه من هذا المعنى، يا سيدي، أن من علامة دوام وفاء المرء ودوام عهده، حنينه إلى إخوانه، وشوقه إلى أوطانه، وبكاءه على ما مضى من زمانه، وأن علامة الرشد أن تكون النفوس إلى مولدها مشتاقة، وإلى مسقط رأسها توّاقة، وللإلف والعادة قطع الرجل نفسه لصلة وطنه».

صوت: وفي «مروج الذهب» تظهر بكل جلاء ثقتك بنفسك واعتزازك بما أحرزت من علم وثقافة ودراية، وبما بذلت من مجهود وما قمت به من مغامرات، وما لقيت من مصاعب. فبماذا يمتاز كتابك هذا عن سائر الكتب التي سبقته؟.

المسعودي: الواقع أنني وجدت مصنّفي الكتب في ذلك مُجيداً ومقصراً، ومسهباً ومختصراً، ووجدث الأخبار زائدة مع زيادة الأيام، حادثة مع حدوث الأزمان، وربما غاب البارع منها على الفطن الذكي، ولكل قسط يخصّه بمقدار عنايته، ولكل إقليم عجائب يقتصر على علمها أهله. وليس من لزم جهة وطنه بما نمي إليه من الأخبار عن إقليمه كمن قسم عمره على قطع الأقطار، ووزع بين تقاذف الأسفار، واستخراج كل دقيق من معدنه، وإثارة كل نفيس من حكمته».

صوت: صحيح والله، يا أبا الحسين ولننتقل إلى الكلام على تأثرك وتأثيرك... فأنت تأثرت حسبما ورد في مقدمة مروج الذهب ببعض المؤرخين كابن قُتيبة الدينوري، والطَبري، ونفِطوية، والصُولي، وقُدامة بن جعفر...

المسعودي: ولكنني كنت قاسياً في نقدي للجاحظ ولسنان بن ثابت قُرّة الحرّاني لأن هذا الأخير «انتحل ما ليس في صناعته، واستنهج ما ليس في طريقته».

صوت: وشئت تبرير نقدك لكتب المؤرخين الذين ذكرت فاستشهدت بعبارة لابن المقفع: «من وضع كتاباً فقد استهدف، فإن أجاد فقد استشرف، وإن أساء فقد استُقْذِفْ». ومع تأثرك بمن سبقك من المؤرخين - وفي طليعتهم الطبري - فانك لم تتبع منهجهم، بل وضعت منهجاً جديداً وطوّرت الدراسات التاريخية. وقد تأثر الكثيرون من المؤرخين بمنهجك هذا.

المسعودي: كان الطبري - ويُعرف بشيخ المؤرخين - يعتمد طريقة

التأريخ بالسنين، فكان يؤرخ أحداث التاريخ سنة بسنة. وكان اليعقوبي، وهو مؤرخ كبير معاصر للطبري، بعيداً عن التأريخ بالسنين، ويقسم تاريخه تقسيماً موضوعياً، جاعلاً الشخصيات التاريخية أحياناً محوراً لدراسته. فاتبعت طريقة اليعقوبي بعد تطويرها وإضافة تجاربي وخبراتي الكثيرة إليها، مع مزج الدراسات التاريخية بالجغرافية وفتح آفاق جديدة في الدراسات الاجتماعية والاقتصادية والدينية. . .

صوت: كما اهتممت بمعالم الحضارة المختلفة، ولزمت الطريقة الموضوعية، فكان محور دراستك الشعوب والملوك والأسر والخلفاء.

المسعودي: واهتممت أيضاً بالتحليل التاريخي، والبحث عن المسببات والدوافع، ونقد الأحداث. فمنهجي الجديد في دراسة التاريخ شذَّ عن طريقة السرد التاريخي البحت القديمة.

صوت: وقد حذا حذوك إبن خلدون في منهجه وأضاف إليه، مما جعله يبرّز على الكثيرين من المؤرخين والمفكرين. وإذا ما انتقلنا إلى مجال الدراسات الجغرافية وجدناك تنتهج أيضاً نهجاً جديداً. فأنت أكثر عمقاً ودقة من غيرك من الرَّحَّالة والجغرافيين الذين يُعوزهم الاستعداد الضروري للتأمل العلمي. ولم تكن رحلاتك للنزهة أو للكسب، بل لمشاهدة معالم البلاد والاطلاع على أخبارها. وقد سار على نهجك كل من الإصطخري، وأبي الفداء، وإبن حوقل، والبيروني. . . فبماذا تتميز طريقتك؟.

المسعودي: أنا يا سيدي، عندما أتحدث عن رحلاتي، أتبع طريقة موضوعية إقليمية، فأقسم دراستي إلى موضوعات مستقلة، يتحدث كل موضوع عن أقليم معين، فأنا لا أتبع الطريقة الزمنية ولا أهتم بتتابع أخبار رحلاتي أو الربط بينها.

صوت: وقبل أن أستودعك الله، أودّ أن تسمعنا طرفة من الطرف التي يزخر بها كتابك «مروج الذهب». فماذا ستروي لنا؟

المسعودي: إسمع شيئاً من بعض عادات الهند الطريفة حقاً! فالهند لا تملّك الملك عليها حتى يبلغ من عمره أربعين سنة، ولا تكاد ملوكهم تظهر لعوامهم إلا في كل برهة من الزمان معلومة. ويكون ظهورها للنظر في أمور الرعية، لأن في نظر العوام عندها إلى ملوكها خرقاً لهيبتها، واستخفافاً بحقها، والرياسات عند هؤلاء لا تجوز إلا بالتخيّر ووضع الأشياء في مواضعها من مراتب السياسة. ورأيت في بلاد سرنديب - وهي جزيرة من جزائر البحر - أن الملك من ملوكهم إذا مات صُيِّر على عجلة قريبة من الأرض، صغيرة البكرة، معدَّة لهذا المعنى، وشعره ينجرّ على الأرض، وأمرأة بيدها مكنسة تحثو التراب على رأسه وتنادي: «أيها الناس، هذا ملككم بالأمس، وقد ملككم وجاز فيكم حكمه، وقد صار أمره إلى ما ترون من ترك الدنيا، وقبض روحه ملك الموت والحي القديم الذي لا يموت، فلا تغتروا بالحياة بعده». وتقول كلاماً هذا

معناه من الترهيب والتزهيد في هذا العالم. ويُطاف به كذلك في جميع شوارع المدينة، ثم يفصل أربع قطع، وقد هيّىء له الصندل والكافور وسائر أنواع الطيوب، فيُحرق بالنار ويُذرُّ رماده في الرياح. وكذا فعل أكثر أهل الهند بملوكهم وخواصهم لغرض يذكرونه ونهج يتممونه في المستقبل من الزمان. والمُلك مقصور على أهل بيت لا ينتقل عنهم إلى غيرهم، وكذلك بيت الوزراء والقضاة وسائر أهل المراتب لا تُغيَّر ولا تُبدّل».

## أبو الفرج الأصبهاني: سَمْعُ عصره وبصرُه
(٨٩٧ - ٩٦٦)

صوت: كان من عصره السمع والبصر، روى وصوَّر وألَّف، وكتابه «الأغاني» الذي قامت عليه شهرته يعدل وحده مكتبة بأجمعها... وقد حُكي عن الصاحب بنِ عبَّاد، وهو من معاصري أبي الفرج المتأخرين أنه كان في أسفاره يستصحب حمل ثلاثين جملاً من كتب الأدب ليطالعها، فلما وصل إليه كتاب «الأغاني» استغنى به عنها كلها. وحكي كذلك عن عهد الدولة البويهي وهو قريب العهد بأبي الفرج أنه قال:

- «كتاب الأغاني لم يفارقني في سفري ولا حَضَري، وكان جليسي الذي آنس إليه، وخديني الذي ارتاح عنده».

صوت: قبل أن نتعرَّف على أبي الفرج الأصبهاني صاحب «الأغاني» في هذا اللقاء دعونا نستمع إلى رأي إبن خلدون في هذا الكتاب الشهير الذي يقول فيه بعد زمن تأليفه بنحو أربعمائة سنة في مقدمته المعروفة:

- «... ولعمري إنه ديوان العرب، وجامعُ لشتات المحاسن التي سلفت في كل فن من فنون الشعر

والتاريخ والغناء وسائر الأحوال. ولا يُعدلُ به كتابٌ في ذلك، فيما نعلمه، وهو الغاية التي يسمو إليها الأديب، ويقف عندها، وأنّى له بها»!

أبو الفرج: شكراً لك، يا سيدي، على هذه المقدمة الجامعة المانعة كما يقولون، وشكراً لابن خلدون الذي سرّني كثيراً أن أسمع رأيه في كتابي «الأغاني» الذي جمعت فيه أخبار العرب، وأشعارهم، وأنسابهم، وأيامهم، ودولهم، وجعلت مبناه على الغناء في المائة صوت التي اختارها المغنون للرشيد.

صوت: الواقع يا أبا الفرج، أن لا كتابَ أوعبَ منه لأحوال العرب، على حد تعبير إبن خلدون أيضاً. ولكن قبل الاسترسال في الحديث عن «الأغاني» وسائر أعمالك الأدبية نود أن نبدأ لقاءنا بتعريفك إلى مستمعينا، وسرد وقائع حياتك، إذا سمحت لنا بذلك.

أبو الفرج: ولم لا، يا سيدي، فأنا مستعد لكل سؤال.

صوت: من الغريب أنه ليس بين أيدينا اليوم من المصادر ما يفيدنا كثيراً عن مولدك، ونشأتك، وحياتك. ولسنا نعرف منها أين أبصرت النور، ولا كيف نشأت، وهل تزوجت، ورزقت أولاداً؟ فهل لك أن تجلو لنا الحقيقة؟

أبو الفرج: أسمي الكامل أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد بن أحمد بن الهيثم الأصبهاني. وأنا عربي قرشي، يتصل نسبي من ناحية أبي بالبيت المرواني من بني أمية...

صوت: . . . وأنك من نسل مروان الأخير، وليس من نسل هشام إبن عبد الملك. . .

أبو الفرج: صحيح. . . ومن ناحية أمي يتصل نسبي بآل ثوابة من الشيعة، وكانوا في الأصل نصارى.

صوت: فأنت، إذن، من القلائل الذين كانوا أمويي النسب شيعيي الهوى أو المذهب. ولعلك أخذت التشيع عن أخوالك.

أبو الفرج: إن تشيعي سابق لأخوالي، يا سيدي، والدليل على ذلك ان اسمي علي، واسم عمي الحسن، واسم والدي الحسين.

صوت: ويظهر تشيُعك من كتابك الشهير الآخر «مقاتل الطالبيين» الذي فرغت من تأليفه وأنت بعد في التاسعة والعشرين من عمرك.

أبو الفرج: حسناً. . . ولنعد إلى مولدي. فقد كان ذلك في سُرَّ من رأى في العراق سنة ٢٨٤ للهجرة (أو ٨٩٧ للميلاد) وقد نشأت في بغداد حيث قضيت فترة من الزمن. وأما نسبتي إلى أصبهان فليس من الضروري أن تشير إلى أنني ولدت فيها، أو نشأت فيها. وكانت أسرتي غنية في سرّ من رأى.

صوت: وليس مستبعداً أن يكون أجدادك قد آثروا هذه النسبة إلى أصبهان حين انتقلوا منها إلى العراق على سبيل التنكر، وإخفاء لنسبهم المرواني الذي كان يمكن أن يسبّب لهم المشاكل مع رجال الحكم من العباسيين.

أبو الفرج: إن الأمر كذلك. وقد كان لي في بغداد دار معروفة تقع على نهر دجلة، مجاورة لدار الوزير إبن البريدي.

صوت: على ذكر جارك هذا أبي عبد الله إبن البريدي الذي عينّه الخليفة الراضي وزيراً، نذكر في هذا المقام أنك استأت لهذا التعيين، وقد عثر بك حظك عن الوصول إلى هذا المنصب، فنظمت قصيدة طويلة في هجائه وتأنيب الراضي في تولية إبن البريدي، أفتذكرها؟

أبو الفرج: وكيف لا أذكرها؟ إنها تزيد على مائة بيت، وأقول في مطلعها:

يا سماء أسقطي، ويا أرض ميدي
قد تولّى الوزارة ابن البريدي
جلّ خطب، وحل أمرٌ عضال
وبلاء أشاب رأس الوليد

صوت: حسناً، حدثنا الآن عن اسرتك.

أبو الفرج: كانت أسرتي غنية، وكان في أفرادها من هم علماء ورواة. ومن هنا كانت نشأتي أدبية. ولعل عمي هو مؤدبي الأكبر، وكان واسع الثقافة، كثير الرواية. وكان أبي مولعاً بالغناء والأدب.

صوت: ومما يروى من أخبارك في شبابك وشيخوختك أنك كنت تحب الشراب والغناء، وتتردد إلى متنزهات اللهو في بغداد.

أبو الفرج: ولعلّ ذلك يفسر شغفي بأخبار المغنين، والمغنيات،

والـقيـــان، والإمـــاء، والـــديـــارات، وأصـــحـــاب الشراب...

صوت: ... واتصالك أخيراً بالوزير المهلبي الماجن، وزير المعزّ في بغداد، الـذي لازمته إلى أن فـرّق الموت بينكما. وقد ذكر لك الثعالبي في «يتيمة الدهر» بعض شعرك في الشراب، فضلاً عما رويته في «الأغاني» من الأخبار عن نفسك وفيها تقرّ بعبثك.

أبو الفرج: وهل في ذلك من حرج؟ فأنا لم أقصر حيـاتي على ذلك. فقد كانت ثقافتي واسعة، والعلوم التي ألممت بها كانت كثيـرة. فإلى جـانب ما كنت أحفظ من الشعر، والأخبار والآثار، والحديث المسند، والنسب، كـان هناك اللغـة والنحو والسِيـرَ، والمغازي، وعلم الجـــوارح، والبيـطرة، ونتف من الـطب والنجـوم والأشربة. ومن شيـوخي العلماء الذين نقلت عنهم كثيراً أذكر الفضل إبن الحباب الجُمَحي، والطبري، وابن دُرَيْد، وابن قُدامة، والصُوْلي، وجحظة...

صوت: ومن عجب أنك تأثـرت كثيراً بشيخـك الطبـري، المؤرخ المعروف. فقد اتبعت طريقته في التأليف من حيث الاسناد والحرص على الصحة في النقل، دون الجنوح إلى الاستنباط بالفكر والاستخراج بالعقـل. وقد وضع الطبري هذه الطريقة العلمية الصحيحة في تاريخه وتقيَّدت أنت بها إلى حد كبير.

أبو الفرج: والواقع أنني لم أكتفِ بأخذ الـرواية عن أشخـاص أسميهم، بـل كثيراً مـا كتبت إلى علماء معـروفـين

فيبعثون إليّ بالأخبار التي أريدها فأنقلها إجازة منهم. وقد قارب عدد هؤلاء جميعاً المائتين.

صوت: ونعود إلى سيرتك، فيظهر أنك كنت تعيش وحيداً في بيتك فلا زوج ولا ولد، وكنت مغرماً بتربية الحيوانات. فقد كان عندك ديك، رثيته بقصيدة من جيد الشعر لما مات.

أبو الفرج: وكان عندي هرٌّ إسمه «يَقَقْ» كنت أعتني به خير عناية. ذلك بأن بيتي كان مسكناً صالحاً للفئران، كثرت فيه حتى أزعجتني...

صوت: فشكوتَ أمرها إلى الوزير المُهَلَّبي بقصيدة تذكر فيها أنك اتخذت هراً يحميك منها وتراه خيراً من كثير من الأصحاب.

أبو الفرج: صحيح، إسمع هذا البيت:

حبذا ذاك صباحاً وهو في الصحبة أوفى من أكثر الأصحاب

صوت: وكنت مهملاً في ملبسك، وفي منزلك، ونهماً أكولا، تكثر من تناول الفلفل، وخصوصاً عندما يثقل الطعام على معدتك. وكنت تلعب الشطرنج، وتحبّ النكتة والمزاح، يحذرك الناس للسانك السليط، وخوفاً من هجائك. وكان الوزير المهلبي يتكلف احتمال سوء خلقك لأنك كنت من ندمائه...

أبو الفرج: ... الظرفاء، ومن المقربين إليه، ولأنني كنت خفيف الروح، وصاحب ذوق أدبي، يا سيدي!

صوت: حتى أنك لم تتورع عن هجاء الوزير أبي محمد المهلبي مع ما كان يخصّك به من جميل الرعاية والاكرام. هلاّ أسمعتنا البيتين الشهيرين في هجاء المهلبي؟

أبو الفرج: أبعين مفتقر إليك رأيتني
بعد الغنى فرميت بي من حالق
لست الملوم، أنا الملوم لأنني
أمّلت للاحسان غير الخالق

صوت: وكنت كثير التنقل. فقد ذكرت عرضاً في كتابيك «الأغاني» و«مقاتل الطالبيين» أنك عرفت وزرت مدناً كثيرة، منها موطن أهلك سُرَّ من رأى، والكوفة، والبصرة، وحصن مهدي، والقادسية، والرقة، وحلب، وأنطاكية...

أبو الفرج: بالطبع، ذلك بأن بغداد لم تكن المركز الوحيد في ذلك العهد لنقل الأدب والعلم، والاتصال بالأدباء والرواة.

صوت: وقبل أن ننتقل إلى الحديث عن أشهر مؤلفاتك «الأغاني» نذكر أن الذين أرخوا وفاتك اختلفوا في تاريخها، بينما اتفقوا في تاريخ مولدك. فهل لك أن تحسم ذلك وتعيّن لنا التاريخ الصحيح الذي يراوح بين سنة ٣٥٦ و ٣٩٠ للهجرة.

أبو الفرج: سأحسم الأمر، فأقول ان وفاتي كانت بالفالج في ١٤ ذي الحجة من سنة ٣٥٦ للهجرة، أو في ٢٠ تشرين الثاني من سنة ٩٦٧ ميلادية. ولا استغرب أن يكون

الرواة قد خلطوا في هذا المجال بيني وبين أبي الفرج الأصبهاني الكاتب أحمد بن محمد.

صوت: حسناً. . . والآن نتحدث عن مؤلفاتك التي لم تقتصر على الأدب أو التاريخ أو الغناء، بل تعدَّتها إلى مواضيع كثيرة كنتَ ملماً بها. وقد ذُكر لك نحو من اثنين وثلاثين مؤلفاً لا مجال لذكرها في هذا المقام. وقد قال فيها ياقوت الرومي، مؤرخ الأدباء:

- «ولأبي الفرج بَعْدُ، تصانيفُ جيادٌ فيما بلغني كان يصنِّفها، ويرسلها إلى المستولين على بلاد المغرب من بني أمية. وكانوا يحسنون جائزته. ولم يعد منها إلى الشرق إلّا القليل، والله أعلم».

صوت: ويعنينا الآن منها كلها «كتابك الأغاني» قمة انتاجك الذي اشتهرت به ففيه زهاء أربعين ألف بيت من الشعر، فضلاً عن الأخبار، والأغاني التي كانت شائعة في عهدك والمرويات من السِيرَ وأيام العرب وقصص الملوك والمحبين والعشاق في الجاهلية والاسلام، وسائر ما يجعله، لا أهم مرجع للتاريخ الأدبي حتى القرن الثالث الهجري، بلْ أهم مصدر لتاريخ الحضارة، على حد تعبير المستشرق بروكلمان المتخصص الشهير.

أبو الفرج: في هذا المجال، أود أن أوضح أن هذا الضرب من التأليف لم يكن من مبتكراتي. إلّا أن كتابي كان أوفى ما وُضِعَ في هذا الباب من الكتب التي تدرس حياة العرب الاجتماعية والأدبية منذ الجاهلية حتى زمني، وقد قضيت في إعداده قرابة خمسين سنة.

صوت: واسمح لي أن أعود إلى رأي في كتابك هذا أورده ياقوت الرومي الذي يقول فيه:

- «لعمري ان هذا الكتاب لجليلُ القـدر، شائع الذِكر جمُّ الفوائد، عظيمُ العلم. ولا أعلمُ لأحدٍ أحسن من تصانيفه، أي تصانيفك، في فنها وحسن استيعاب ما يتصدّى لجمعه. وكتبْتُ منه نسخةً بخطي في عشرة مجلدات، ونقلتُ منه إلى كتـابي الموسـوم بأخبار الشعراء، فأكثرت».

أبو الفرج: ومع ذلك، فإن هذا الكتاب لم يسلم، على ما أعلم، من نقد الناقدين، ولعل سبب ذلك تشيعي...

صوت: وللأغاني فضل في أن كثيراً من الكتب التي نقلت عنها ودوِّنتَ فوائدها فيه ضاعت ولم يبقَ لها أثر، وفي أن حلقات الإسناد التي راعيت الأمانة في ذكرها تفتح آفاقاً جـديدة لـدرس طبقات رواة الأدب في ذلـك العصـر وصلاتهم الـواحد بـالآخر، وتخصصهم من حيث مواضيع أخبارهم وطرقهم في تـدوين الأخبار وروايتها.

أبو الفرج: ولا أبالغ إذا قلت اننا إذا استثنينا كتب الحديث فليس هناك كتابٌ أدبي حوى أسماء رواة أسانيد متصلة بمثل هذه الكثرة والدقة.

صوت: أما أثره في المؤلفات التي أتت بعده فلا يكاد يُحصر. ويكفي أن نشير هنا إلى كثرة ما نُقل عنه في بعض الكتب الشهيـرة ككتاب «المسـالك والأبصـار» لابن

فضل الله العمري، وكتاب «نهاية الأرب» للنويري، وكتاب «المُستَطْرف من كل فن مُستَظْرف» للإبشيهي، وكتاب «خزانة الأدب» للبغدادي، وكتاب «بدائع البدائه» لابن ظافر، و«مواسم الأدب» للبيتي، و«المُستَجاد من فِعْلات الأجواد» للتنوخي.

**أبو الفرج:** أشكرك على هذه الملاحظة الكريمة التي تثلج الصدر حقاً!

**صوت:** وفي نهاية هذا اللقاء نحب أن نسمع منك خبراً من الأخبار التي تزخر بها «أغانيك» بأسلوبك الخاص، وتصور عقلية العامة. فالعامة عامة في كل عصر، وهي لا تختلف عن عقلية العامة في زمننا. وكتاب «الأغاني» لم يقتصر على أخبار الملوك والخلفاء، وإنما نَزَلْتَ فيه إلى مستوى الشعب تراقب أخلاقه وعاداته وعقليته. أليس كذلك؟

**أبو الفرج:** أحسنت يا سيدي، فاسمع. أخبرني الحسن بن علي قال: حدثنا إبن مهرويه قال: حدثني عُثمان الورَّاق، قال: رأيت العتَّابي يأكل خبزاً على الطريق بباب الشام، فقلت له: ويحك أما تستحي؟ فقال لي: أرأيت لو كنا في دار فيها بقرٌ كُنْتَ تستحي وتحتشم أن تأكل وهي تراك؟ فقال: لا. قال: فاصبر حتى أعلِمَكَ أنهم بقر. فقام فوعظ وقصَّ ودعا حتى كَثُرَ الزحام عليه، ثم قال لهم:

روى لنا غيرُ واحد أنه من بلغ لسانُه أرنبة أنفِهِ لم يدخلِ النارَ، فما بقي واحد إلا وأخرج لسانَهُ يومىء

به أرنبةَ أنفهِ ويقدر حتى يبلغَها أم لا. فلما تفرَّقوا قال لي العَتّابي: ألم أخبرك أنهم بقر؟

صوت: شكراً، يا أبا الفرج، على هذا الخبر الذي قصدت من ورائه التدليل على أسلوبك الأدبي السلس العبارة البعيد عن التكلف والمُحَسِّنات البديعية التي كانت شائعة في زمانك، وشكراً أخيراً على هذا اللقاء الممتع حقاً، والجليل الفائدة أيضاً.

أبو الفرج: إسمح لي، يا سيدي، أن أبادلك الشكر لإتاحتك الفرصة لي للتعريف بنفسي وبكتابي «الأغاني»!

# بديع الزمان الهمذاني: رائد القصة العربية والمقالـة الصحفية

## (٩٦٨ ـ ١٠٠٧)

صوت: يعتبر القرن الـرابع الهجـري العصر الـذهبي للنثر العربي... فلقد كان للأدب في كل مصر مرتع، فلا تكاد تضيق مدينة بشاعر أو كاتب أو عالم حتى ينتقل إلى غيرها ليحلّ فيها عـلى الرحب والسّعـة. وعلى الرغم من أن الخلافة نُكبت في هذا القرن بمجدها وأبهتهـا وعزهـا، فأن هبـوط الخلافـة كان ارتفـاعاً للأدب!

ولقـاؤنا الآن مـع البديـع الذي يلقّبـه الدكتـور مصـطفى الشكعة بـرائد القصـة العـربيـة والمقـالـة الصحفية، ويقول بصدد مقاماته:

ـ «... لم يكن بـديع الـزمان الهمـذاني مجدداً، كاتب رسالة أنيقة في المدح والعتاب والهجاء والرثاء، بل كان رائداً مصلحاً ابتكر فن الصحافة بالقدر الذي سمحت بـه ظـروفـه المحـددة قبـل ألف عـام من الزمان... على أن فضله لم يقف عند هذا اللون الرفيع من الفكر والانشاء، بل أضاف إلى فن الكتابة العربية ثروة جديدة بما أنشأه من مقامات حاول فيها لأول مـرة في تاريـخ العربيـة أن يكتب القصة أو

الأقصوصة. وسواء وفِّق البديع في محاولته البكر أم لم يوفق، فالذي لا شك فيه أنه كان من الجرأة بحيث اقتحم ميداناً جديداً وابتكر فناً رفيعاً هو فن القصة الذي بلغ في كثير من مقاماته النجاحَ كاملاً، والتوفيق شاملاً...»

صوت: هذا التقييم كان لا بد منه، يا أبا الفضل، كمدخل للقائنا معك وحوارنا حول حياتك وشخصيتك وآثارك و...

بديع الزمان: حسناً... ماذا تود معرفته؟

صوت: لنبدأ باستعراض سيرتك... فأنت عربي الأصل، سكن أهلك ديار العجم، مثل الكثير من العرب الذي استوطنوا الأرض الاسلامية.

بديع الزمان: وأنا أتعصب للعرب على غيرهم كما قلت في رسالة إلى أبي الفضل الاسفرائيني «أني عبد الشيخ، وإسمي أحمد، وهمذان المولد، وتغلب المورد، ومضر المحتد...»

صوت: ... وأنت تنتصر للعرب أيضاً في رسالة إلى الشيخ الرئيس، أبي عامر، إذ تقول: «نحن أطال الله بقاء الشيخ إذا تحدّثنا في فضل العرب على العجم وعلى سائر الأمم، أردنا بالفضل ما أحاطت به الجدود، ولم ننكر أن تكون أمة أحسن من العرب ملابس، وأنعم منها مطاعم، وأكثر ذخائر، وأبسط ممالك، وأعمر مساكن...

بديع الزمان: «... ولكننا نقول العرب أوفى وأوفر،واوقى وأوقر، وأنكى وأنكر، وأعلى وأعلم، وأحلى وأحلم، وأقوى وأقوم، وأبلى وأبلغ، وأشجى وأشجع، وأسمى وأسمح، وأعطى وأعطف، وألطى وألطف، وأحصى وأحصف، وأنقى وآنق...»

صوت: ... إلى آخر هذه الرسالة التي شئت أن تجئينا فيها بضرب من ضروب الجناس يقوم على أفعل التفضيل... ولنعد إلى اعتزازك بعروبتك... وكنت سريع الغضب كثير النفور، تركت جرجان لخلاف بسيط بينك وبين صاحبها، وتركت نيسابور لخلاف خفيف مع أحد أفراد أسرة بني ميكال...

بديع الزمان: وكنت معتزاً بنفسي فخاطبته بقولي: «إن كنت لا تهاب سلطان العلم فاعلم أن سلطان العلم لا يهابك، وإن اتصلت بأسباب السماء أسبابك...»

صوت: وبسبب غفلة بسيطة من خلف بن أحمد في أحد مجالسه تثور عليه، وتنسى ما لقيت عنده من تكريم وإعزاز، غضباً لكرامتك وثأراً لعزّتك.

بديع الزمان: وهل في ذلك ما يدعو إلى الدهشة، يا سيدي، بعد أن اعترفت بما كنت عليه من الاعتزاز؟! أفلا تريد معرفة أصلي وفصلي؟

صوت: بكل تأكيد... هات ما عندك...

بديع الزمان: كنيتي أبو الفضل، ولقبي بديع الزمان، وإسمي أحمد بن الحسين، أبصرت النور في همذان سنة ٣٥٨ هجرية، وتوفيت في مدينة هراة بخراسان سنة ٣٩٨.

صوت: حسناً... أما لقب بديع الزمان فلا ندري كيف أحرزته. ولا نحسبه إلاّ من صنعك، أو من صنع الثعالبي صاحب« يتيمة الدهر »لكي تتم له السجعة حيث يقول:

- «هو بديع الزمان، ومعجزة همذان، ونادرة الفلك، وبكر عطارد، وفرد الدهر، وغرّة العصر، ومن لم يُدركْ قرينُهُ في طُرَف النثر ومِلَحِهِ، وغُررِ النظم ونكته، ولم يُرَ ولم يُروَ أن أحداً بلغ مبلغه من الأدب وسره، وجاء بمثل إعجازه وسحره، فانه كان صاحب عجائب، وبدائع وغرائب...»

بديع الزمان: ألا ترى معي أن صاحبنا الثعالبي يكيل المدح كيلاً، وأن عباراته تحتوي على كل شيء وتكاد تكون لا شيء؟!

صوت: أحسب أن مثل هذا الكلام أقرب إلى الهذر منه إلى الجدّ! ولنواصل حوارنا. فلقد كانت همذان ذات مكانة علمية وثقافية ونشاط أدبي، فنشأ فيها كثيرون من أعلام الفضل والأدب في القرن الرابع. وكان معلمك الأول أبا الحسين أحمد بن فارس. وفي الثانية والعشرين من عمرك غادرت بلدك، كما كان يغادرها كل أهل العلم والأدب في مستهل أعمارهم، فما هو السبب؟ وما السر في ذلك مع أن همذان يقال فيها: «أهلها أعذب الناس كلاماً، وأحسنهم خلقاً، وألطفهم طبعاً، ومن خاصيتها ألا يكون الانسان فيها حزيناً ولو كان ذا مصيبة»؟

بديع الزمان: إن سبب هجرتي وهجرة إخواني من أدباء العصر من الهمذانيين هو في الحقيقة سببان: فالأول رغبة طلّاب العلم والأدب بالتنقل من بلد إلى آخر للقاء مشاهير الأدباء والافادة من علمهم، والاتصال بالأمراء والوزراء والغَرْفِ من مِنَحِهم، وكانوا جميعاً يعقدون الندوات والمجالس الأدبية، ويتنافسون في جمع أكبر عدد من أدباء العصر وفضلائه.

صوت: وهكذا تصلت بالصاحب بنِ عَبَّاد لما بلغت أصبهان سنة ٣٨٠، وكان وزير بني بويه، فلزمت دار كتبه، وطُبِعْتَ على غرار مدرسته الأدبية، وتأثرت بأساليبها...

صوت: ولكنك يا سيدي، لم تعرف السبب الثاني للهجرة من همذان...

صوت: عفواً، يا شيخنا... فما هو؟

بديع الزمان: السبب الثاني هو همذان نفسها، فمناخها بارد وزمهريرها قارس، وتكثر فيها الثلوج على مدار السنة، والذين استطاعوا الرحيل عنها من رجال العلم والقلم هَجَوْها، فقال فيها بعض الشعراء:

«همذانُ متلفةُ النفوس ببردها
والزمهريرِ وحَرُّها مأمونُ
غلبَ الشتاءُ مصيفها وخريفَها
فكأنما تَموزُها كانونُ»

صوت: وأنت ألم تهجها؟

بديع الزمان: بلى، إسمع ما قلت فيها:

همــذان لي بــلد أقــول بــفــضــله
لــكــنــه مــن أقــبــح الــبــلدان
صبيــانــه في العقــل مثــل شيــوخــه
وشيــوخــه في العقــل كــالصبيــان

صوت: ومـا هو رأيـك بأصبهـان هذه المدينة التي جعلهـا الصاحب عاصمة لبني بويه؟

بديع الزمان: من حيث الناحية الطبيعية أصبهان مدينة جميلة، رائعة الحسن ببساتينها وقصورها وجـداولها ممـا أوحى إلى شعرائها أرق الشعر في وصف مفاتنها.. ومن الناحية العلمية والأدبية كانت تموج بـالشعراء والأدبـاء من أبنـائهـا والـوافـدين عليهـا. ولا عجب أن يجمع الصاحب في ندوته عدداً لا يحصى من أفاضل أهل العلم والقلم كـالسـلامي، وأبي بكـر الخـوارزمي، والجوهري، والجرجاني، وأبي العلاء الأسدي، وأبي دلف، وسواهم ممن لا تحضرني أسماؤهمْ الآن...

صوت: ويقال ان عددهم كان يربي عـلى شعراء الـرشيد. وكنت، يا أبا الفضل في جملة من انضم إلى ندوة الصـاحب، منارة أصبهـان وشعلتها المضيئـة، وقـد وهبت ذاكرة قوية، وحافظة نادرة، فكان لا يفلت من خـاطرك مـا يعلق به. ولعـلّ هذا مـا حمل بعض معاصريك على القول فيك:

ـ «انه كان ينشد القصيدة التي لم يسمعهـا قط،

وهي اكثر من خمسين بيتاً، فيحفظها كلها ويؤديها من أولها إلى آخرها لا يخرم منها حرفاً. وينظر في أربع أو خمس أوراق من كتاب لم يعرفه ولم يره نظرة واحدة ثم يمليها عن ظهر قلبه. وكان ربما كتب الكتاب المقترح عليه فيبتدىء بآخر سطوره، ثم هلّم جراً إلى أوله ويخرجه كأحسن شيء وأملحه».

صوت: ثم غادرت الصاحب وأصبهان متجهاً شمالاً إلى جرجان، وهي بلدة كان لها من العلم والفضل نصيب لا يُنكر. فخالطت علماءها وهم من الاسماعليين، فعشت بينهم مقتبساً من علومهم وفلسفتهم الباطنية.

بديع الزمان: غير أنني لم أطُلِ المُقامَ في جرجان فهجرتها لخلاف وقع بيني وبين أبي سعيد الاسماعيلي، واتجهت شرقاً إلى نيسابور التي دخلتها سنة ٣٨٢. وكانت أحسن مدن خراسان وأعظمها وأجمعها للخيرات. . .

صوت: فضلاً عن كونها مجمع العلماء وملتقى الفضلاء، بفضل وقوعها على أبواب الإقليم، يعرِّجُ عليها الأدباء والعلماء في تنقلاتهم بين المشرق والعراق. وكان لواء الرياسة في نيسابور معقوداً لاسرة بني ميكال.

بديع الزمان: وكان لمدينة نيسابور التي عطرتها المعرفة بنخبة فريدة من رجال الأدب والعلم أقاموا عليها مصابيح المعرفة مما جعلها غرة في جبين الدهر، عجائب تسمّى الإثنا عَشْرية. ومن هذه العجائب أنه كان بها إثنا عشر معدناً للفيروز والنحاس والمرمر وغير ذلك، وإثنا عشر

نهراً تنحدر من الجبال، وإثنا عشرة مائة قرية، وإثنا عشر ألف قناة تجري من إثني عشر ألف ينبوع...

صوت: إذن كانت تلك المدينة التي استهوتك وإليها ينتسب الأنوريُّ والخيَّامُ من شعراء الفرس الكبار وقد تغنى بسحرها الشعراء العرب والفرس وشبهوها بالجنة، على حد قول الأنوري:

ـ «حبذا مدينة نيسابور، إن يكن على ظهر الأرض جنة فهذه هي وإلا فلا!»

بديع الزمان: صحيح، وبخاصة أنه كان يعيش فيها في ذلك الوقت شيخ عصره في علوم اللغة والبلاغة وأيام العرب وأمثالها أبو بكر الخُوَارَزْمي، وكنتُ أتوق كثيراً إلى الاجتماع به لكثرة ما سمعت عنه وأعجبت كسائر الناس بأدبه من رسائل وشعر. فكتبت إليه رسالة أتيت فيها بفقرات من النثر أكملتها بأشطر من الشعر، وكنت مولعاً باقتباس الشعر في رسائلي إلى حد بعيد!

صوت: هلا أسمعتنا هذه الرسالة لنطلع على هذا النوع من الكتابة؟

بديع الزمان: إسمع ولاحظ شطر الشعر بعد العبارة النثرية:

«إنا لقرب الأستاذ أطال الله بقاه
كما طَرِبَ النشوان مالت به الخمرُ
ومن الارتياح للقائه
كما انتفض العصفور بلله القطرُ

ومـن الامـتـزاج بـولائـه
كـما التقت الصهبـاء والبـارد العَـذْبُ
ومـن الابـتـهـاج بمـرآه
كما اهتز تحت البارح الغُصُنُ الرَطْبُ

فكيف نشاط الأستاذ إلى صديق طوى إليه ما بين قصبتي العراق وخراسان، بل ما بين عتبتي نيسابور وجرجان، ألخ...»

صوت: المهم أنـك التقيت بـالخُـوَارزمي الـذي لم يحسن لقاءك...

بديع الزمان: ولم يعجبني منه تكبُرهُ وبخله، فصارحته برأيي فيه، وحدثت بيننا قطيعة وبغضاء، وراحت أسباب العداوة بيننا تقوى وتشتدُّ حتى استغلها البعض وباركوهـا، وهيأوا لنا مناظرة...

صوت: ... فاستعملت فيها كل ما وهبك الله من سرعة البديهة ونفاذ القريحة، وانهزم أمامك الخُوَارَزْمي. ولم يكن قـد مضى عليك في نيسـابور زهـاء سنة من الزمن. وبعدها لمع إسمك وطارت شهرتك، والتفَّ حولك الكثيـرون ممن فتنتهم بذكـائك وأدبـك... وتَحَلَّقَ حولك تلامذة عديدون...

بديع الزمان: ... فأمليتُ أربعمائـة مَقَامـة أغلبُها في الكـدية، اصطنعت فيها الأساليب المصنعة من سجع وتصوير لتصرف تلاميذ الخوارزمي عنه.

صوت: إسمح لي قبل أن نتحدث في فن المقامة أن أُشير إلى

أن الرسائل التي كتبتها كانت مقالات صحفية بليغة نعرفها نحن اليوم، ولم تكن معروفة في زمنك. فهي تعدّ مصدراً للحياة الاجتماعية والسياسية. وقد اهتممت كثيراً في موضوع الكتابة في الشؤون العامة التي تعتبر من خصائص شؤون الدولة.

بديع الزمان: أتدرجون مثل هذا النوع من الكتابة في باب المقالات الصحفية، يا سيدي؟ إن كل ما فعلته هو أنني عنيت بالكتابة موجهاً، وناقداً، ومشجعاً أحياناً.

صوت: وليت المجال كان يتسع لتلاوة بعض هذه الرسائل، ولكن حسبنا الاشارة إلى مواضيعها التي تؤكد صحة ما ذهبت إليه. فقد حدث أن قتل أحد الحكام فكتبت تستنكر الجريمة النكراء مطالباً بالاقتصاص من قاتله...

بديع الزمان: ومن هذا القبيل كتبت إلى الشيخ السيد العالم إبن أحمد أشكو من الضرائب المفروضة على أهل مدينة هراة، مصوراً الغلاء والمجاعة...

صوت: وهناك أيضاً رسالة في شأن أحد الحكام في هراة أيضاً وكان صدر أمر بنقله إلى جهة أخرى، فكتبت تزكيّه وتطلب استبقاءه.

بديع الزمان: وتظل الحالة على سوئها في هراة، فلا يتولاني اليأس، بل أروح أتابع حملتي الكتابية، وأوالي إرسال الرسائل إلى الحكام دونما كلل أو ملل...

صوت: ... مستهدفاً، بالطبع، من وراء ذلك كله ـ كما

قلنا ـ المصلحة العامة والخاصة على السواء. ونأتي، يا شيخنا الجليل إلى المقامة، وهي الفن الذي اشتهرت به، وقد ابتكرت فكرته، وأطلقت عليه هذا الاسم. فليس لابن فارس، ولا لابن دريد يد في صنعها. ونسج على منوالك كثير من الأدباء كالحريري وسواه، بعد أن راجت المقامات وظلت متّبعة حتى أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، فعالجها من عندنا، في لبنان، كل من نقولا الترك والشيخ ناصيف اليازجي الذي تحولت عنده المقامة إلى صناعة لفظية، وترك لنا أثراً جميلاً جليلاً ضخماً أسماه «مجمع البحرين». فهلّا عرّفت لنا المقامة، يا بديع الزمان؟

بديع الزمان: المقامة هي القصة التي تروى في مقام، أي مجلس. وكتابتها مسجّعة. ويغلب على كاتبها أن يتخذ راوية واحداً وبطلاً واحداً ينسب إليهما مقاماته كلها وحوادثها كلها. أما القاعدة في هذه الحوادث فان تكون مغامرات يأتيها بطل متشرد في سبيل الكدية، أي الكسب بالحيلة والشحاذة. ويعرف بطل المقامات بصاحب النشأة.

صوت: أما بطل مقاماتك البالغة ـ كما قيل ـ أربعمائة مقامة، والتي لم يصلنا منها سوى إثنتين وخمسين مقامة مطبوعة متداولة في أيدي القراء فهو أبو الفتح الاسكندري، وأما الراوية فاسمه عيسى بن هشام، وهو شخص من ابتكارك أيضاً. وكم كان بودي أن يطول هذا اللقاء الممتع حقاً، ولكن ما باليد حيلة، فأراني مضطراً إلى استئذانك بالانصراف بعد أن أشير إلى أن «فاتك

كانت في زهاء سنة ٣٩٨. وهناك رأيان في وفاتك، حسب قول إبن خلكان، أحدهما أنك قضيت مسموماً، والثاني، وهو ما يتفق عليه مؤرخون كثيرون. . .

بديع الزمان: . . . وما هو الثاني، فأنا لم أمت مسموماً!. . .

صوت: لقد أُصبتَ بغيبوبة فظنوا أنك متّ، فعجّلوا بدفنك ولكنك أفقت في قبرك، على ما يبدو، لأنهم سمعوا صوتك في الليل، فلما نبشوا عنك وجدوك ميتاً من هول القبر وقد أمسكت لحيتك بيدك. . .

بديع الزمان: يا للهول! ما هذا الذي أسمع؟. .

# إبن يونس: مخترع رقّاص الساعة
## (١٠٠٩ - ٠٠٠)

إبن يونس: أجمل نشر الطيب عند هبوبه
رسالة مشتاق لوجه حبيبه
بنفسي من تحيا النفوس بقربه
ومن طابت الدنيا به وبطيبه
لعمري قد عطّلت كأسي بعده
وغيّبتها عني لطول مغيبه
وجدّد وجدي طائف منه في الكرى
سرى موهناً في خفية من رقيبه

صوت: ليت كان المجال يتسع أمامنا، يا أبا الحسن، لسماع مزيد من شعرك الرقيق لأنك عُرفت شاعراً، واشتهرت عالماً رياضياً وفلكياً، وإليك ينسب اختراع الربع المثقوب والرقّاص، أو «بندول» الساعة، كما نسميه نحن اليوم.

إبن يونس: إذن فسيكون حديثنا في ميدان العلم، كما أحسب، فماذا تود معرفته، يا سيدي؟

صوت: يقول عنك المؤرخ المعاصر الدكتور سارتون في كتابه «مقدمة لتاريخ العلوم»:

ـ «إبن يونس من فحول علماء القرن الحادي عشر للميلاد. وقد يكون أعظم فلكي ظهر في مصر...»

غير أني قبل البدء باستعراض سيرتك للتعرّف إليك وإلى آثارك ومنجزاتك العلمية الجليلة، سأعرفك على إبن يونس آخر حصل التباس بينك وبينه لدى تحدّث علماء الغرب عن اختراع الرقاص الذي ذكرنا.

إبن يونس: ماذا تقول؟ وهل من إبن يونس آخر لا أعرفه؟...

صوت: أجل، يا أبا الحسن، هناك إبن يونس آخر لا تعرفه لسبب بسيط جداً وهو أنه عاش بعدك بحوالي قرنين من الزمن. واسمه الكامل أبو الفتح كمال الدين موسى بن أبي الفضل يونس بن محمد بن منعه... وقد ولد في الموصل سنة ٥٥١ للهجرة. وفيها توفي سنة ٦٣٩...

إبن يونس: ... إذن فهو إبن يونس الموصلي، وأنا إبن يونس المصري. اكمل، بربك، فكم يسرّني التعرّف إلى إبن يونس هذا.

صوت: تلقى العلم في المدرسة النظامية ببغداد، ثم عاد إلى الموصل حيث واصل التحصيل والنظم والتعمق في البحث والانتقال من علم إلى علم وقد كتب عنه إبن خلكان في كتابه «وفيات الأعيان»، وقد عرفه شخصياً، يقول من ترجمة طويلة خصّه بها:

ـ «... وكان الفقهاء يقولون انه يدري أربعة وعشرين فناً دراية متقنة. فمن ذلك المذهب، فكان

فيه أوحد الزمان... وكان يدري في الحكمة، والمنطق، والطبيعي، والالهي، وكذلك الطب. ويعرف فنون الرياضة من اقليدس، والهيئة، والمخروطات، والمتوسطات، والمجسطي، وأنواع الحساب المفتوح منه، والجبر والمقابلة، والارثماطيقي، وطريق الخطأين، والموسيقى، والمساحة، معرفة لا يشاركه فيها أحد...»

إبن يونس: يبدو لي أن اشتغاله بالعلوم التي ذكرت هي التي تسببت بالالتباس بين أسمينا، أليس كذلك؟

صوت: ذلك هو السبب بالطبع، يا أبا الحسن... فدعني أكمل لك ترجمته التي أوردها إبن خلكان الذي يقول:

-«... واستخرج في علم الأوفاق طرقاً لم يهتد إليها أحد. وكان يبحث في العربية، والتصريف، بحثاً تاماً مستوفياً... وكان له في التفسير، والحديث، وما يتعلق به، وأسماء الرجال يد جيدة. وكان يحفظ من التواريخ، وأيام العرب ووقائعهم، والأشعار والمحاضرات شيئاً كثيراً... وكان في كل فن من هذه الفنون كأنه لا يعرف سواه لقوته فيه».

وكان إبن يونس هذا من الشهرة بحيث غلبت شهرته شهرة مدرسة الموصل التي كان يدرّس فيها بعد وفاة أخيه عماد الدين، فسميت «المدرسة الكمالية» نسبة إليه. وتولّى من ثم المدرسة القاهرية، والمدرسة البدرية. ويقال انه اتهم في دينه.

ـ «لكون العلوم العقلية غالبة عليه وكانت تعتريه غفلة في بعض الأحيان لاستيلاء الفكرة عليه، بسبب هذه العلوم».

هذا ما يذكره إبن خلكان. . . فلنعد إلى سيرتك، يا أبا الحسن.

إبن يونس: لك، يا سيدي، وافر الشكر على هذه المعلومات عن إبن يونس الآخر. أما أنا فاسمي الكامل أبو الحسن عليّ بن أبي سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس بن عبد الأعلى، الصدفي، المصري، وقد ولدت فيها وتوفيت في الثالث من شوال من السنة ٣٩٩ للهجرة.

صوت: وقد اشتهرت أسرتك بالعلم، فأبوك عبد الرحمن بن يونس كان محدّث مصر ومؤرخها، وأحد العلماء المشهورين فيها.

إبن يونس: وجدي الأعلى يونس بن عبد الأعلى كان صاحب الامام الشافعي ومن المتـ[illegible]ـصين بعلم النجوم.

صوت: ومن هنا كان اهتمامك بعلم النجوم، إلى جانب ولعك بالأدب والشعر. وقد اختصصت بصحبة الحاكم، إبن العزيز الفاطمي. وقد قدّر الخلفاء الفاطميون علمك ونبوغك، فشجعوك على متابعة بحوثك في علم الهيئة والرياضيات.

إبن يونس: وأجزلوا لي العطاء، وبنوا لي مرصداً على جبل المقطم، قرب الفسطاط، جهّز بالآلات والأدوات اللازمة للرصد.

صوت: وأمرك العزيز الفاطمي، أبو الحاكم، أن تصنع زيجاً فبدأته في آخر أيامه واتممته في عهد إبنه الحاكم. . . .

إبن يونس: . . . ولذا أسميته «الزيج الحاكمي»، وهو زيج، أسمح لنفسي بأن أقول انه قام مقام المجسطي والرسائل التي ألفها علماء بغداد سابقاً. وكان قصدي من هذا الزيج أن أتحقق من صحة أرصاد الذين تقدموني وأقوالهم في الثوابت الفلكية، وأن أكمل ما فاتهم. . .

صوت: . . . وأن تضع ذلك في مجلد كبير جامع يدلّ على أن صاحبه هو أعلم الناس بالحساب والتسيير. . . ومن هنا كان وصف إبن خلكان له بقوله:

ـ «وهو زيج كبير رأيته في أربعة مجلدات، ولم أر في الأزياج، على كثرتها، أطول منه. .»

وأنقل إليك ما يقوله «سوتر» في «دائرة المعارف الاسلامية» لدى الكلام عليك وعلى زيجك هذا بعد أن يعترف بأنك أفدت فيه فائدة كبيرة:

ـ «من المؤسف حقاً أنه لم يصل إلينا كاملاً، وقد نشر وترجم كوسان دو برسفال بعض فصول هذا الزيج التي فيها أرصاد الفلكيين القدماء وأرصاد إبن يونس نفسه عن الخسوف والكسوف واقتران الكواكب».

إبن يونس: ومتى تم ذلك، يا سيدي، وأين، ومن هو كوسان

دو برسفال الذي ترجم «الزيج الحاكمي»؟ ولماذا نشر وترجم بعض فصوله؟

صوت: كوسان هذا عالم فرنسي واسع الاطلاع ويتقن العربية، وقد ترجم المخطوطة التي كانت محفوظة من زيجك في مكتبة جامعة لايدن، بهولندا، وقد أعارتها الحكومة في حينه إلى معهد فرنسا. وهكذا نشر هذا الزيج في باريس سنة ١٨٠٤ ميلادية. أما لماذا نشر بعض فصوله، وعددها إثنان وعشرون، فلأن القسم الأكبر منه فقد بسبب الدمار الذي لحق بالقاهرة لدى حصارها في القرون الوسطى واقتحامها من قبل الغزاة. فعلام كان يشتمل زيجك، يا أبا الحسن؟

إبن يونس: كان يشتمل على مقدمة طويلة وواحد وثمانين فصلاً، وقد ذكرت في المقدمة موضوع كل فصل من هذه الفصول...

صوت: وقد جمعت في مقدمة زيجك كل الآيات المتعلقة بأمور السماء، ورتبتها ترتيباً جميلاً بحسب مواضيعها.

إبن يونس: صحيح، فقد كنت أرى أن أفضل الطرق إلى معرفة الله تعالى هو التفكير في خلق السموات والأرض وعجائب المخلوقات، وما أودعت من حكمة. وبذلك يشرف الناظر على عظيم قدرة الله عز وجل، وتتجلّى له عظمته، وسعة حكمته، وجليل قدرته.

صوت: وقد سردت في زيجك الحاكمي الطريقة التي اتبعها بعض فلكيي المأمون في قياس محيط الأرض.

وانت، يا سيدي، من أصلح زيج يحيى بن أبي منصور، وعلى هذا الاصلاح كان تعويل أهل مصر في تقويم الكواكب في القرن الخامس للهجرة. ونذكر من آثارك في هذا المجال فضلاً عما سبق الالماح إليه، «غاية الانتفاع في معرفة الدوائر والسمت من قبل الارتفاع»، و«التعديل المحكم»، و«جداول السمت»، و«جداول في الشمس والقمر».

إبن يونس: ولي كذلك فصول في الطول والعرض لبعض المدن في البلاد الجبلية... وقد رصدت كسوف الشمس وخسوف القمر في القاهرة حوالي العام ٩٨٧ للهجرة، وأثبت منها تزايد حركة القمر وحسبت ميل دائرة البروج...

صوت: ... فجاء حسابك أقرب ما عُرف إلى أن اتقنت الآت الرصد الحديثة.

إبن يونس: يسرني أن أعلـ ذلك الآن.

صوت: وبرعت في علم المثلثات واجدت كثيراً، حتى أن بحوثك في هذا الميدان تعتبر أفضل من بحوث علماء رياضيين كثيرين، ولها قيمة كبرى في تقدّم هذا العلم.

إبن يونس: وقد حللت أعمالاً صعبة في المثلثات الكروية، واستعنت في حلها بالمسقط العمودي، للكرة السماوية على كل من المستوى الأفقي ومستوى الزوال.

صوت: وقبل أن ننتقل إلى الحديث عن اختراعك رقّاص

الساعة، لنستمع إلى ما يقوله العالم الفرنسي سيديوحول استعمال الخطوط المماسة في مساحة المثلثات في زمنك:

ـ «... ولبث إبن يونس يستعمل من سنة ٩٧٩ ميلادية إلى سنة ١٠٠٨، أظلالاً، أي خطوطاً مماسة، واظلال تمام حسب بها جداول تعرف بالجداول الستينية. واخترع حساب الأقواس التي تسهل قوانين التقويم وتريح من كثرة استخراج الجذور التربيعية...»

صوت: ونهي لقاءنا، بالقول ان العرب سبقوا العالم الايطالي غاليليو بستة قرون إلى اختراع الرقّاص، وفي استعماله في الساعات الدقاقة، وفي استخراج علاقته بالزمن. وفضلاً عن ذلك كان لديهم فكرة عن قانون الرقاص ـ أو ما يعرف اليوم بقانون مدة الذبذبة. وكان الذي اخترع الرقّاص هذا الفلكي المصري إبن يونس الذي يقول عنه العالم الفرنسي سيديو:

ـ «... وكذا إبن يونس المقتفي في سيره أبا الوفاء البوزجاني، الّف في رصدخانته في جبل المقطّم، «الزيج الحاكمي» ، واخترع الربع ذا الثقب وبندول الساعة الدّقاقة...»

إبن يونس: لهذا العالم جزيل الشكر، يا سيدي، لأنه أعاد الحق إلى نصابه، والفضل إلى أهله وذويه، أولاً، وإليك ثانياً، لأنك تفضلت بتقديم كل هذه المعلومات التي وردت في لقائنا.

## أبو حيّان التوحيدي: فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة

(حوالي ٩٢٤ - ١٠١٢)

صوت: بعد قليل سنجتمع بشخصية فذة في تاريخ الأدب والفكر. إنه أبو حيّان التوحيدي الذي وصفه المؤرخ ياقوت الرومي في كتابه «معجم الأدباء» بقوله:

- «فيلسوف الأدباء، وأديب الفلاسفة، فرد الدنيا الذي لا نظير له ذكاء، وفطنة، وفصاحة، ومكنة».

أبو حيان التوحيدي الذي أحرق كتبه ليضن بها على الناس، ولولا ما كان بأيدي الناس من سائرها لما وصل إلينا منها سوى إسمه المسكين. عاش محروماً في الدنيا، ولكنه لن يحشر محروماً في الآخرة، بإذن الله.

كان يقف بدكاكين الوارقين في سوق الكرخ ببغداد. القلم بيده، ويده ملطخة بالسواد من المداد. يكسب عيشه ويأكل خبزه من صناعة النسخ... نسخ الكتب بخطه الجميل، حتى تتقرح أصابعه على أقلامه، وتفرغ دواته من المداد، فيجيء بيته في المساء برغيفين وقطعة من لحم سيّء يأتدم بشوائها...

وكان من أهل التآليف الخالدة، ولعل أشهر كتبه هي: «مثالب الوزيرين» و«الامتاع والمؤانسة»،

و «بصائر القدماء وسرائر الحكماء»، وثلاث رسائل قيّمة.

والآن تعالوا نستعرض مع أبي حيّان :نفسه حياته ونكبته في الفكر وفي الحظ معاً...

أبو حيان: ليس أحب إليّ من ذلك، فلعلي أنفّس عن كربتي.

صوت: أنت نفسك لا يسعك أن تجزم في تاريخ ولادتك ومكانه. ولكن إذا استوعبنا كل ما كتب عنك وقيل أمكننا القول انك أبصرت نور الحياة في بغداد حوالي سنة ٣١٠ للهجرة، من أبوين فقيرين.

أبو حيان: كان أبي يبيع نوعاً من التمر يقال له التوحيد، ومن هنا جاءت كنيتي.

صوت: ويستنتج تاريخ ولادتك - وهو سنة ٣١٠ هجرية - من قولك في كتابك «المقابسات» الذي ألفته سنة ٤٠٠ للهجرة - وكان عمرك إذ ذاك خمسين سنة: «وما يرجو المرء بعد الالتفات إلى خمسين حجة، وقد أضاع أكثرها، وقصّر في باقيها؟»

أبو حيان: أحسنت!

صوت: صرفت الشطر الأكبر من حياتك في بغداد حيث درست النحو على أبي سعيد السيرافي الذي شملت معرفته سائر العلوم والمعارف والآراء في عصره، وقد شارك فيها جميعاً مشاركة فعالة، مما جعل شهرته تتعدى بغداد إلى أطراف الدنيا.

أبو حيان: الحقيقة ينبغي أن تقال: فأبو سعيد كان في نظري

«عالم العالم، وشيخ الدنيا، ومقنع أهل الأرض» وقد علّمني في سن مبكرة أسرار علم التصوف. . .

صوت: . . . حتى صرت شيخاً في الصوفية، على حد قول ياقوت الرومي. وقد أثر فيك السيرافي تأثيراً عميقاً حتى قيل انك مدين له بنشأتك العلمية وتهذيبك الروحي. وأننا لنجد هذا التأثير أوضح ما يكون في نزعتي التقشف والتوكل اللتين تعدان من أسس المثل الصوفية. ولن نطيل الوقوف عند هذه الناحية من حياتك، بل نقول بإيجاز انك اتصلت بأكبر علماء عصرك ومفكري زمانك، فاكتسبت ثقافة موسوعية يبرز أثرها في ما وصل إلينا من آثارك. . .

أبو حيان: على قلتها، كما ذكرت في المقدمة، يا سيدي، إذ ان ما وصل إليكم منها هو ما لم يذهب طعمة النيران. . .

صوت: إسمح لي يا سيدي، أن ألقبك بالأديب الموسوعي لأنك تمثل أرقى ما وصلت إليه ثقافة الأديب في عصرك. فقد شاركت بمختلف أنواعها دون أن تتوغل في إحداها، فكانت لك مزية التعبير عن عصر ازدهر فيه الفكر، ونضجت العقلية العربية، وارتقى الفن الكتابي فأنجبك، وأنجب أمثالك ممن تعدّ كتبهم من روائع الأدب العربي. ولا يسعني في هذا المجال إلا أن أذكر لك أن المستشرق الانكليزي الأستاذ «غِبْ» يضعك في تاريخ النثر الفني العربي إلى جانب الجاحظ.

أبو حيان: شكراً لك وله، ولا غرو، فقد كان للجاحظ أكبر الأثر في توجيهي في حياتي الأدبية والفكرية. وليس أدل على التأثير من تشابه أسلوبينا في الكتابة وطريقتنا في التأليف... لقد كنت أقول «الجاحظ واحد الدنيا». وكنت أتوفر على مطالعة آثاره وأُكثر من ذلك، وأُعنى بكتاب الحيوان، وتصحيحه. وقد بلغ من إعجابي به أن ألفت رسالة اسميتها «تقريظ الجاحظ».

صوت: هلّا أسمعتنا ما جاء فيها؟

أبو حيان: «... والذي أقول وأعتقد وآخذ به، واسهم عليه، أني لم أجد في جميع من تقدّم وتأخّر ثلاثة لو اجتمع الثقلان على تقريظهم ومدحهم، ونثر فضائلهم، في أخلاقهم وعلمهم ومصنّفاتهم ورسائلهم مدى الدنيا إلى أن يأذن الله بزوالها، لما بلغوا آخر ما يستحقه كل واحد منهم، أحدهم هذا الشيخ الذي أنشأنا له هذه الرسالة، وبسببه جشمنا هذه الكلفة، أعني أبا عثمان عمر بن بحر».

صوت: قبل أن نعود إلى قصة نكبتك في الفكر والحظ، دعنا نستمع إلى بعض آرائك وأقوالك الحكيمة التي تبرز لنا مكانتك الفكرية، وتبرز احتلالك مكانك البارز في تاريخ النثر الفني.

أبو حيان: إليك بعضاً من تلك الأقوال: حب الدنيا يُعمي ويصمّ. ما تعاظم أحد على من دونه، إلا بقدر ما تصاغر لمن فوقه. الدنيا والآخرة ضرتان، متى أرضيت

أحداهما سخطت الأخرى، ومتى أسخطت إحداهما أرضيت الأخرى.

صوت: رائع، يا شيخنا هذا التشبيه.

أبو حيان: أعرف قدرك تسلم، والزم حدك تأمن. صواب الجاهل يستحسن، كما يستقبح خطأ العاقل. المستعين أحزم من المستبد، ومن تفرّد لم يكمل، ومن شاور لم ينقص. ان التواضع للحق رفعة، والترفع بالباطل ضعة.

صوت: يا للبيان الساحر، والحكمة العميقة! وكم كان بودنا أن نسترسل أطول من ذلك، ولكن المجال يضيق بنا وأمامنا الكثير مما ينبغي لنا استعراضه في هذا اللقاء الخاطف.

أبو حيان: لك ما تريد.

صوت: في جملة كتبك الخالدة واحد بعنوان «مثالب الوزيرين». فمن هما هذان الوزيران؟

أبو حيّان: هما إبن العميد، والصاحب بن عبّاد.

صوت: وفيمَ ألّفت هذا الكتاب بذمهما وتتبع معائبهما؟

أبو حيان: حين اشتد بي هزال الحظ وألحّ علي الفقر، حدثتني نفسي أن أنتجع أديباً كبيراً من الفرس في زمنه وكان وزيراً لآل بويه حكام فارس والعراق في أواسط القرن الرابع للهجرة. وكان الصاحب بن عبّاد بخيلاً على الموهوبين، حاسداً للملهمين، يبطن المناكر لوراد كرمه، فيردهم عن حماه محرومين مدحورين.

صوت: حسنا، فما كانت قصتك معه ؟

أبو حيّان: جئته مسترفداً، وكان يعرف فضلي ويحسدني، ويتمنى أن أجيئه ليردّني في أكبر خيبة. فمنعني من لقائه أياماً، ووقفني ببابه طويلاً حتى كدت أعود على أعقابي. وبعد أيام أذن لي بالدخول والمثول، وحين هممت أن أجيبه بقطعة من نثري ديباجتها من أشرف الكلام وأعلى النظام، قاطعني وقال لي ـ وقد تناول من جانبه مخطوطة ضخمة وطرحها لي:

«إنسخ هذه...»

ـ «فقلت له: «يا سيدي الوزير، ما انتجعتك خافقاً إليك أباطر الابل لكي أنسخ لديك مخطوطة، فإن صناعة الوراقة موفورة لي ببغداد، وأنما انتجعتك لألازمك وأؤلف الكتب بذكرك ومحامدك.» فأجابني: «قلت لك إنسخ هذه».

«فتناولت المخطوطة الضخمة ولبثت أياماً جالساً القرفصاء، أنسخ المخطوطة بخطي المطرز البديع. فمرّ بي الصاحب بن عبّاد متثاقلاً، فنهضت له محيياً، فالتفت إليّ وقال لي زاجراً: «أقعد، مثلك لا يقوم لمثلنا...»

صوت: وهكذا كسرك، وحطم رفدك، فانقلبت من عنده غضباناً، آسفاً، محروماً، وألّفت فيه كتابك في المثالب، ففضحت عواره، وخلدته في زمر الظالمين. ولا ننسَ هنا بيتي الشعر اللذين قالهما الشاعر الهاجي بالصاحب بن عبّاد:

لا تمـدحنَّ ابن عبَّاد وإن هـطلت
بـالجـود كفـاه حتى أخجـل الـديما
فـانها خـطرات مـن وسـاوسـه
يعـطي ويمنـح لا جـودا ولا كـرمـا

صوت: وكتاب «الامتاع والمؤانسة» هو من أهم كتبك وأجلّها خطراً. فهلّا حدثتنا عنه؟

أبو حيان: إنه كتاب يتضمن أحاديث شتى سامرت بها الوزير البويهي إبن العارض. وقد قسمته الى أربعين ليلة على غرار ألف ليلة وليلة، مع فارق كبير، وهو أن مواضيع الامتاع فيه عقيلة وواقعية. ذلك بأن إبن العارض كان يقترح بعض المسائل الأدبية واللغوية والفلسفية أو العلمية، تكون على الغالب بنت ساعتها، أو مما كان يدور ببال الوزير.

صوت: ولكن الامتاع والمؤانسة لم يغنيا عن هذا الكتاب، إذ ان الوزير إبن العارض كان يطلب في نهاية كل جلسة ليلية ملحة الوداع، وهي عادة أبيات شعرية، أو حكمة مأثورة، أو عظة خلقية. وهو على أيّ حال مصدر قيّم لدراسة أدبك، والحياة الفكرية والاجتماعية زمن بني بويه. ولا نجد أبلغ من عبارة القفطي في وصفه، إذ قال:

ـ «هو كتاب ممتع على الحقيقة لمن له مشاركة في فنون العلم، فانه خاض كل بحر، وغاص كل لجّة».

وهلّا حدثتنا، الآن، عن كتاب «المقابسات»؟

أبو حيان: هذا الكتاب يحتوي على مئة وست مقابسات تختلف

طولاً وقصراً، وتبحث كل واحدة منها في موضـوع مستقـل. وهو عبـارة عن محاضـرات سريعـة متقـطعـة للجلسـات التي كان يعقـدهـا جمـاعـة من العلماء، وفي طليعتهم يحيى بن عـدي النصـراني، وأبـو سليمـان السجستاني المنطقي.

صوت: وأين كانت تعقد هذه الجلسات؟

أبو حيان: كانت تعقد في أماكن متعددة، فامّا في دار الوزير إبن العارض، وإما في سوق الورّاقين في البصرة، وإما في دور تلامذة السجستاني نفسه. وكان يحضرها جماعات من مختلف الأجناس والمشارب والملل والنحل، وبينهم الفـلاسفة، والأطبـاء، والريـاضيـون، والفلكيـون، والمؤرخون، والشعراء والأدباء، وأرباب الجـدل ممن وفدوا سعياً وراء الاستزادة من المعرفة والعِلم. وكانت المسائل تتصل في غالبيتها بالفلسفة والتصوّف.

صوت: ومع ذلك فإن الأبحاث الأدبية لم تعدَم مكـانها في كتاب «المقابسات»، ففيه نجد أبحاثاً وآراء طريفة عن التـأليف، والمقارنـة بين الشعـر والنثر، وتعـريفات للبلاغة، فضلاً عن إيراد موضوعات لها صلة بالوقائع اليومية التي كانت تثير في حينها الخواطر، والبحث في طـرق مجديـة لتربيـة النحل، ومـا شابـه ذلك من موضوعات...

أبو حيان: أحسنت...

صوت: ومما لا شك فيه أن ما بقي من آثارك التي نجت من

الحرق، وما اكتشف منها في الآونة الأخيرة، يدل دلالة واضحة على حياة فكرية خصبة وفعالية وفيرة في التأليف. ومن الرسائل التوحيدية التي لم تنشر قط، أو التي لم تحظ بنشر مستقل ثلاث رسائل. فهل لك أن تذكر لنا هذه الرسائل؟

أبو حيان: ولم لا؟ فهناك رسالة السقيفة، ورسالة في علم الكتابة، ورسالة الحياة. وكل واحدة من هذه الرسائل تساعد على تفهّم القضايا العقلية والتيارات الفكرية التي تأثرت بها في عصري أو شاركت فيها...

صوت: ... كما تكشف ناحية من نواحي فعاليتك الفكرية والفنية. ويعنينا في هذا المجال الإلمام برسالتك في علم الكتابة. فما هي، وهل لنا أن نسمع بعضاً مما تتضمن؟ فهي تعتبر من أقدم ما نشر عن الخطوط العربية وقواعدها وأنواعها.

أبو حيان: في هذه الرسالة أثبت بحكم مهنته الوراقة التي زاولتها سعة إطلاعي ومعرفتي بالخطوط وأنواعها ودقائق صنعة الخط مما وعيته من سادة هذا الشأن كبراء هذه الصناعة، فقد قال بعض السلف: «الخط الحسن يزيد الحق وضوحاً».

- وقال عمر بن الخطاب: «أحسن الخط أبينه، وأبين الخط أحسنه».

- وقال عباس: «الخط لسان اليد، والبلاغة لسان العقل، والعقل لسان المحاسن، والمحاسن كمال الانسان».

صوت: أحسنت، أيها الشيخ... ألا أسمعتنا شيئاً عن القلم، مما ورد في رسالة علم الكتابة.

أبو حيان: قال أبو دلف العجلي: «القلم صائغ الكلام، يفرغ ما يجمعه القلب ويصوغ ما يسكبه اللب».

ـ وقال عليّ بن عبيدة: «القلم أصم ولكنه يسمع النجوى، وأبكم ولكنه يفصح عن الفحوى، وهو أعيا من باقل، ولكنه أفصح وأبلغ من سحبان وائل، يترجم عن الشاهد ويخبر عن الغائب».

وأخيراً قال عبد الحميد الكاتب: «القلم شجر ثمرته اللفظ والفكر، بحر لؤلؤه، الحكمة والبلاغة، منهل فيه ريّ العقول الظامئة. والخط حديقة زهرتها الفوائد البالغة».

صوت: رائع، والله، أيها الشيخ الجليل، ولولا خشية الاطالة لاستزدناك من القول. كان الناس في العصر العباسي يعرّفون الأديب بقولهم: «هو الآخذ من كل شيء بطرف». ويقول إبن قتيبة: «من أراد أن يكون عالماً فليطلب فناً واحداً، ومن أراد أن يكون أديباً فليتسع في العلوم».

وفي عصرنا الحاضر يتحدث إبراهيم الكيلاني عن مكانة التوحيدي في الأدب العربي فيقول:

ـ «... فالتوحيدي لم يكن عالماً بكل ما في الكلمة من معنى شامل، ولم يكن كذلك فيلسوفاً لأنه يستحيل علينا ـ على الرغم مما عرف عنه من ميل

للجـدل والبحث، أن نستنتج من آثـاره فلسفة أو مذهباً، بل هو، كما يقول ماكس مايرهوف: «أديب ونحوي وفقيه متكلم، أكثر منه فيلسوفاً». فالتوحيدي إذاً أديب موسوعي يمثّل أرقى ما وصلت إليه ثقافة الأديب في عصره، فقد شارك بأنواعها دون أن يتوغل في إحداها، فكانت له مزية التعبير عن عصر ازدهر فيه الفكر، ونضجت فيه العقلية العـربية، وارتقى الفن الكتابي، فأنجب أمثال التوحيدي الذي تعدّ كتبه من روائع الأدب العربي».

# ابن سينا: شيخ الاطباء والفلاسفة

(٩٨٠ - ١٠٣٧)

صوت: لن اطيل في التقديم لهذا العالم الكبير من اعلام الفكر والعلم في التاريخ قاطبة فسنعمد في حوارنا الى القاء اضواء ساطعة ، ولو قليلة ، على مختلف جوانب شخصيته العلمية ذات الأثر المتواصل ، في الفلسفة ، والطب . والعلم الا انه لابد من ذكر بعض الالقاب التي عرف بها واكسبته تقدير معاصريه ومترجمي حياته. فهو: حجة الحق، شرف الملك، الشيخ الرئيس الحكيم، الوزير، الدستور، ابو علي الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا .

ابن سينا : كفى، يا سيدي، وشكرا على هذا التقديم.

صوت: دعنا نلم قليلا بالناحية التاريخية من سيرتك، فأنت من مفكري العرب القلة الذين دوّنوا سيرة حياتهم بنفسهم.

ابن سينا: باشرت كتابة سيرتي بنفسي، واتمها من بعدي تلميذي المخلص الامين ابو عبيد الجوزجاني ـ وقد عاشرني خمسة وعشرين عاما.

صوت: كلنا آذان صاغية . . .

ابن سينا: كان والدي رجلاً من بَلْخ، وهي مدينة مشهورة بخراسان، من اجلّها واشهرها ذكرا واكثرها خيرا، وانتقل منها الى بخارى في ايام الامير نوح بن منصور. واشتغل بالتصرف، اي تولى العمل في دوائر المالية، وذلك في قرية من ضياع بخارى يقال لها خرميشن، وهي من امهات القرى في تلك الناحية وبقربها قرية يقال لها افشنة، فتزوج ابي منها بوالدتي واسمها ستارة. وولدتُ أنا فيها في شهر صفر من سنة ٧٣٠ هجرية ( الموافق آب ٩٨٠ الميلادية ) . ثم ولد أخي. وانتقلنا بعد ذلك الى بخارى، واحضر لي معلم القرآن ومعلم الأدب، واكملت العشر من العمر وقد اتيت على القرآن وعلى كثير من الأدب حتى كان يقضي مني العجب .

صوت : ثم وصل الى بخارى ابوعبدالله الناتلي وكان يدعى المتفلسف، فأنزله ابوك في داركم رجاء تعلّمك منه.

ابن سينا: وكنت قبل قدومه اشتغل بالفقه والتردد فيه على اسماعيل الزاهد، وكنت من اجود السائلين، وقد الفت طرق المطالبة ووجوه الاعتراض على المجيب، على الوجه الذي جرت عادة القوم به. وقرأت ظواهر المنطق على الناتلي، واما دقائقه فلم يكن عنده منها خبرة. ثم اخذت اقرأ الكتب على نفسي، واطالع الشروح، حتى احكمت علم المنطق. فأما كتاب اقليدس فاني قرأت عليه من اوله خمسة اشكال او ستة، ثم توليت بنفسي حلّ بقية الكتاب بأجمعه ثم انتقلت الى المجسطي. وفارقني الناتلي . . .

صوت : فماذا فعلت ؟ وكم كانت سنك في تلك الفترة ؟

ابن سينا: كنت اذ ذاك في السادسة عشر، ورغبت في علم الطب، وصرت اقرأ الكتب المصنفة فيه. وتعهدت المرضى فانفتح عليّ من ابواب المعالجات المقتبسة من التجربة ما لا يوصف. ثم توفرت على القراءة سنة ونصفا، وكلما كنت أتحيّر في مسئلة، او لم اكن اظفر بالحدّ الاوسط في قياس ترددت الى الصلاة ، وابتهلت الى مبدع الكل حتى فتح لي المغلق والمتعسر. وكنت ارجع بالليل الى داري، وأضع السراج بين يدي واشتغل بالقرءة والكتابة. فما غلبني النوم او شعرت بضعف عدلت الى شرب قدح من الشراب ريثما تعود اليّ قوتي. ثم ارجع الى القراءة، ومتى اخذني ادنى نوم احلم بتلك المسائل .

صوت: حسنا . . . دعنا نتابع سيرة حياتك .

ابن سينا : ولم ازل كذلك حتى احكمت علم المنطق والطبيعي والرياضي. ثم عدت الى العلم الالهي، وقرأت كتاب ما بعد الطبيعة فما كنت افهم ما فيه، والتبس عليّ غرض واضعه. حتى اعدت قرأته اربعين مرة، وصار محفوظا لي وانا مع ذلك لا افهمه .

صوت: وماذا فعلت ؟

ابن سينا: واذا انا يوما حضرت وقت العصر في سوق الوراقين وبيد دلّال مجلد ينادي عليه. فعرضه عليّ فرددته ردّ متبرّم، معتقد ان لا فائدة في هذا العلم. فقال لي :

اشتر مني هذا، فانه رخيص ابيعكه بثلاث دراهم، وصاحبه محتاج الى ثمنه.

فاشتريته، فاذا هو كتاب لأبي نصر الفارابي في اغراض كتاب ما بعد الطبيعة. فرجعت الى بيتي واسرعت في قرأته فانفتح عليّ في الوقت اغراض ذلك الكتاب بسبب انه قد صار لي على ظهر القلب.

صوت: بالطبع، ما دمت كنت قد قرأت كتاب ما بعد الطبيعة اربعين مرة، كما ذكرت . . .

ابن سينا: وفرحت بذلك وتصدقت بشيء على الفقراء شكرا لله تعالى . فلما بلغت ثماني عشرة سنة من عمري فرغت من هذه العلوم كلها، وكنت اذ ذاك للعلم احفظ، ولكنه اليوم معي انضج، والاّ فالعلم واحد لم يتجدد لي بعده شي . . .

صوت: هناك من يأخذ هذه العبارة الاخيرة حجة عليك، فيقولون ان فلسفتك اكتملت في الثامنة عشرة، ولم تبتكر شيئا بعد ذلك .

إبن سينا: هنا أود أن أجلو هذا الأمر الذي غمض على الكثيرين . فقد أمليت سيرتي على تلميذي الجوزجاني عند اتصاله بي . أي وأنا في الثلاثين من عمري ، ثم أكمل الجوزجاني الحديث عني .

صوت: اذن فالرأي السابق يعبر عما انتهت اليه فلسفتك في منتصف عمرك، اذ انك عشت بعد ذلك ربع قرن، نضجت فيه وتطورت، واكتسبت التجارب الوافرة .

ابن سينا: والفت الكثير من الكتب الجليلة الشأن، يتضح منها انني عدلت في اواخر حياتي عن الآراء التي دونتها في صدر شبابي .

صوت: أترى معي أنه لم يكن بد من هذا التوضيح ؟ هلا تابعت سردك ، يا أبا علي.

ابن سينا: حسنا، ثم مات ابي وتصرفت بي الأحوال، وتقلّدت شيئا من اعمال السلطان . ودعتني الضرورة الى الارتحال من بخارى والانتقال عنها الى جرجان . وكان قصدي الامير قابوس . فاتفق في اثناء هذا، اخذ قابوس وحسبه وموته. ثم مضيت الى دهستان ومرضت بها مرضاً صعباً.وعدت الى جرجان، حيث اتصل بي الجوزجاني . . .

صوت: وفي جرجان رحت تتكسب من علاج المرضى حتى ذاع صيتك. ولنتابع سيرتك كما يرويها ابو عبيد الجوزجاني، فدعنا نستمع معا . . .

«وصنّف ابن سينا بجرجان كتاب « المبدأ والمعاد » ، واول « القانون » و« مختصر المجسطي » وغير ذلك، الى جانب اشتغاله بالادارة . ثم في سنة ٤٠٥ هجرية انتقل الى الريّ واتصل بخدمة السيدة وابنها مجد الدولة . وعالجه من السوداء . ثم خرج الى قزوين ومنها الى همذان حيث اصبح وزيرا لشمس الدولة بعد ان عالجه وشفاه واصبح من ندمائه . وشغل بوزارة شمس الدولة ست سنوات ، وكان انشغاله بذلك حسرة علينا وضياعا لوقتنا . لأن مهام الوزارة

استغرقت معظم وقته فلم يجد متسعا من الوقت للتدريس والتأليف . فضلا عن انه وقعت له حوادث كثيرة في تلك الفترة . ثار عليه العسكر، وكبسوا داره، وأخذوه الى الحبس، وأخذوا جميع ما كان يملكه وطلبوا من الامير شمس الدولة قتله، فلم يقبل، وعدل الى نفيه طلبا لمرضاتهم. فتوارى الشيخ في دار بعض اصدقائه اربعين يوما، فعاد الامير وقلّده الوزارة ثانية. ولما توفي شمس الدولة وبويع ابنه تاج الملك، طلبوا ان يستوزر الشيخ، فأبى عليهم وتوارى في دار ابي غالب العطار، وهناك انهى جميع كتب الطبيعيات والالهيات، ما خلا كتابيّ الحيوان والنبات من كتاب « الشفاء » .

صوت: وماذا عن مكاتبة ابن سينا علاء الدولة سرا ؟

«كاتبه سرا يطلب المسير اليه، فاتهمه تاج الملك وانكر ذلك عليه، وحثّ في طلبه، وكان قد سعى اليه، فدلّ عليه بعض اعدائه فأخذوه وسجنوه في قلعة فردجان، وهناك قال قصيدة فيها هذا البيت المشهور الذي يصف فيه يقين السجن وشك الخروج منه :

دخولي باليقين كما تراه
وكل الشك في أمر الخروج

ويقي سجينا في هذه القلعة اربعة أشهر ثم اخرجوه وحملوه الى همذان. وخرج متنكرا، وأنا وأخوه

وغلامان معه في زيّ الصوفية. الى ان وصلنا الى اصفهان فصادف في مجلس علاء الدولة الاكرام والاعزاز الذي يستحقه مثله، وصنّف هناك كتباً كثيرة. وكان سبب موته القولنج، عرض له، وكان ينتكس ويبرأ كله وقت. »

صوت : وما هو القولنج؟ وكيف لم يستطع شفاء نفسه منه وهو شيخ الأطباء؟

«اولا القولنج هو قرحة المعدة. وثانيا تلك كانت مشيئة الله. وفي مثل قولك، يا سيدي، نظم احدهم هذين البيتين :

ما نفع الرئيس من حكمه الطّـ
ـب ولا حكمهُ على النيّرات
ما شفاه الشفاء من ألم الـ
ـموت ولا نجّاه كتاب النجاة

« ثم قصد علاء الدولة همذان، وسار معه الشيخ، فعاودته في الطريق تلك العلّة الى ان وصل الى همذان، وعلم ان قوته قد سقطت وانها لا تفي بدفع المرض. فأهمل مداواته لنفسه واخذ يقول :

« المدبر الذي كان يدبرني قد عجز عن التدبير. والأن فلا تنفع المعالجة ! »

وبقي على هذا اياما، ثم انتقل الى جوار ربه في سنة ٤٢٨ هجرية ودفن بهمذان. رحمات الله الواسعة عليه.»

صوت: شكرا لك يا ابا عبيد الجوزجاني على تدوينك سيرة

الشيخ الرئيس. والان دعنا يا شيخنا نستعرض مؤلفاتك. فهلاّ صنّفت لنا اثارك بحسب موضوعاتها تمهيداً لأستعراضها بسرعة وتلاوة مقتطفات من بعضها ؟

ابن سينا: حسب تصنيفي، جعلت العلوم اصولا وفروعا، وجعلت للاصول ثلاث اقسام : العلم الالي، والعلم النظري، والعلم العملي .

صوت: فاذا استندنا الى هذا التصنيف امكننا ترتيب آثارك على النحو الآتي : اولا، العلوم الآلية، وتشتمل على كتب المنطق، وما يلحق بها من كتب اللغة والشعر. وثانيا، العلوم النظرية وتشتمل على كتب العلم الكلي، والعلم الالهي، والعلم الرياضي، والعلم الطبيعي . وثالثا، العلوم العملية، وتشتمل على كتب الاخلاق وتدبير المنزل، وتدبير المدينة، والتشريع . . .

ابن سينا: ولهذه العلوم الأصلية فروع وتوابع . . . فالطب مثلاً من توابع العلم الطبيعي ، والموسيقى وعلم الهيئة من فروع العلم الرياضي .

صوت: ترى ما هو اول كتبك ؟

ابن سينا: انه « بحث في القوى النفسانية » كتبته للامير نوح بن منصور، وهذا الكتاب يسمى ايضا « هدية الرئيس للامير» وكان سبب اتصالي بسلطان بخارى هذا القيام بعلاجه. وقد سمح لي بالاطلاع على مكتبة

السامانيين الحافلة بالاف المجلدات في مختلف العلوم، ومعظمها من الكتب النادرة .

صوت : انها المكتبة التي قيل انك احرقتها بعد الاطلاع على ما فيها لكي لا يفيد منها احد سواك. ولكن ما لنا ولهذا الآن اذ لم يثبت شيء من ذلك . . . وما كان آخر كتبك ؟

ابن سينا: قبل ان اشير الى آخر كتبي اقول لك انني في الحادية والعشرين الفت كتاب « الحكمة العروضية » وفيه اتيت على كل العلوم ما عدا العلم الرياضي. ثم توالت تآليفي التي زادت على الماية عدا. اما آخرها فهو كتاب « الاشارات» ويمثل آخر ما وصلت اليه فلسفتي واما آخر رسائلي فهي رسالة في النفس بعنوان« رسالة في الكلام على النفس الناطقة » . . .

صوت: ان ضيق المجال سيجعلنا نقتصر في حوارنا على ابن سينا الطبيب، وكتاب « القانون » الذي ترجم الى اللغة اللاتينية وكانت جامعات اوروبا تعتمد عليه حتى القرن السابع عشر اي عند مولد الطب القائم على المناهج العلمية الحديثة. وقد قيل كان الطب معدوما فأوجده بقراط، وكان ميتا فأحياه جالينوس وكان متفرقا فجمعه الرازي، وكان ناقصا فأكمله ابن سينا فهلا حدثتنا عن « القانون » ؟

ابن سينا: « القانون » كتاب اودعت فيه كل ما يتعلق بالطب، ولم اترك بابا إلاّ طرقته وأفضت فيه. وهو يتألف من خمسة كتب: الاول في الامور الكلية من علم الطب،

وتكلمت فيه عن المبادئ النظرية، اي التشريح وعلم وظائف الاعضاء، وفي تصنيف الامراض والاسباب والاعراض، وفي قوانين المعالجات. في الكتاب الثاني القوانين التي يجب ان تعرف من امر الطب، وقوى الادوية المقررة الجزئية.

صوت: والكتب الثلاثة الباقية، ماذا تعالج فيها ؟

ابن سينا: في هذه الكتب ذكرت « الجزء العملي الحافظ للصحة، والعملي المعيد للصحة »، بادئا بأمراض الرأس، ومنتهيا بأمراض أطراف الاعضاء. ويختص الكتاب الخامس بالادوية المركبة المعروفة بالاقرباذين .

صوت: وعدا كتاب « القانون » لك رسائل كثيرة في الطب رددت فيها على المستفسرين من علماء زمانك، مثل رسالة الادوية القلبية، والنبض، والقولنج، وغير ذلك .

ابن سينا: ولي كذلك اراجيز طبية، منها الارجوزة البالغة الف بيت، وقد اختصرت فيها التعاليم الطبية وكان الغرض منها التعليم .

صوت: ولن نسترسل كثيرا في التفاصيل حول كتاب « القانون » بل جل ما اريد الاشارة اليه هو ان ما لاحظته في طبك التجربة والاستدلال، اللذان اضفتهما على الطب اليوناني. فأنت كالرازي، تجعل الطب يقوم على قاعدة الاستدلال والتجربة. وبممارستك هذه الخطة في دراساتك الطبية تسنى لك ان تقيم صرح الطب على قاعدة افضل واشد قوة

ومتانة. ومن خدماتك الاخرى لعلم الطب في عهدك الاصطلاحات الطبية والكلمات الفنية التي اوجدتها. فأنت بحق رائد المصطلحات الطبية في ايران وفي اللغة الفارسية .

ابن سينا: ان هذا الاسلوب العلمي في التفكير كان معمولا به ومتداولا قبلي وكل ما فعلته انني عملت على تنميته، واكماله، وجعله اكثر قبولا .

صوت: لك الشكر والتقدير على كل ما قمت به ، يا أبا علي !

# إبن الهيثم : منشىء علم الضوء الحديث

لكي أضعكم في جو العالم العربي الكبير الذي سنقابله الآن ، وهو ابن الهيثم ، أود أن ألخص بعض آراء الباحثين الأجانب في منجزاته ، على سبيل التقييم . . وأحسب أن ابن الهيثم نفسه الموجود معنا الآن سيثلج صدره سماع هذه الآراء التقديرية التي يستحقها دون أدنى ريب . فهو أكبر مكتشفي علم المناظر منذ عهد بطليموس ـ على حد تعبير « دائرة المعارف البريطانية » ـ والحكيم بطليموس الثاني ، على ما يقول البيهقي ، لم يماثله أحد من أهل زمانه في العلم الرياضي ، ولا يقرب منه . . . »

إبن الهيثم: شكراً لك على ما أوردته، يا سيدي . . .

صوت: ولكنني لم أنته بعد من إيراد الآراء كلها . . . فلنستمع ما يقوله الفرنسي لوكلير في كتابه «تاريخ الطب العربي» :

ـ «هو عبقري موسوعي ، وبداءة حقبة في تاريخ العلوم ، ومجد من أمجاد الجنس البشري» .

ويقول سارتون الانكليزي في كتابه «مقدمة لتاريخ العلم» :

ـ «إنه ليس أكبر فيزيائي مسلم فحسب، ولكنه، بكل تأكيد، كبير فيزيائيي العصور الوسطى، وانه واحد من أكبر المشتغلين بعلم المناظر في جميع العصور».

وأخيراً يقول مايرهوف الايطالي، وهو أحد النقلة إلى العربية في القرون الوسطى، وقد انتقل إلى طليطلة لتعلّم العربية ليتاح له أن يترجم كتاب «المجسطي» لبطليموس الذي لم يكن قد ترجم إلى اللاتينية في ذلك الوقت:

ـ «لقد كسفت مقدرة إبن الهيثم وكمال الدين، عالم المناظر الفارسي الشهير ضوء أقليدس وبطليموس».

صوت: وبعد، دعونا نتعرف الآن إلى إبن الهيثم الذي كان عظيم الأثر في العلماء المعاصرين له، والعلماء الذين جاؤوا بعده. فقد كان دائم الانشغال، كثير التصنيف، وافر التزهد، محباً للخير، فاضل النفس، قوي الذكاء، لم يماثله أحد من أهل زمانه. هات حدثني عن مولدك...

إبن الهيثم: إسمي أبو علي محمد بن الحسن بن الهيثم، وقد ولدت في البصرة حوالي سنة ٣٥٤ هجرية.

صوت: ولكننا لا نعلم الكثير عن نشأتك. فكل ما وصل إلينا أنك وزِّرت في البصرة، وكنت تنصرف إلى عمل البر، والدرس والتأمل، والفضائل والحكمة والنظر

فيهما، وتشتهي أن تتجرد عن الشواغل التي تمنعك من النظر إلى العلم...

إبن الهيثم: ... فلما وجدت صعوبة في التخلص من وظيفتي هذه في البصرة، اضطررت إلى إظهار الخبل في عقلي والتغير في تصوري، حتى تسنى لي تبطيل خدمتي وصرف النظر مما كان في يدي. وانتقلت إلى الشام في أول أمري...

صوت: يبدو أن قصة الخبال هذه هي، ولا ريب، غير الخبال الذي تظاهرت به في مصر أيام الحاكم بأمر الله...

إبن الهيثم: ... بالطبع... لكأنما كتب علي أن ألجأ إلى هذه الخدعة كلما آنست خطراً يحيق بي...

صوت: المعروف أنك غادرت البصرة وأنت في العقد الرابع، وكان ذلك في عهد الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله، أي بعد سنة ٣٨٦ هجرية ـ وفي أواخر القرن الرابع الهجري. فما كان الدافع إلى ذلك الانتقال؟

إبن الهيثم: كان الدافع الأساسي لذلك رغبتي في الانقطاع إلى العلم، ومعرفتي بحب الخليفة الفاطمي للعلم والعلماء.

صوت: وكان الحاكم بأمر الله قد بلغته شهرتك، ونُقل له قولك: «لو كنت بمصر لعملت في نيلها عملاً يحصل به النفع في كل حالة من حالاته من زيادة ونقصان، فقد بلغني أنه ينحدر على موضع عال هو في طرف الأقليم المصري».

إبن الهيثم: فأحب الحاكم بأمر الله الذي كان يميل إلى الحكمة أن يستقدمني إليه و«سيّر إليّ سراً جملة من المال وأرغبني في الحضور. فلما وصلت خرج للقائي، والتقينا على باب القاهرة، وأمر بإنزالي وإكرامي واحترامي. ثم طالبني، بعد أن أقمت واسترحت بما وعدت به من من أمر النيل، فاخترت عدداً من الصنّاع لاستعين به على الهندسة التي كانت خطرت لي...

صوت: ... وهكذا قمت بصحبتهم بجولة دراسية في مجرى النيل، ورأيت آثار من تقدّم من ساكني الأقليم في الأمم الخالية، وهي على غاية ما يمكن من احكام الصنعة وجودة الهندسة، وما اشتملت عليه من أشكال سماوية ومثالات هندسية، وتصوير معجز، تبين لك أن الذي تقصده ليس ممكناً، فانكسرت همتك، ووقف خاطرك...

إبن الهيثم: ... وتحققت الخطأ والغلبة عما وعدت به، ولا سيما عندما وصلت إلى المكان المعروف بالجنادل، قبلي أسوان، وعاينت ماء النيل، واختبرته من جانبيه، وضعفت عن الإتيان بشيء جديد في هندسته. فعدت خجلاً ومنخذلاً، واعتذرت إلى الخليفة بما لم يقنعه. ولكنه قبل مني اعتذاري.

صوت: وولاك الحاكم بأمر الله بعض الدواوين، فتوليتها رهبة لا رغبة.

إبن الهيثم: ومن جديد كان علي إظهار الجنون والخبال للتخلص مما كلفني إياه، تخلصاً من بطشه. فصادر موجوداتي،

ولكنه عينّ لي من يخدمني، ويقوم بمصالحي، وقيدت وتركت في موضعي من منزلي.

صوت: ولم تزل على ذلك إلى أن مات الحاكم، فأظهرت التعقل، وعدت إلى ما كنت عليه، وأعيدت مقتنياتك إليك، وعدت إلى الاشتغال بالتأليف، والنسخ والإفادة.

إبن الهيثم: غير أن حياتي لم تكن كما توهمت، فخرجت من داري، واستوطنت قبة على باب الجامع الأزهر، وأقمت متنسكاً، متعزياً، مقتنعاً.

صوت: ونذكر هنا أنك كنت زاهداً في المال رافضاً للمغريات. يدل على ذلك رفضك عطايا أمير شامي علّمته بلا مقابل.

إبن الهيثم: وبقيت تلك حالي إلى أن وافاني الأجل المحتوم في القاهرة بعد سنة ٤٣٠ هجرية.

صوت: حسناً، دعنا الآن ننتقل إلى أسلوبك، ومنهجيتك ومنجزاتك وآثارك العلمية القيّمة. وأول ما نقرره هو أنك عالم كبير من ناحيتين: فأنت عالم كبير بما اكتشفته، وبما استطعت أن تضيفه من معارف جديدة على المعارف الطبيعية السابقة، ولا سيما في الضوء، وبما استطعت أن تنقضه من معارف السابقين في هذا الميدان. ولكن الأهمية الكبرى هي في نظر الباحثين أكبر أهمية من مكتشفاتك وآرائك الجديدة. وهي الطريقة العلمية، أو الطريقة المنهجية التي وضعتها للبحث. فعلام يعتمد هذا الم-

إبن الهيثم: هـذا المنهج يعتمـد العناصـر التـاليـة: الاستقـراء، القياس، والاعتماد على المشاهـدة، أو التجربـة أو التمثيل، وهي الخطوات التي ينبغي لكـل عالم أن يخطوها إذا أراد الوصول إلى الحقيقة.

صوت: لقد أثر عنك تعلقك الشديد بالحق، وسعة إطلاعك، وتشكيكك بكثير مما أطلعت عليه، وعزمك على تحصيل العلم من معدنه. فهلا أسمعتنا ما تقولـه في هذا الصدد؟

إبن الهيثم: «أني لم أزل منذ عهد الصبا مرتاباً في اعتقادات هذه الناس المختلفة، وتمسّك كل فـرقة بمـا تعتقده من الرأي، فكنت متشككاً في جميعه، موقناً بأن الحق واحد، وأن الاختلاف فيه إنما هو من جهة السلوك إليه. فلما كملت لادراك الأمور العقلية انقطعت إلى طلب معدن الحق... ورأيت أنني لا أصل إلى الحق إلا من آراء يكون سرها الأمور الحسية، وصورتها الأمور العقلية».

صوت: وماذا فعلت لما تبينت ذلك؟

إبن الهيثم: «لمـا تبينت ذلـك أفـرغت وسعي في طلب علوم الفلسفـة، وهي ثلاثـة: علوم ريـاضيـة، وطبيعيـة، وآلهية، فإن ثمرة هذه العلوم هي علم الحق والعمل بالعدل في جميع الأمور الدنيوية، والعدل هو محض الخير الذي بفعله يفوز إبن العـالم الأرضي بنعيم الآخرة السماوي...»

صوت: نتبين من قولك هذا أنك تستهدف الحق قبل كل شيء. وقد حاولت الوصول إليه من طريق الشك العلمي، فالحقيقة لا تتجلى إلا بالمطالعة، وبالمعرفة، وبالعلم، والمعرفة لا تتأتى إلا بالأمور الحسية، وبالتجربة وبالعقل.

إبن الهيثم: وعلى ذلك ما كنت أعطي حكماً أو أقرر قاعدة إلا بعد التجربة والاعتبار ذلك بأنني كنت آمل أن انتهي بهذا الطريق إلى الحق...

صوت: نخلص من ذلك كله، يا سيدي، أنك قررت هدفك منذ البدء، وهو معرفة الحقيقة لأنها هي الشيء الذي يصح للعالم أن يتوخاه وينشده. والخطوة الأولى نحو الحقيقة هي الشك.

إبن الهيثم: أي عدم التصديق بالروايات والأخبار، وبالمعارف المتواترة لمجرد أنها كذلك. فإن «اتباع الهوى» قد حال دون الوصول إلى الحقيقة، وحاد بنا عن جادة الصواب...

صوت: والخطوة الثانية هي استقراء الموجودات، ودراستها دراسة وافية نافذة لا تعمي عن أي شيء أبداً. ان الحس الذي يرشده العقل كفيل بتأمين عدم الانحراف وعدم الميل مع الآراء.

إبن الهيثم: ولكي نفعل ذلك كانت المشاهدة واسطتنا الزمنية، وكانت التجربة كفيلة بتثبيت صحة الأحكام.

صوت: وهنالك شيء آخر ينبغي لنا القيام به لكي تصح

دراساتنا للموجودات، وتكـون مشاهـداتنا صحيحـة وتجاربنا غير خاطئة: ينبغي لنا أن ننتقد المقدمات أو المعطيات. فالعلم لا يقوم على التسليم، إنه يوجب نقد المقدمات والتثبت منها قبل الركون إليها.

إبن الهيثم: ومع ذلك يمكن أن نخطىء. ولكي نتفادى الغلط كـان ينبغي استمرار المشـاهدة، ومـواصلة التجربـة الضروريين.

صوت: ولعل هذا ما جعلك تكتب في الموضـوع نفسه في فترات متتالية، مما يثبت أنك لم تكن تكتب قبل أن تتحقق من صحة ما تريد تدوينه.

إبن الهيثم: تماماً يا سيدي. فإذا ما راجعت جدول مؤلفاتي تبين لك أنني كنت أعاود الكتابة في الموضوع نفسه مرة بعد أخـرى بعد أن أكـون قد اطلعت عـلى مـا قـالـه الأقدمون، وناقشته.

صوت: لقد جمعت في هذا الأسلوب الذي أوجدته واعتمدته بـين اتجاهـين اثنـين: لاستقـراء ومـواصلة البحث والمشاهدة والاعتماد على الملاحظة، واتجاه الاستنباط العقلي القائم عـلى الحدث الـداخلي. وصحيـح أن المعارف التي جئت بها في الضوء كانت جديدة وذات قيمة، إلا أن الأهم هو تحديد المنهج العلمي بصورة موجزة وتطبيقه في بحوثك ودراساتك.

إبن الهيثم : «الحق مطلوب لذاته، وكل مطلوب لذاته فليس يعني طالبه غير وجوده ، ووجود الحق صعب ، والطريق إليه وعر» .

صوت: ونأتي الآن إلى آثارك التي تقدر بأكثر من سبعين مصنفاً بين كتاب ورسالة ذكر بعضها مترجموك، ومنها كتاب «المناظر» و«كيفية الأظلال» و«مقالة في الضوء» و«فلسفة الضوء وماهيته، وكيفية انتشاره، ونواميسه»، و«مساحة الجسيم المتكافىء»، و«المرايا المحرقة» و«تهذيب المجسطي» و«الشكوك على بطليموس».

إبن الهيثم: و«الأشكال الهلالية» و«شرح قانون أقليدس» و«تربيع الدائرة» و«مساحة الكرة» و«ارتفاعات الكواكب» و«تفسير المقالة العاشرة لأبي الخازن» و«رسالة في الأخلاق»، و«رسالة عن تأثيرات اللحون الموسيقية في النفوس الحيوانية» و«مقالة في الحساب الهندي» و«تلخيص كتاب أرسطو في الحيوان»...

صوت: ... و... و.... الكثير من المواضيع العملية والحسابية من رياضية وجبر وهندسة والمواضيع الفلسفية والطبية اللغوية والالهية والفلكية التي برعت فيها، وألفت وصنفت، ولا يتسع المجال هنا لتعدادها. والقسم الأكبر منها وضعته في مصر... ولكن مما لا شك فيه أن أهم مؤلفاتك في تاريخ العلم إنما هو «كتاب المناظر» الذي سنتناوله بالعرض الآن. فأنت منشىء علم الضوء الحديث. فهل لك قبل أن نسترسل بالكلام على هذا الكتاب أن تقول لنا ما قررته بنتيجة دراساتك في هذا العلم؟

إبن الهيثم: أولاً ـ الضوء مصدره الجسم المضيء، أو هو ضغط

تحسه العين. ثانيا ـ الضوء وجود بداته. ثالثا ـ إشتعال الضوء يستغرق زماناً، وهو ينتقل في مادة، أو بواسطة جسم مشف. رابعاً ـ للضوء سرعة أو حركة. خامساً ـ مساواة سرعة الضوء بعد الانعكاس لسرعته قبل الانعكاس. سادساً ـ إذا خرج الضوء من الجسم الأغلظ إلى الجسم الألطف كانت حركته أسرع. سابعاً ـ يتحرك الضوء في خطوط مستقيمة في جميع الجهات إذا لم يصطدم بمانع، وثامناً ـ كشف العلاقة بين زاوية السقوط وزاوية الانعطاف.

صوت: شكراً يا سيدي على هذا الموجز لمضمون دراساتك في الضوء... ودعني الآن أذكر لك بعض المعلومات المتعلقة بـ«كتاب المناظر» وأهميته وتأثيره فيمن جاء بعدك من علماء العرب والفرنجة. فإبن القفطي يقول ان الناس أخذوا عن إبن الهيثم واستفادوا. ويقول المؤرخ الايطالي مايرهوف في كتابه «العلم عند العرب»:

ـ «لقد تجاوزت أهمية إبن الهيثم جميع الطبيعيين الآخرين عند العرب، كما أن كتابه «المناظر» ترك تأثيراً عميقاً كان فيما بعد باعثاً على البحوث والأعمال التي قام بها رودجر بيكون الانكليزي ووتيلو البولندي. كما أن كبلر الألماني أخذ معلوماته في الضوء لا سيما فيما يتعلق بالانكسار الضوئي في الجو من كتب إبن الهيثم.

إبن الهيثم: ومتى اهتم الفرنجة بكتابي «المناظر»؟

صوت: اهتموا به منذ القرن الثاني عشر الميلادي، فترجمه

جيرار الكريموني، ثم نقل عنه جون بيكام، وويتلو في القرن الثالث عشر. وقد عرف الأوروبيون دراساتك الفلكية منذ القرن الخامس عشر.

إبن الهيثم: وفي الشـرق، ألم يقم أحد من العلماء بشيء من ذلك؟

صوت: في الشرق شرح العالم الفارسي المعروف كمال الدين أبو الحسن المتوفى سنة ٧٢٠ هجرية كتابك «المناظر» وأضاف عليه دراسات قيمة تتعلق بالانعكاس والانكسار. وكذلك تأثر بك عالم رياضي وفيلسوف وشاعر فارسي هو عمر الخيام المولود سنة ٤٣٢ هجرية - أي بعد وفاتك بحوالي سنة أو يزيد قليلاً - في بحث المعادلات التكعيبية بواسطة قطوع المخروط. ولكنه وجّه إليك نقداً عنيفاً في شكوكك على «مصادرات أقليدس». وكذلك رد عليك العالم البغدادي إبن الصلاح المتوفى سنة ٥٤٨ هجرية.

إبن الهيثم: ... إن ذلك ليدل، يا سيدي، على أن هندسة أقليدس كانت ميداناً للصراع بين كثير من العلماء.

صوت: صحيح، ونأتي إلى إهمالك فترة من الزمن بسبب انتقال دراساتك إلى أوروبا، وشيوع أسماء الذين نقلوا عنك. ولكن مصطفى نظيف يرى لذلك سبباً ثانياً هو التناحر بين الدويلات الاسلامية ومحنة التتار. ولعل اتصالك بالفاطميين أدى إلى اتهامك بالخروج على الدين، وإلى عدم نشر مؤلفاتك التي ما يزال العدد الأكبر منها مخطوطاً.

**إبن الهيثم:** أهذا كل ما عندك يا سيدي؟

**صوت:** إسمع آخر ما عندي... في القرن العشرين الذي نعيش فيه عاد اسمك فبرز مجدداً، ولا سيما في أوساط الهيئات العلمية المصرية. فنشر مصطفى نظيف حتى الآن كتابين نفيسين عنك، احدهما دراسة بعنوان «إبن الهيثم وأثره المطبوع في الضوء» و«الحسن بن الهيثم ، بحوثه وكشوفه».

## البيروني : أعظم عقلية عرفها التاريخ
## (٩٧٣ - ١٠٤٨)

صوت : بقـرار من منـظمـة الاونيسكـو، ومن المؤتمـر الـدولي للمستشرقين، أحتفل سنة ١٩٧٣ بالذكرى الألفية لمولد أبي الريحان البيروني الذي يحتـل عن جدارة واستحقـاق احدى مراتب الشرف في تاريخ العلم ذلك بأنه زود خزانة العلم العـالمية بـأبحاث هـامـة في مختلف ميـادين العلم والمعرفة، فكان فلكيا، ورياضيا، وفيزيائيا، وجغرافيا، وفيلسوفا، خلّف لنا كنوزا من المعرفة حملت نائب رئيس اكاديمية العلوم في الاتحاد السوفياتي فيدوسييف على القول في التقرير الذي قدمه أثناء الاحتفال بهذه الذكرى الألفية في إحدى قاعات جامعة موسكو :

- « لقد خلّف البيروني تراثاً دخل عن حق في كنز الثقافة العالمية . . . وإن هذا العالم قد كتب زهاء ١٥٠ مؤلفاً لا نعرف سوى ثلاثين منها، ولكن كل واحد منها يكفي لتخليد البيروني. إن حياة البيروني ونشاطه يقعان في الأعوام المظلمة من العصر الوسيط ، الملأى بالحروب وأعمال العنف . لذلك تظهر أمامنا بكل عظمتها الجهود التي كان يبذلها البيروني للتغلب على حواجز الخلافات بين الشعوب ، وليقيم بينها المبادلات في القيم العلمية

والثقافية . . . ومنذ ذلك العصر البعيد كان البيروني يدرك أن من المهم جداً إقامة اتصالات وثيقة بين علماء مختلف البلدان ، وهو نفسه كان يولي إحتراماً عميقاً للانجازات العلمية والثقافية لدى جميع الشعوب بصرف النظر عن انتسابها العنصري او الديني . فكان مؤلف أعمال مرموقة في علم المعادن والتاريخ ، والاتنوغرافيا، وفقه اللغة ، وتاريخ العلم . وحسب البيروني بأكبر ما يمكن من الدقة ، بالنسبة الى ذلك العصر ، محيط الارض وقد أنشأ كرة أرضية ، وقام بحل كثير من مهمات علم رسم الخرائط الرياضية . وان مؤلّفه « القانون المسعودي في الهيئة والنجوم » كان موسوعة حقيقية في المعارف الفلكية لزمنه . )

وفي تقرير قدمه في المهرجان التذكاري هذا أشار العالم البرفسور نيكولنسكي الى ان تاريخ الثقافة العالمية يعرف أمثلة تظهر منها، في هذه الفترة او تلك من الازمنة، عبقرية شاملة، تحيط في عملها بالمعارف البشرية المتنوعة. ففي اليونان القديمة كان ارسطو، وفي ايطاليا ليوناردو دا فنتشي ، وفي بولونيا كوبرنيكوس، وفي روسيا لومونوسوف. وإن المفكر الكبير في آسيا الوسطى أبا الريحان البيروني الملقب بالاستاذ يقدم الينا أيضاً مثالا على هذه الشمولية.

لقاؤنا الآن مع صاحب هذه العقلية الجبارة الذي لقب بالأستاذ . ولم تكن ذكراه الألفية عيداً لشعوب آسيا الوسطى وحسب ، ذلك بأن أعماله هي بمثابة تراث خالد للكثير من بلدان الشرق . ففي إيران وأفغانستان أبدع

البيروني أفضل أعماله ، والبلدان العربية كتب مؤلفاته بلغتها ، وشعوب الهند أطلعها على الثقافة العربية وعلى العلم اليوناني والمصري ، وأطلع بدوره العالم العربي على الثقافة الهندية . فياسيدي ، أبا الريحان ، كان لابد من. هذه المقدمة التقييمية الشاملة لأنقل اليك خبر الذكرى الألفية ، مع ما في ذلك من الاغراء للقراء لكي يكونوا معنا في هذا اللقاء . . .

البيروني: أشكرك يا سيدي على ما تفضّلت بنقله اليّ ، وعلى التفكير في الاعزاء القراء لمرافقتنا في هذا الحديث. وعلى سبيل التعريف بي، نسبا ومولدا، أقول إنني أبصرت النور في سنة ٣٦٢ هجرية ( ٩٧٣ ميلادية ) في بلدة كات بظاهر خوارزم، وفيها كانت وفاتي السنة ٤٤٠هـ . (١٠٤٨ م . ) .

صوت : وكات هذه تتبع اليوم جمهورية اوزبكستان في الاتحاد السوفياتي، وقد سمّيت حديثا « البيروني » تخليدا لذكراك .

البيروني: حسنا، يسرني سماع ذلك . . . وقد قضيت السنوات الاولى من حياتي في خوارزم، واشتغلت مساعدا لأحد علماء النبات، فكنت اجمع له البذور .

صوت : ولكنك ما لبثت أن اضطررت الى مغادرة خوارزم الى جرجان بسبب انغماسك في السياسة، وتأييدك أحد الثائرين على الأسرة الحاكمة. وقد بقيت في جرجان حتى سنة ٤٠٠ هجرية، وذلك في بلاط السلطان أبي الحسن قابوس وشمجير شمس المعالي.

البيروني : سوى انني عدت الى خوارزم بعد ذلك فاستقبلني أميرها، واحاطني بكل مجالي التكريم، وأوكل اليَّ بعض المهام السياسية . ومثلت دورا بارزا جدا في هذه المدينة في تلك المرحلة من حياتي ، وخصوصا في الميدان العلمي، ولو ان انتاجي كان قليلا نوعا ما بسبب اشتغالي بالسياسة .

صوت : وفي السنة ٤٠٧ هجرية انتقلت إلى غزنة أسيرا برفقة محمود سبكتكين. ولكنك برزت عالما مكرما في عهد ابنه مسعود الغزنوي الذي صحبته في غزواته. وقدمكثت هناك زهاء أربعين سنة، حتى كانت وفاتك في السنة ٤٤٠ هجرية .

البيروني: وقد عدت الى خوارزم قبل وفاتي بقليل .

صوت : ومما يروى أن السلطان مسعود الغزنوي الذي ألحقك ببلاطه ليفيد من علمك الواسع وحنكتك السياسية أراد مكافأتك على موسوعتك النفيسة في علم الفلك التي اطلقت عليها اسم مليكك وصديقك فسمّيتها « القانون السعودي في الهيئة والنجوم . »

البيروني : صحيح، لقد أعجب السلطان بهذا السفر العلمي فشاء إبداء وفائه فأهداني مبلغا من المال كان كناية عن حمل فيل من القطع الفضية . . فاعتذرت عن تقبّل هذه الهدية الثمينة قائلا للسلطان انني لا أعمل من أجل المال أو الشهرة، بل من أجل العلم، وللعلم وحسب . . .

صوت : وقدّر السلطان مسعود الغزنوي موقفك النبيل هذا، وازداد تعلقا بك. ومن هنا كانت تلك الصداقة التي جعلته يصطحبك في الغزوات التي شنّها على غرب الهند . . .

البيروني : وقد أتاح لي ذلك الفرص الكثيرة للدرس والاطلاع ، والتأليف ، ونشر المعارف والعلوم اليونانية ، والحضارة العربية ، وعرض نتائج دراساتي واطلاعاتي باللغة العربية في معظم الاحيان .

صوت : وقد ساعدك في ذلك عقلية جبارة ، ومعرفة باللغات الخوارزمية ، والعربية ، والفارسية ، والسنسكريتية ، واليونانية ، والسريانية . وقد درست العلوم الهندية ، وألفت بعد عودتك الى غزنة كتاباً أسميته « طريق الهند » ، فضلا عن كتابك الآخر « التفهيم لأوائل صناعة التنجيم » ، ثم كتابك المعروف باسم « تاريخ الهند » . وسنحاول التبسط قليلا في هذه المنجزات العلمية ، وقراءة بعض المختارات مما تتضمنه تعميماً للفائدة . ويذكر في هذا المجال أنك كنت تتجول بين مكان وآخر في البلدان القريبة من الهند ليسهل عليك العودة الى تلك البلاد ساعة تشاء .

البيروني : وفي الهند وضعت كتابي الذي ذكرت « تاريخ الهند » في ثمانين فصلا ، وفيه أتحدث عن معتقدات الهنود وشرائعهم ، وأحكام العبادات عندهم ، ونظام الطبقات في مجتمعهم ، وأنواع الخط ، وطرق الكتابة ، وعن النحو والشعر والتراث العلمي والأدبي الهندي عامة ، وعن معالم الهند الجغرافية ، فضلا عن بحث علم الفلك عند الهنود ، وأحكام التنجيم والمعتقدات الهندية في بعض الظواهر الطبيعية كالمد ، والجزر ، والخسوف ، والكسوف ، الخ . . .

صوت : في هذا المجال لا بد أن نذكر أنك اهتممت بالتاريخ والطب والفلك والرياضيات والطبيعيات ، ويقول ابن أبي أصيبعة في كتابه « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » :

- « إن للبيروني نظراً جيداً في الطب، عاصر ابن سينا ، وراسله وتحدث اليه ، وسأله أسئلة أجابه ابن سينا عنها . »

ولقد بلغت مؤلفاتك أكثر من مئة وعشرين ، أنت نفسك تذكر منها في كتابك « رسالة في فهرس كتب محمد بن زكريا الرازي » مئة وثلاثة كتب . وقد فقد الكثير منها بسبب الكوارث والحروب ، كما هي الحال مع سائر كتب من سبقوك ومن أتوا بعدك . فدعنا الآن نذكر أشهر كتبك الباقية .

البيروني : كتاب « الجماهر في معرفة الجواهر وأنواعها وما يتعلق بهذا المعنى » . وفيه درست عدداً من المعادن ، وألفته لشهاب الدولة أبي الفتح مودود بن مسعود بن محمود الغزنوي . ثم كتاب « الآثار الباقية عن القرون الخالية » ، و« الصيدلية في الطب » ، وفيه استقصيت معرفة ماهيات الأدوية ومعرفة أسمائها ، واختلاف آراء المتقدمين ، وما تكلم كل واحد من الأطباء وغيرهم فيه ، وقد رتّبته على حروف المعجم . وكتاب « مقاليد الهيئة » ، وكتاب « القانون المسعودي » في الهيئة والنجوم ، وفيه حذوت حذو بطليموس ، وكتاب « التفهيم في صناعة التنجيم » ، وكتاب « الهند الكبير » ، وكتاب « إفراد المقال في أمر الظلال » ،

وكتاب « استخراج الأوتار في الدائرة بخواص المنحني فيها » .

صوت : يحضرني هنا قول للبيهقي والشهرزوري يفيد أن مصنفاتك زادت على حمل بعير . ويجرنا ذلك الى الحديث عن منهجك واسلوبك في التأليف ، هذا المنهج الواضح الذي يتجلى في كل مؤلفاتك ، والذي يمكننا تلخيصه أولا ، بالبحث والتجربة والاستقراء ، لا التسليم والقبول بالتقاليد ، وثانياً ، بضرورة العودة الى علوم الغير . . .

البيروني : ومن هنا تعلمت عدداً من اللغات للاطلاع على حضارات أصحابها ، والرجوع الى المراجع الأصلية ، والاستقصاء في البحث ، والتعمق في كل شي بقدر ما تتيح لنا المصادر .

صوت : ونضيف على كل ذلك المسلك الحسي ، أي الاستقراء والمشاهدة والتجربة السبيل الأهم لتحقيق المعرفة والوصول اليها ، ثم التجربة في النظر الى الأشياء ، وأخيراً وليس آخراً التواضع . . . وأما الاسلوب الذي اعتمدته في عرض أفكارك وأبحاثك ومكتشفاتك فيتلخص بما يلي : عرض الأفكار بترتيب وتسلسل ، واستعمال المصطلحات العلمية . . .

البيروني : . . . مع ابتداع مصطلحات جديدة عندما تقضي الحاجة بذلك ، مع تجنّب التنميق في العبارات ، والميل الشديد الى الجدل والنقد .

صوت : وقد عرفت بعنايتك الفائقة بمقدمات كتبك لاظهار

الأساس الفلسفي لها . كما وضعت القوانين الرياضية نتيجة دراساتك وأبحاثك . وتجدر الاشارة في هذا المقام الى أنك تتشابه مع ابن الهيثم من حيث المنهجية في عدد من النواحي ، ولا عجب ، فقد عشتما في عصر واحد نوعاً ما . ولننتقل الآن يا أبا الريحان ، الى أهم منجزاتك التي تكشف عنها مؤلفاتك ، فهلّا حدثتنا عنها . . .

**البيروني :** بحثت في تقسيم الزاوية الى ثلاثة أقسام متساوية . وعملت مع بعض معاصريَّ جداول رياضية للجيب والظل ، معتمدين على جداول أبي الوفاء البوزجاني . وقمت بتجارب لتحديد الثقل النوعي ، واشتغلت بعلم الحيل . . .

**صوت :** نحن نسمي هذا في عصرنا علم الميكانيكا . . . ويجمل بنا أن نذكر أنك وضعت جدولاً بالثقل النوعي لعدد من المعادن كنت فيه شديد القرب من معلوماتنا الحديثة . كما كتبت شروحاً وتطبيقات لبعض الظواهر المتعلقة بضغط السوائل وتوازنها .

**البيروني :** وشرحت صعود مياه الفوارات والعيون الى أعلى ، وتجمّع مياه الآبار بالرشح من الجوانب . وأشرت الى دوران الأرض على محورها . وحدّدت طريقة استخراج الملح من ماء البحر . . . ووضعت نظرية لاستخراج محيط الارض . . .

**صوت :** . . . . وتعرف المعادلة التي استعملتها باسم « قاعدة البيروني » . وقد كتبت على آلة تمثل حركات الشمس

والقمر ، وعملت الاسطرلاب ، وبحثت في الظواهر التي تبدو في أوقات الشفق أو كسوف الشمس . وتناولت القوانين التي نجدها في عالم النباتات . وبحثت في أمر الظل وما ترسمه أطرافه في الآفاق ، وقمت بدراسات في علم طبقات الأرض ، ونسمي ذلك علم الجيولوجيا .

البيروني : وهنا لا بد من أن أقول إنني كنت أرى في وحدة الاتجاه العلمي اتحاد الشرق والغرب . فلقد كنت مؤمناً بانسانية العلم ، وبالوحدة الشاملة التي يؤدي اليها العلم فيوحد بين العقول ، ويزيل التنافر بينها على أساس المنطق والحقيقة . . .

صوت : بالطبع ، يا سيدي . وهذا أجلّ ما يمكن أن يفكر فيه انسان عالم . . . وأحسَب أن الوقت حان لنختتم هذا اللقاء بشي مختار من كتابك الشهير « الآثار الباقية عن القرون الخالية » . فما قولك في باب القول على مائية التواريخ واختلاف الأمم فيها ؟

البيروني : « التاريخ مدة معلومة تعد من لدن أول سنة ماضية كان فيها مبعث نبي بآيات وبرهان ، أو قيام ملك مسلط عظيم الشأن ، أو هلاك أمة بطوفان عام مخرّب أو زلزلةوخسف مبيد ، أو وباء مهلك ، أو قحط متأصل ، أو انتقال دولة ، أو تبدل ملة ، أو حادثة عظيمة من الآيات السماوية ، والعلامات المشهورة الأرضية التي لا تحدث إلا في دهور متطاولة وأزمنة متراخية تعرف بها الأوقات المحددة ، فلا غنى عنها في جميع الأحوال الدنيوية والدينية . ولكل واحدة من

الأمم المتفرقة في الأقاليم تاريخ على حدة تعدها من أزمنة ملوكهم أو أنبيائهم أو دولهم ، أو سبب من الأسباب التي قدمت ذكرها ، وتستخرج بها ما يحتاج اليه في المعاملات ومعرفة الأوقات ، وتنفرد به من دون غيره . وأول الأوائل القديمة وأشهرها عندنا هو كون مبدأ البشر ولأهل الكتاب من اليهود والنصارى والمجوس وأصنافهم في كيفية وسياقة التأريخ من لدنه من الخلاف ما لا يجوز مثله في التواريخ . وكل ما يتعلق معرفته ببدء الخلق وأحوال القرون السالفة فهو مختلط بتزويرات وأساطير لبعد العهد بـه ، وامتداد الـزمان بيننـا وبينه ، وعجـز المعتني به عن حفـظه وضبطه. فالأولى أن لا نقبل من قولهم في مثله إلّا ما يشهد به كتاب معتمد على صحته ، او خبر مشفوع به بشرائط الثقة في الظن الأغلب . وأما حر الأرض فاما أن يكون ما ينعكس من شعاعات الشمس من سطحها ، واما أن يكون بخاراتها التي يثيرها الحر المستكنّ في باطنها على مذهب قوم ، أو الطارىء عليها من خارج على مذهب آخرين . فان حركة البخار في الهواء تكسبه حرارة ، فأما حرارة النار فإنها لا تقرب ولا تبعد لأن الفلك لا يزيد سرعة ولا بطءاً . وأما الشعاعات المنعكسة فانها غير منسوبة الى الأرض ، وأما البخارات فلها حد تنتهي اليه ولا تتجاوزه . وما أظن القائل إلا معتقداً أن في الأرض حرّاً محتقناً يخرج من بـاطن الأرض الى ظاهـرها وقـد احتمى الهواء بشعاعات الشمس ، فيلتقيان . »

صوت : هلاّ أسمعتنا شيئاً من كتابك « تحديد نهايات الأماكن » ؟

البيروني : ولِمَ لا ؟ سأقرأ ما يلي : « فأما العلوم ـ بعد أن كان الانسان مطبوعاً على قبولها ـ فقد اضطرته اليها كونه في العالم مدة تصرّفه فيه على قضايا التكليف ، لأنه لكثرة حاجاته وقلة قناعته ، وتعريه عن آلات الدفاع مع وفور أعدائه ، لم يجد بدأ من التمدن مع أهل جنسه ، قصداً للترافد واشتغال كل واحد منهم بشغل يكفيه ويكفي غيره . واحتاج كلٌّ منهم الى شيء يتجزّأ بالقسمة ويجتمع بالتضعيف ، فيقوم بإزاء الأعمال والحوائج على نسبتها ، إذ كانت بأنفسها غير متعادلة ، ولا أوقات حاجياتهم اليها متساوية ، فاصطلحوا على الأعواض والأثمان التي منها الفلذات الذاتية ، والجواهر النفيسة وما شابهها ، مما عز وجوده وطال بقاؤه وراق منظره . فوضعوها على القسمة العادلة التي لا يستغني عنها اللصوص والجائرون فيما بينهم ، بل لا يخلو منها الطير كالبرك والحواصل ، فانها في صيد السمك تفترق في ضحضاح الماء فرقتين ، احداهما تثير الصيد بضرب الاجنحة على الماء وتسوقه ، والأخرى تترصد له فتصطاده . ثم لا تستبد بأكله دون الفرقة المثيرة ، بل تجمعه في الأكياس التي في أصول أشداقها الى أن تفرغ كلها ، فحينئذ تخرجه وتقتسمه على سواء . والقدرة للهسبحانه . »

صوت : شكراً لك يا أبا الريحان . وبعد ، كانت هذه بعض الأضواء التي سُلِّطت على صاحب أعظمَ عقلية عرفها التاريخ ، باعتراف الكثيرين من العلماء العالميـين ، البيروني الذي كان مدرسة بمفرده ، ومكتبة جامعـة بمؤلفاته .

## أبو العلاء المعري : رهين المحبسين

( ٩٧٩ ـ ١٠٥٨ )

صوت : مع ابي العلاء المعري سنعكس الآية ونبدأ من النهاية، فنقصر مقدمتنا على مرثية ابي الفتح حصينة المعري، وهي واحدة من السبعين مرثية التي قرئت على قبره بعد وفاته . . .

ابو العلاء : ماذا تقول يا سيدي ؟ . . أسبعون مرثية قرئت على قبري ؟ . . هات اسمعنا مرثية نسيبي الذي تكلمت عنه .

صوت : اسمع يا ابا العلاء، يا من عمل الشعر وهو ابن احدى عشرة سنة . . .

ابو العلاء: دعني اذكر هنا القصيدة التي نظمتها في هذه السن كانت رثاء ابي ! والان لنصغ الى المرثية التي ذكرت.

صوت : العلم بعد ابي العلاء مضيّع
والارض خالية الجوانب بلقع
اودى وقد ملأ البلاد غرائبا
تسري كما تسري النجوم الطُلَّعُ
ما كنت اعلم وهو يوضع في الثرى
أن الثرى فيه الكواكب تودع
جبل ظننت وقد تزعزع ركنه
ان الجبال الراسيات تزعزع

وعجبت ان تسع المعرة قبره
ويضيق بطن الارض عنه الاوسع
لو فاضت المهجات يوم وفاته
ما استُكثرت فيه فكيف الادمع
عين تسهَّد للعفاف وللتقى
ابدا وقلب للمهيمن يخشع
شيم تجمله فهن لمجده
تاج ولكن بالثناء يرصَّع
جادت ثراك ابا العلاء غمامة
كندى يديك ومزنة لا تقلع
ما ضيَّع الباكي عليك دموعه
ان الدموع على سواك تضيَّع
قصدتك طلاب العلوم ولا ارى
للعلم بابا بعد بابك يقرع
مات النهى وتعطلت اسبابه
وقضى التأدب والمكارم أجمع

ابو العلاء : شكرا لك يا سيدي، على هذه الاشارة اللطيفة، وما اطلعتني عليه مما كان بعد وفاتي . . .

صوت : والآن، لنبدأ من البداية . . . في تعريفك اقول انك ابو العلاء، احمد بن عبد الله بن سليمان القضاعي المعري التنوخي، وقد ولدت في معرة النعمان، شمالي حماه سنة ٣٦٣ هجرية، الموافقة سنة ٩٧٣ ميلادية، فكنت اشهر من ينسب الى معرَّة النعمان. وقد اشتهرت أسرتك بالرجال الذين تقلدوا المناصب القضائية، وكانوا علماء وأدباء وفقهاء . . .

ابو العلاء : ولكن استقبال الدنيا لي كان على غير ما يجب اي طفل ان يكون استقبال الدنيا له . فما شارفت الرابعة من عمري حتى اصابني الجدري، فأنطفأت عيني اليسرى، وغشي عيني اليمنى بياض، فأصبحت أعمى أو كالأعمى، وكل ما أذكره اللون الأحمر، لأنني ألبست في مرضي ثوبا مصبوغا بالعصفر .

صوت : ولكن ذلك لم يحل بينك وبين تحصيل علمي كدت تجمع به ثقافة عصرك في اللغة وآدابها، وفي كثير من المسائل الفلسفية .

ابو العلاء : تعثرت خطوتي الاولى على الطريق، فقادني ابي الى عالم يمنحني نور البصيرة ويكشف لي عن آفاق الوجود المغلق امام عيني. فقرأت القرآن على جماعة من الشيوخ . وسمعت الحديث من ابي عبدالله، وجدي سليمان وأخي أبي المجد، وسواهم من محدثي المعرة وحلب في زماني، وكذلك علوم اللغة والنحو تلقيتها عن أبي، وجماعة من اصحاب ابن خالويه، ولزمت البيت حتى بلغت العشرين .

صوت : فما كان من أبيك، وقد ظهرت عليك مخايل النجابة والذكاء إلا ان مضى بك الى حلب حيث أخوالك من آل سبيكة .

ابو العلاء : وفي حلب تلقيت النحو على محمد بن عبدالله بن سعد النحوي. ومنذ ذلك العهد بدأ اتصالي بالأدب ومعرفتي بشعر المتنبي، لأن شيخي وأستاذي أبن سعد هذا كان رواية أبي الطيب .

صوت : على ذكر المتنبي نشير الى أحد تصانيفك الموسوم « كتاب العزيزي » وهو شرح لشعر المتنبي .

ابو العلاء : لما قرىء عليّ الكتاب المذكور« كتاب العزيزي » أخذ الجماعة في وصفه واطرائه، فقلت لهم : كأنما نظر المتنبي اليَّ بلحظ الغيب حيث يقول :

أنا الذي نظر الاعمى الى أدبي
وأسمعت كلماتي من به صمم

صوت : كما انك اختصرت ديوان ابي تمام وشرحته، وديوان البحتري، وتكلمت على غريب اشعارهم ومعانيها ومآخذهم من غيرهم، وما أخذت عليهم.

ابو العلاء : ولكنني توليت، مع ذلك، الانتصار لهم والنقد في بعض المواضيع عليهم، والتوجيه للخطأ في بعض الأماكن. ودعني في هذا المجال أذكر، بكل تواضع، انني ما سمعت شيئاً إلا حفظته، وما حفظت شيئا ونسيته !

صوت : ودعني في هذا المجال ايضاً اروي هذه الحكاية التي ذكرها بعض مؤرخيك عن ذكائك وفطنتك ، وسرعة حفظك والمعيتك وتوقد خاطرك وبصيرتك . وخلاصتها ان أهل حلب سمعوا بذكائك وأنت صغير، فسافر جماعة من اكابرهم لينظروك ويمتحنوك، فماذا جرى بينكم. أتذكر ؟

ابو العلاء : وكيف لا أذكر ؟ ! قلت لهم : هل لكم في المقافاة بالشعر ؟ فجعل كل واحد منهم ينشد بيتاً، وأنا أنثر من حفظي بيتاً على قافيته، حتى نفد حفظهم.

فقلت : أعجزتم ان يعمل الواحد منكم بيتا عند الحاجة اليه على القافية التي يريد ؟ قالوا : فأفعل أنت ذلك. فجعلت كلما أنشدني واحد منهم بيتاً، اجيبه من نظمي على قافية البيت، حتى قطعتهم جميعا .

صوت : من ذلك العهد المبكر أهتديت الى سلاحك في معركة الوجود، وعرفت سبيلك في الحياة. وقد ارضـاك ان تجد في موهبتك الفذة عوضاً عما فقدت، وان تلتمس من العلم النور الذي حجبه عنك العمى، فطفت في المدن السورية، حيث تحدثت الى علمائها وزرت مكتباتها، وجل همك طلب العلم. ثم سافرت الى بغداد سنة ٣٩٩ هجرية، فأقمت اقل من عامين، لتحقيق رغبتك في العلم لكثرة ما سمعت من اقوال المادحين في مدينة السلام التي كانت تشهد استمرارا للنهضة الادبية والعلمية، ووفرة ما فيها من مكتبات زاهرة ومجالس عامرة بأهل العلم واللغة والأدب، ومناقشات بين اصحاب الفكر على مختلف الوانهم واتجاهاتهم .

ابو العلاء : ولكن على رغم وصف بغداد بأنها حاضرة الدنيا، وما عداها بادية، وان اهلها ملائكة الارض للطافة اخلاقهم وخفة أرواحهم لم احقق فيها رغبتي في التعلم، لأنني لم أجد هناك ما يزيد في معرفتي، ولم اصادف فيها ما كنت آمله من التقدير الصادق، وان عرف بعضهم فضلي، وانزلوني من نفوسهم منزلة سامية . . .

صوت : ولم تخل اقامتك في «عاصمة الدنيا» تلك من انتقاد لك وجرح لكرامتك . . . ولكنك مع ذلك لقيت اهل العلم هناك، وأخذت عنهم.وعلى الجملة، يمكن القول انك رضيت عن نتائج رحلتك الى بغداد، وقلت : آثرت الاقامة بدار العلم، فشاهدت أنفس مكان لم يسعف الزمن بأقامتي فيه .

ابو العلاء : ثم قلت «والله يحسن جزاء البغداديين، فلقد وفوني بما لا استحق، وشهدوا لي بالفضيلة على غيرعلم، عرضوا علي أموالهم عرض الجد، فصادفوني غير جذل بالصفات، ولا هش الى معروف الاقوام، ورحلت وهم لرحيلي كارهون ! »

صوت : وهكذا عدت الى منزلك، الى المعرة، ولزمته وسميت نفسك رهين المحبسين.

ابو العلاء : وكانت أمي قد توفيت قبل ان القاها، وكانت رحمها الله، قد حاولت ثنيي عن السفر الى بغداد، فأشتد جزعي عليها وترك فقدها في حياتي فراغاً كبيراً وعميقاً . كنت اشبه ما اكون بالطفل الرضيع الذي فقد أمه، وكنت لا انساها لا في يقظة ولا في منام، وقد طالما رددت :

اذا نمت لاقيت الاحبة بعدما
طوتهم شهور في التراب وأحوال

صوت : إن مراثيك لأمك تشجينا حقا، ومنها ندرك مدى العاطفة التي كانت تربطك بها وانت القائل :

العيش ماضٍ فأكرم والديك به
والأم أولى بإكرام واحسان
وحسبها الحمل والإرضاع تدمنه
أمران بالفضل نالا كل إنسان

صوت : وغضي في عرضنا لوقائع حياتك، فنذكر انك بعد عودتك الى المعرة، لم تخرج قط منها، بل لم تترك منزلك إلا مرة واحدة. . .

ابو العلاء : يوم الح أهل بلدتي ان اشفع لهم الى صالح بن مرادس، وكان أميراً بدوياً أحتل المعرة . . .

صوت : ويوم عدت الى المعرة من بغداد كنت في نحو الاربعين من عمرك، وتعتبر هذه السن الحد الفاصل بين طورين من حياتك . في الطور الاول كنت أديبا، لا تخالف بقية الادباء إلا في تلويحات قليلة، ولكنك في الطور الثاني، أصبحت أبا العلاء الذي استحق لقب شاعر الفلاسفة وفيلسوف الشعراء. ولكن قبل ان نشرع في الحديث عن آثارك النثرية وشعرك وفلسفتك، أود ان اقول انك كنت انسانا مثلنا، اكل وشرب وتلذذ مثل كل الناس، لأنك مثلهم مركب من لحم ودم، وذلك لا يعيبك في شيء، ولا يضير عصمتك .

ابو العلاء : ألم يكن لي دماغ وقلب؟ أوَلست مركّبا من نفس وجسد؟

صوت : ولقد تغزلت مثل الشعراء، لأنك أحببت مثلهم، فأنت لم تقل عبثاً :

أيا دارهـا بـالخيف ان مـزارهـا
قـريـب ولكـن دون ذلـك أهـوال

ابو العلاء: وقلت ايضا :

أيـا جـارة البيـت الممنـع جـاره
غـدوت ومـن لي عنـدكـم بمقيـل
لغيـري زكـاة من جمـال فـان تكن
زكـاة جمـالي فـاذكـري ابن سبيـل

صوت : ونكتفي بهذا القدر من الرد على الـذين توهموا أنك براء مما يسميه غيرنـا الضعف البشـري، لاينقصـك شيء من الكمال. وقبل ان نبدأ الكلام عـلى آثارك، نقـول انك تركت الدنيا ولزمت بيتك في المعرة، فجاءت الدنيـا الى بيتك الذي اصبح محجة لكبار العلماء والأدباء وطـلاب العلم. وكنت تملي على بضع عشرة محبرة في فنون العلم، ومكثت خمسـا واربعين سنـة لا تأكـل اللحم ؛ تزاهـداً، وتقتصـر على الحب والثمـر، ولا سيما العـدس والتين. وظللت قـابـعا في منزلك عاكفا على التأليف والتصنيف والتعليم حتى توفيت سنة ٤٤٩ هجـرية المـوافقة ١٠٥٨ ميلادية، ولك من العـمر خمس وثمانون سنة. وقد بلغت مؤلفـاتك ستـين مؤلفـا، تستغـرق اربعـة آلاف ومـائـة وعشرين كراسـة، في موضـوعات مختلفـة، موزعـة بين الـزهد، والعـظات، وتمجيـد الخـالق، والنحو والعلوم اللغوية، وشرح دواوين الشعر، وغير ذلـك شـعرا ونثرا. فأنت شاعر في ديوانك « سقط الزنـد » و« ضوء السقط » واغراض هذين الديوانين فخر ورثاء ووصف ومدح .

ابو العلاء : وانا ناقد في « رسالة الغفران » ، توليت فيها النقد اللغوي والنحوي، وكنت فيها ساخراً من طراز معلم .

صوت : وفي ديوانك « اللزوميات » كنت فيلسوفا، فطرقت جميع القضايا التي تشغل العقل الانساني ولكنك لم تبالِ في لزومياتك بخلق الصور البيانية، بل كل ما اردت هو ان تفض بعض المشاكل الفكرية . . . ويطيب لي ههنا ان اشير الى ان امين الريحاني المفكر والاديب اللبناني ترجم اللزوميات الى الانكليزية . . .

ابو العلاء : شكرا لك على هذه الاشارة، وشكرا للريحاني على ترجمته « اللزوميات » . . . وقد عالجت كذلك هذه القضايا الفكرية في كتابي «الفصول والغايات » . وقد توخيت فيها الصدق والجرأة لانني جعلتها سجل حكمتي . . .

صوت : غير ان شعرك الذي يغلب عليه الحرص على اداء الفكرة، تكثر فيه الفاظ يتداولها الفلاسفة او المشتغلون بالفلسفة، ولكن منه ما يفيض بالعاطفة، ومنه ما تملاءه الصور الجميلة، ولعل اشهر قصائدك التي تفيض عاطفة مرثاتك التي اقمت فيها على البشرية والكون أروع مناحة، ومطلعها :

غير مجدٍ في ملتي واعتقادي
نوح باكٍ ولا ترنم شادي

فهل لك ان تسمعنا اياها ؟

**ابو العلاء :** غير مجد في ملتي واعتقادي
نوح باك ولا ترنم شاد
وشبيه صوت النعي اذا
قيس بصوت البشير في كل ناد
أبكت تلكم الحمامة أم غنت
على فرع غصنها المياد
صاح، هذي قبورنا تملأ الرحب
فأين القبور من عهد عاد
خفف الوطء ما اظن اديم الارض
إلا من هذه الاجساد
وقبيح بنا وان قدم العهد
هوان الآباء والاجداد
سر ان اسطعت في الهواء رويدا
لا اختيالا على رفات العباد
ربَّ لحد قد صار لحدا مرارا
ضاحك من تزاحم الاضداد
ودفين على بقايا دفين
في طويل الازمان والاباد
تعب كلها الحياة فما اعجب
إلا من راغب في ازدياد
ان حزنا في ساعة الموت اضعاف
سرور في ساعة الميلاد
خلق الناس للبقاء وضلت
امة يحسبونهم للنفاد

انما ينقلون من دار اعمال
الى دار شقوة او رشاد
ضجعة الموت رقدة يستريح الجسم
فيها والعيش مثل السهاد

صوت : شكرا، يا ابا العلاء يا من وُصفت بأنك جوهرة جاءت الى الوجود وذهبت ! ودعني في نهاية هذا اللقاء اسمعك ما قاله فيك عميد الادب العربي في عصرنا، طه حسين، وكان مثلك مكفوفاً : « ابو العلاء هو الفيلسوف الفذ الذي التزم ما لا يلزم عند المسلمين : في سيرته ولفظه ، فحرّم الحيوان ، والتزم النبات ، وأبى الزواج والنسل ، وأراد اعتزال الناس ! »

# إبن حزم : مجموعة المواهب والعبقريات
(٩٩٤ - ١٠٦٤)

صــوت : اسرة إبن حزم، اسرة نبيلة من مولّدي الاندلس مثلت دورا اساسيا وثقافيا مرموقا في آخر الدولة المروانية. أصلها من كورة لبلة في غرب الاندلس. فرعها الكبير أبو محمد علي بن أحمد، المعروف اطلاقا بإبن حزم، أشهر ممثلي الثقافة العربية الاندلسية، وفيه يقول إبن بشكوال : « كان أبو محمد أجمع أهل الاندلس قاطبة لعلوم الاسلام واوسعهم معرفة، مع توسعه في علم اللسان ووفور حظه من البلاغة والشعر والمعرفة بالسير والأخبار . »

وقريب من هذا القول قول إبي مروان بن حيان فيما يروي عنه :

« كان أبو محمد حامل فنون من حديث وفقه وجدل ونسب وما يتعلق بأذيال الأدب مع المشاركة في كثير من أنواع التعليم القديمة من المنطق والفلسفة . »

واخيرا، وليس آخرا انقل قولا لشيخ جليل هو الذهبي في ابن حزم الذي نلتقيه اليوم :

« كان اليه المنتهى من الذكاء، وحدة الذهن، وسعة العلم بالكتاب والسنّة والمذاهب والملل والنحل العربية

والآداب، والمنطق والشعر، مع الصدق والديانة والحشمة، والسوّدد، والرياسة، والثروة، وكثرة الكتب . . . »

ولما كان الشيء بالشيء يذكر فانني أقول في هذا المجال ان جلد إبن حزم في التأليف والمراجعة والكتابة لم يعرف قبله إلاّ لابي جعفر الطبري، المشهور بأنه اكثر أهل الاسلام تصنيفاً . . .

إبن حزم : هذا هو الواقع، يا سيدي . . .

صـوت : وقد نقل ياقوت وغيره عن صاعد الاندلسي قوله نقلا عن ابنك أبي رافع :

« ولقد اخبرني ابنه الفضل، المكنى أبا رافع ان مبلغ مؤلفات ابيه في الفقه والحديث، والاصول، والنحل والملل، وغير ذلك من التاريخ والنسب وكتب الأدب، والرد على المعارضين، نحو اربعمائة مجلد تشتمل على قريب من ثمانية الف ورقة. وهذا شيء ما علمناه في احد، ممن كان في دولة الاسلام قبله، إلا لأبي جعفر بن جرير الطبري . »

إبن حزم : وهنا أسمح لنفسي بالقول ان ما كنت اكتبه يوميا يعدل بأربع عشرة ورقة. ولم يهدأ نشاطي بالطبع، إلا بوفاتي في بلدتي الصغيرة منت ليشم، في ٢٨ شعبان سنة ٤٥٦ هجرية، الموافقة ١٥ آب سنة ١٠٦٤ ميلادية .

صـوت : عفوا، يا إبن حزم . . . سنعود في سياق حديثنا الى حياة التأليف هذه، التي لم تكن هادئة مطمئنة اطلاقا.

فدعنا الآن نبدأ من البداية، أي من تاريخ مولدك الذي كان في آخر رمضان سنة ٣٨٤ هجرية، الموافق في ٧ تشرين الثاني سنة ٩٩٤ ميلادية، واسرتك في أوج مجدها .

إبن حزم : كان أبي أبو عمر من علماء قرطبة، ومن ذوي الجاه العريض، موصوفا بالخير، معروفا بالحكمة، وحسن الادارة، والتدبير، فضلاً عن اهتمامه بالكتابة ونظم الشعر .

صـوت : وكان وزيرا في الدولة المروانية، عهد سيادة الاسرة العامرية في أواخر القرن الرابع الهجري، ولكنه قاسى المحن اثناء اضطرابات قرطبة اثر هذه الاسرة، وكانت وفاته في ذي القعدة من سنة ٤٠٢ هجرية .

إبن حزم : وقد انشدني، رحمه الله في بعض وصاياه :

اذا شئت أن تحيا غنيا، فلا
تكن على حالة الا رضيت بدونها

صـوت : حسنا . . . وهكذا نسأت نشأة رفيعة، وانصرفت الى التحصيل والدرس، فكان استاذك في مختلف انواع العلم ،عبد الرحمن إبن أبي يزيد الازدي .

إبن حزم : وتلقيت بعض الدروس على أحمد بن الجسور، ولم تمنعني الاضطرابات السياسية، في قرطبة، والتي ذكرتها قبل قليل، في آخر عهد الاسرة العامرية، من متابعة التعليم، مع انها أصابت أسرتنا بالمحن الكثيرة، وخصوصا بعد ان اعيد هشام الثاني الى العرش .

صــوت : صحيح، وقد رويت ذلك في كتابك «طوق الحمامة في الالفة والألّاف» هذا الكتاب الشهير الذي سنتناوله بالحديث لدى بلوغنا آثارك القيمة التي تـراوح بين الفقه ، وأصول الدين ، والمذاهب ، والأدب . . .

إبن حزم : وهو كذلك . . . وقد أكرهت على مغادرت قرطبة الى المرية سنة ٤٠٤ هجرية ، أي بعد وفاة أبي بسنتين اثنتين . ذلك بأن الحرب الأهلية اشتدت في قرطبة وهجم البربر على قصرنا ببلاط مغيث ودمروه .

صــوت : وفي المرية ، حيث رحت تنتظر هدوء العاصفة ، وكان الأمير علي بن حمود ، صاحب مـالقة ، يتـآمر مـع خيران ، الفتى العامري ، صاحب المرية ، على خلع المستعين الذي خلف هشام الثاني على عرش قرطبة . فتم لهما ذلك سنة ٤٠٧ هجرية .

إبن حزم : الا أنه لم يصبني من هذا الانقلاب في الحكم سوى السجن . لأن خيـران اعتبـرني متـآمـراً لمصلحـة الأمويين ، فسجنني مع صديقي أحمد بن اسحاق ، بضعة أشهر ، ثم نفانا . فنـزلنا عـلى حاكم حصن القصر .

صــوت : ولما بويع للمرتضى بعد ذلك ببضعة أشهر ، أسرعت الى بلاط قرطبـة لتستعيد منصب أبيـك في الوزارة للملك الجـديد . واشتـركت في حرب غـرنـاطـة ، وأسرت مدة قصيرة .

إبن حزم : وما لبث أن اضطررت الى مغادرة قرطبة من جديد لما استأثر القاسم بن حمود في الحكم، واصبح الخليفة.

وبقيت منفيا حتى خلع القاسم بن حمود سنة ٤١٤ هجرية، واعتلى العرش عبد الرحمن الخامس، المستظهر بالله.

صـوت : وكان صديقك، فعيّنك وزيرا، وما هي الا بعض اسابيع حتى قتل المستظهر . . .

إبن حزم : . . . وأُلقيت أنا في السجن .

صـوت : وبعد ذلك اصبحت وزيرا لهشام الثالث الملقب « المعتمد » وهو آخر خلفاء الأمويين، الذي حكم من سنة ٤١٨ الى ٤٢٢ هجرية. وهنا تبدأ حياتك الثقافية، وأنت بعد دون الاربعين من العمر.

إبن حزم : لقد سئمت نفسي السياسة لكثرة ما عانيت من التقلبات، فابتعدت عن الاعيبها بعد انهيار الدولة الاموية، وتفرغت للتأليف، مجتهدا في نشر آرائي والدفاع عنها، والرد على مناوئيها.

صـوت : وكما ذكرنا سابقا، فقد كانت حياة التأليف هذه عاصفة كحياتك السياسية. ذلك بأن خصومك دينيا وفلسفيا أثاروا حولك أعاصير الجدل، وعصف الاضطهاد السياسي بمؤلفاتك تمزيقا وتحريما واحراقا. وليس هنا مجال التبسط في اسباب كل ذلك . . . فماذا فعلت لما وصلك النبأ باحراق كتبك في اشبيلية علنا بأمر من المعتمد بن عبّاد ؟

إبن حزم : قلت الأبيات الأربعة هذه :

وان تحرقوا القرطاس، لاتحرقوا الذي
تضمّنه القرطاس، بل هو في صدري

يســير معي حيث استقلّت ركــائبي
وينـزل ان أنـزل، ويـدفن في قبـري
دعــوني مـن احــراق ورق وكــاغــد
وقولوا بعلم كي يرى الناس من يدري
والا فـعــودوا في المكــاتــب بــدأة
فكم، دون ما تبغون، لله من ســتر

صــوت : على ذكر المعتمد ابن عباد احب ههنا ان اقول ان أبا رافع الفضل، احد ابنائك الثلاثة الذين كانوا ادباء علماء، كان نبيها فاضلا مصنفا. وقد دخل في خدمة صاحب اشبيلية هـذا. وكان في سياسته حكيما، بعيد النظر. ومما يروى ان المعتمد غضب على عمه وهمّ بقتله لامر رابه منه. فدعا بوزرائه وسألهم :
من يعرف منكم من الخلفاء وملوك الطوائف من قتل عمه عند ما همّ بالقيام عليه ؟
فتقدم ابنك أبو رافع وقال :
ما نعرف، ايدك الله، الا من عفا عن عمه، بعد قيامه عليه وهو المأمون، عفا عن عمه ابراهيم بن المهدي، من بني العباس .
فقبّله المعتمد بين عينيه، وشكره، وأحضر عمه وأحسن اليه. وقد قُتل المعتمد مع ابي رافع في وقعة الزلاقة في منتصف رجب سنة ٧٩ هجرية .

إبن حزم : لك الشكر على هذه المعلومات ، يا سيدي . . ماذا عندك بعد ؟

صــوت : عندي الكثير ، يا سيدي. . . فأنت على الرغم من شدة

وطأتك على خصومك ، ومرارة لسانك في مخاطبتهم ، لم تكن تتحامل عليهم ، ولا تنسب اليهم ما لم يقولوه ، مجتهداً دائماً في انصافهم ما أمكن . . .

ابن حزم : كنت أروي ما يقولونه بلا تحريف وأردّ عليهم . واذا كان قد نسب الي الحدة في المجادلات والمناظرات وسلاطة اللسان ، فمردّ ذلك الى مرض عصبي اصبت به . . .

صـوت : ولم تعدم الاصدقاء والمريدين الذين كانوا يتعصبون لك ويدافعون عنك ، ويساعدونك على نشر آرائك . . .

ابن حزم : . . . وذلك لمجابهة خصومي الذين كانوا يتعصبون علي .

صـوت : ومن اشهر مريديك في حياتك احمد بن رشيق . . . وابن الرومية المعروف بابن فرتون بعد وفاتك التي كانت سنة ٤٥٦ هجرية . فقد انتصر لك على استاذه ابن زرقون الذي كتب كتاب « المعلى » ردا على كتابك « المحلّى » مجددا حملة القاضي ابن العربي عليك . ذلك بأن المناقشات تجاوزت حياتك ، فظلت كتبك عرضة للذم والتقريظ ، ومحور حركة نقدية ناشطة . وقد قام ابن فرتون بانفاق المال الكثير في استنساخ كتبك واظهارها ونشرها .

ابن حزم : بوركت يداه . . . .

صـوت : وتشاء المصادفات كذلك ان يأتي المتصوف الاندلسي الشهير ابن عربي ، فينتصر لك أيضاً ، على نقيض ابن

العربي القاضي ، فيختصر كتاب « المحلى» ويقوم بالمساهمة في نشر مؤلفاتك .

إبن حزم : وبوركت يدا ابن عربي أيضاً . . .

صـوت : على انك دخلت مع ذلك حقبة طويلة من النسيان كسائر الادباء الاندلسيين . ولكن الانظار تتجه اليوم اليك ، بعد ان اتجهت من قبل الى الفلاسفة والمؤرخين الاندلسيين عند بدء نهضة الآداب العربية . فأنت اليوم موضع أهتمام المستشرقين والشرقيين من علماء وادباء ومؤرخين ، على السواء ، ودراستهم لاظهار مآثرك وابرازك مثالا صالحا للثقافة العربية الاندلسية الصحيحة .

إبن حزم : لقد أثلجت صدري بأقوالك ، يا سيدي . فلقد سبق لي ان فخرت بعلمي ، وشكوت تألب الحسّاد علي في قصيدة خاطبت بها ، ذات يوم ، قاضي الجماعة بقرطبة ، فقلت :

أنا الشمس في جو السماء منيرة
ولكن عيبي ان مطلعي الغرب
ولو أنني من جانب الشرق طالع
لجد على ما ضاع من ذكري النهب
وان رجالا ضيّعوني لضيّع
وان زمانا لم أنل خصبه جدب

صـوت : وليت المجال يتسع لاستعراض اثارك ولكننا نكتفي بالتعرض للكتاب الذي وعدنا المستمعين به. وهو بالطبع اثرك الشهير « طوق الحمامة في الالفة

والألاّف» وهو أول تصانيفك، وأدق ما كتب العرب في دراسة الحب، وتعداد اسبابه، وتنوع مظاهره وخطوراته، وقد الفته وأنت بعد في الرابعة والثلاثين مقيما بشاطبة، ولم تكن قد اعتزلت السياسة بعد . . .

إبن حزم : . . . ولا تعمقت في دراساتي الفقهية. في هذا الكتاب فصّلت كل ما ذكرت ومثلت عليه بأخبار المحبين واشعارهم، مع نماذج من شعري أنا، وأكثر مواده مستمدة من اختباراتي الخاصة واختبارات معاصري .

صوت : . . . فأتى الكتاب بصورة واقعية، صريحة، واضحة لشخصيتك، ولحياة عصرك من الناحية العاطفية، ونال شهرة واسعة في الشرق والغرب. وتعددت الابحاث فيه ونشرت نماذج منه، وترجم الى عدد غير قليل من اللغات الأوروبية كالفرنسية، والانكليزية، والالمانية، والايطالية، والاسبانية . . . فماذا دعاك الى تأليف « طوق الحمامة » ؟

إبن حزم : لقد ذكرت ذلك في فاتحة الكتاب عندما قلت، مخاطبا صديقي عبيد الله بن عبد الرحمن بن المغيرة إبن أمير المؤمنين الناصر : « وكلفتني، اعزّك الله، ان اصنّف لك رسالة في صفة الحب ومعانيه واسبابه واعراضه وما يقع فيه وله على سبيل الحقيقة لا متزايدا ولا مفتنّا، ولكن موردا لما يحضرني على وجهه وحسب وقوعه، حيث انتهى حفظي ووسعه باعي فيما اذكره. فبدرت الى مرغوبك، ولولا الايجاب لك لما تكلفته، فهذا من

الفقر، والاولى بنا مع قصر اعمارنا، الاّ نصرفها فيما نرجو به رحب المنقلب، وحسن المآب غدا، الى آخره . . . »

صـوت : ولقد كان من حسن طالعنا وطالع الأدب العربي، وضعك هذه الرسالة التي قسمتها الى ثلاثين بابا تكاد تكون جامعة مانعة في هذا الموضوع الحيوي الجدّي : الحب . . ودعنا الآن ننتقل الى شعرك الذي سيكون به مسك الختام في هذا اللقاء الممتع. هلاّ اسمعتنا ما قلت في تقلّب احوال الدنيا، وزوال نعيمها ؟

إبن حزم : هل الدهر إلاّ ما عرفنا وادركنا
فجائعه تبقى، ولذاته تفنى
اذا أمكنت فيه مسيرة ساعة
تولت كمرّ الطرف، واستخلفت حزنا
الى تبعات في المعاد، وموقف
نودّ لديه اننا لم نكن كنا
حصلنا على هم، واثم، وحسرة
وفات الذي كنا نلذّ به منّا
حنين لما ولى، وشغل بما اتى
وهمّ بما يرجى بعيشك لا تهنا
كأن الذي كنا نسر بكونه
اذا حققته النفس، لفظ بلا معنى

صـوت : ولك في ما يقرب من هذا المعنى :
لا تشتمن، حاسدي، ان نكبة عرضت
فالدهر ليس على حال بمتّرك

ذو الفضل كالتبر، طورا تحت ميفعه
وتـارة قـد يـرى تـاجـا عـلى ملك

إبن حزم : واسمع ما قلت في عزلتي :
لئن اصبحت مـرتحـلا بـشخـصي
فـروحـي عنـدكـم دومـا مـقـيـم
ولـكـن لـلعـيـان لـطـيـف معـنى
لـه سـأل المعـايـنـة الـكـليـم

## الغزالي : حجة الاسلام وزين الدين
## (١٠٥٩ - ١١١٢)

صـوت : يقول الدكتور جورج شيرر الحائز على الدكتوراه في الفلسفـة، في المقدمـة التي وضعها لـرسالـة الغزالي القصيرة « ايها الولد » التي ترجمها الى الانكليـزية، ونشرتها سنة ١٩٥١ ميلادية « اللجنة الدولية لترجمة الروائع الانسانية » بموجب الاتفاق المعقود في كانون الاول من سنة ١٩٤٨ بين منظمة الاونسكو والحكومة اللبنانية ما نصه، منقولا الى العربية بقلم الدكتـور عمر فروخ : « لقد انقضى على موت الغزالي اكثر من ثمانية قرون، ولكن قول السبكي الذي جاء بعد الغزالي بمائتين وخمسين عاماً، لايزال الى الآن معبّرا عن رأي العالم الاسلامي : « لو كان نبيٌّ بعد محمد لكان الغزالي ! » ثم يثبت السبكي رؤيا للشاذلي، وهو صوفي عاش في القرن السابق للسبكي فحواها انه رأى الرسول في المنام يفاخر موسى وعيسى ويسألهما ان يدلاه على رجل صالح في امتيهما كالغزالي، فلم يستطيعا. ولا يزال ما كتبه الغزالي في الفلسفة وعلم الكلام والفقه موثوقاً به الى اليوم، ويعد كتابه الشامل « احياء علوم الدين »وهـو في اربعة اجـزاء تضم اكثر من الف وستمائة صفحة - اشهر كتبه. ولكن

رسالته القصيرة « ايها الولد »، وقد كتبها في اواخر حياته ملخصاً فيها آراءه المتعلقة بالمقصودِ الاقصى من الدين، اعظم اهمية في الاغلب. »

وقبل ان نستعرض حياة حجة الاسلام الامام ابي حامد الغزالي أود ان اسمعكم ما يختاره لنا هذا الامام الكبير من « أخلاقياته » التي يتضمّنها كتابه « إحياء علوم الدين » الذي ألفه في دمشق وعلمه في المدرسة الملحقة بالجامع الاموي. فهو في رأي السيد المرتضى « في رأس كتب الغزالي لأسباب منها ان اسمه يأتي في الترتيب الابجدي في رأس قائمة كتبه . ثم انه اشرف كتبه لما يكشفه من علوم الآخرة. ثم ان الكتاب مشهور شهرة الشمس في فلكها . » ويقال : « لو فقدت كتب الاسلام كلها وبقي « الاحياء » لأغنى عنها » !.

الغزالي : اني اختار الفصل الموسوم « اصول الاخلاق » فاسمع يا سيدي : « امهات الاخلاق واصولها اربعة : الحكمة والشجاعة، والعفة والعدل، ونعني بالحكمة حال للنفس بها يُدركُ الصواب من الخطأ في جميع الافعال الاختيارية، ونعني بالعدل حالة للنفس وقوة بها تسوس الغضب والشهوة وتحملها على مقتضى الحكمة وتضبطها في الاسترسال والانقباض على حسب مقتضاها. ونعني بالشجاعة كون قوة الغضب منقادة للعقل في إقدامها واحجامها. ونعني بالعفة تأدب قوة الشهوة بتأديب العقل والشرع. فمن اعتدال هذه الاصول الاربعة تصدر الاخلاق الجميلة

كلها . اذ من اعتدال قوة العقل يحصل حسن التدبير وجودة الذهن وثقابة الرأي واصابة الظن والتفطن لدقائق الاعمال وخفايا آيات النفوس. ومن افراطها تصدر الجربزة والمكر والخداع والدهاء، ومن تفريطها يصدر البله والغمارة والحمق والجنون. واعني بالغمارة قلة التجربة في الامور مع سلامة التخيل، فقد يكون الانسان غمرا في شي دون شيء. والفرق بين الحمق والجنون ان الاحمق مقصوده صحيح ولكن سلوكه الطريق فاسد، فلا تكون له روية صحيحة في سلوك الطريق الموصل الى الغرض، واما الجنون فانه يختار ما لا ينبغي ان يختار ، فيكون اصل اختياره وايثاره فاسدا .

صوت : واما خلق الشجاعة ؟

الغزالي : واما خلق الشجاعة فيصدر منه الكرم والنجدة والشهامة وكسر النفس والاحتمال والحلم والثبات وكظم الغيظ والوقار والتودد وامثالها، وهي اخلاق محمودة. واما افراطها وهو التهور فيصدر منه الصلف والبذخ والاستشاطة والتكبر والعجب. واما تفريطها فيصدر منه المهانة والذلة والجزع والخساسة وصغر النفس والانقباض عن تناول الحق والواجب.

صوت : واما خلق العفة ؟

الغزالي : واما خلق العفة فيصدر منه السخاء والحياء والصبر والمسامحة والقناعة والورع واللطافة والمساعدة والظرف وقلة الطمع. واما ميلها الى الافراط او التفريط

فيحصل منه الحرص والشره والوقاحة والخبث والتبذير والتقتير والرياء والهتكة والمجانة والعبث والملق والحسد والشماتة والتذلل للاغنياء واستحقار الفقراء وغير ذلك .

صـوت : احسب اننا وضعنا أنفسنا في جو هذا اللقاء مع الامام الغزالي الذي سنتعرف الى سيرته ونقدم مختارات من آثاره القيّمة. هلا حدثتنا قليلا عن نسبك ومولدك ؟

الـغـزالي : ولدت في مدينة طوس بخراسان في بيت علم. فقد كان عمي فقيها. وكان والدي يشتغل بغزل الصوف. وقد توفي وانا بعد صغير السن، فوصى بي مع اخي احمد، صديقا له من المتصوفة، فربانا على العبادة والعلم، ونصح لنا بالالتحاق بمدرسة لتحصيل قوتنا.

صـوت : وهكذا انقطعتما الى العلم، وقد اصبح اخوك احمد عالما واعظا. اما انت فقد بدت عليك امارات الذكاء والنبوغ منذ الصغر. وقد درست في طوس وجرجان ونيسابور، فنهلت من العلم أفضل ما تلقّاه ابناء زمانك.

الغـزالي : في هذا المجال اود ان اشير الى حادثة كان لها اكبر الأثر في حياتي ونفسي، وقد جرت، وأنا بعد شاب، وفي اثناء رجوعي من جرجان الى طوس. فقد قُطعت علينا الطريق واخذ العيارون جميع ما معي ومضوا. فتبعتهم، فالتفت اليَّ مقدمهم، وجرى بيننا الحوار التالي :

ارجع ويحك وإلاَّ هلكت !

اسألك بالذي نرجو السلامة منه ان ترد عليَّ تعليقتي فقط، فما هي بشيء تنتفعون به.
وما هي تعليقتك ؟
كتب في تلك المخلاة هاجرت لسماعها وكتابتها ومعرفة علمها.
وكيف تدعي انك عرفت علمها وقد اخذناها منك فتجردت من معرفتها وبقيت بلا علم ؟

صوت : وماذا فعل ؟ هل اعاد اليك الكتب ؟

الغزالي : اجل، امر بعض اصحابه فسلَّم إلي المخلاة. فلما عدت الى طوس انصرفت الى حفظ التعليقة التي كتبتها في طوس غيباً، وقضيت في ذلك ثلاث سنوات. وقد علمتني تلك الحادثة درساً قاسياً، فما درست بعد ذلك فناً جديداً الا حفظته جيداً، حتى اتقنته وجعلته ملكة لي .

صوت : ورحلت الى نيسابور للتبحر في علم الكلام على احد كبار الصوفيين « إمام الحرمين » ، فدرست المذاهب واختلافها، وتعلمت الجدل والمنطق، وقرأت الفلسفة، وشرعت مذ ذاك بالكتابة والتأليف.

الغزالي ولعل نشأة شكوكي في العلم كانت هناك أيضاً .

صوت : وتعرفت بعد وفاة « إمام الحرمين » بنظام الملك، وزير الدولة السلجوقية، وكان قد اسس في بغداد ما عُرف بالمدرسة النظامية، وتعتبر اول جامعة للعلوم بالمعنى الحديث. فعينت استاذاً فيها سنة ٤٨٤ هجرية وأصبت شهرة عريضة « لفصاحة لسانك، ونكتك

الدقيقة، واشاراتك اللطيفة . »

الغـــزالي وانصرفت في بغداد الى التعميق في دراسة الفلسفة، فطالعت كتب الفارابي وابن سينا، والفت على أثـر ذلـك كتابي « مقـاصد الفلسفـة » ذلك بـأني اردت الابتداء بشرح آراء الفلاسفة قبل الاقدام على نقدها، وابطالها .

صوت : وعلى الرغم من ان كتابك هذا يمتاز بالبحث العلمي والتزام جانب الحياد التام، إلاّ ان كل الدلائل تظهر انك لم تؤلفه عن رغبة مجردة في العلم، بـل انك سعيت لطمأنة شكوكك الفكرية، وتهدئة اضطرابـك الداخلي. ولعل ابلغ دليل على ذلك انك الفت بعد ذلك كتابك الشهير« تهافت الفلاسفة » الذي ابديت فيه شكوكك في قيمة العلم وبراهينك المنطقية.

الـغـــزالي : وبلغت شكوكي درجة جعلتني اعتزل التعليم، واغادر الاهل والولد والمال، واخـرج من بغداد بعـد اتمام « تهافت الفلاسفة » الذي انتقدت فيه فلسفة الفارابي وابن سينا. غير انني لم افعل ذلك إلاّ بعد مجاهدات نفسية شديدة، وكثير من التردد.

صوت : لقـد ايقنت ان مثلك الاعلى هـو اسمى من هـذه الدنيا، وان بـاستطاعتـك مكافحـة رذائلها وإبـطال علومها من غير طريق العلم. فخرجت قاصداً الحج الى بيت الله الحرام، وبقيت عشر سنين تائباً تتنكر في زي الفقراء، من دمشق الى القدس، الى مصر، الى الاسكندرية.

الغــزالي : اجل، وقد أمضيت هذه السنين العشر منقطعا الى العبادة، زاهدا، ممارساً التصوف مجاهداً النفس، اجول في البلدان زائرا المساجد، آوياً الى القفار، والمغاور، متعرضاً لشتى الوان المحن والمشاق !

صوت : واخيرا انتهيت من هذه الرحلة الطويلة، بعد ان قررت الدعوة الى الاصلاح من طريق العمل. فعمدت الى تأليف كتابك المعروف « إحياء علوم الدين » ثم رجعت الى نيسابور، وانقطعت الى الدرس والوعظ والعبادة .

الـغــزالي : لقد شعرت يا سيدي، انه لا يليق بي البقاء في العزلة والابتعاد عن الناس بعد ان اطلعت على مذاهب الفرق الفلسفية المختلفة، ومذاهب علم الكلام وأصبح لدي الاختبار الواسع في البحث عن الحق والوصول اليه عن طريق التصوف. فلما دعاني السلطان للتعليم في المدرسة النظامية ذهبت الى نيسابور.

صوت : وخيّل اليك للوهلة الاولى ان هناك من حمل السلطان على دعوتك للتعليم في المدرسة النظامية، ولكنك سرعان ما عرفت ان الله هو الذي حرك قلبه وحمله على تمهيد السبيل امامك لمكافحة شرور الزمان، بعد ان زال سبب عزلتك وابتعادك عن الناس

الغــزالي وعدت ثانية الى الحياة العامة بدافع جديد، وغاية جديدة. لقد سعيت وراء الاستقامة في الحياة، وهو الذي ردني من التدريس الى اعتزال العالم، وهو الذي

يخرجني الآن من عزلتي الى التدريس ثانية. لقد كان العالم يشكو من مرض اعرف علاجه، وكما شكوت من قبل ووجدت الشفاء والنجاة، ينبغي لي ان اقود الآخرين في الطريق التي جهدت في اكتشافها.

صوت : ومن الكتب كلها التي ألفتها في اواخر حياتك ثلاثة وحسب تبحث في القرآن والتشريع، وبقيتها تبحث في الصوفية على الأخص، وفي سلوك طريق الصوفية في الاسلام. ونود ان نشير اشارة عابرة الى اشهر كتبك الفلسفية «المنقذ من الضلال» الذي الفته في اواخر ايامك، والذي قلما نجد في الآداب العالمية من امثاله من ناحية الموضوع الا القليل. فهلا اعطيتنا فكرة عامة عنه ؟

الغزالي : انه قصة حياتي الفكرية المضطربة، وصورة النفس المفعمة بالايمان، الميالة الى الحق، باحثة عن اليقين اذا لم اقل انها قصة ألم نفسي ونزاع عميق بين العقل والالهام، كتبته بأسلوب سهل يتميز بطابع الصدق والامانة والبساطة والنقاء . . .

صوت : . . .فجاء اوحد نوعه في الثقافة الاسلامية، وقليل الشبيه في الأدب العالمي بأسلوبه ومنحاه ووحدة غرضه وإستقامة منهجه، فيه تشرح تطور تفكيرك وشكوكك ومباحثك في مختلف المذاهب قبل الوصول الى رأي تطمئن اليه.

الغزالي : ذلك هو الواقع يا سيدي.

صوت : في نهاية هذا اللقاء الذي كنا نود ان يطول للاستزادة

من المختارات القيمة التي يمكننا الافادة منها، اود ان تقرأ لنا شيئا من الفصل الذي عقدته حول فائدة العمل في كتابك « ايها الولد » فما رأيك ؟

الغزالي : كما تشاء، فليسمع الجميع ما أقوله في هذا المجال : « ايها الولد ، لاتكن من الاعمال مفلساً، ولا من الأحوال خالياً، وتيقن ان العلم المجرد لا يأخذ باليد. مثاله لو كان على رجل في برية عشرة أسياق هندية مع اسلحة اخرى، وكان الرجل شجاعا واهل حرب، فحمل عليه اسدٌ عظيم مهيب، فما ظنك ؟ هل تدفع الاسلحة شره عنه بلا استعمالها وضربها؟ ومن المعلوم أنها لا تدفع إلا بالتحريك والضرب ، فكذا لو قرأ رجل مائة ألف مسألة علمية وتعلمها، ولم يعمل بها، لا تفيده إلا بالعمل، ومثله أيضاً لو كان لرجل حرارة ومرض صفراوي يكون علاجه بالسكنجبين والكشكاب ، فلا يحصل البرء إلا باستعمالها .

ولو قرأت العلم مائة سنة وجمعت ألف كتاب، لاتكون مستعداً لرحمة الله تعالى إلا بالعمل « وان ليس للانسان الا ما سعى » ، « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً » ، « جزاءً بما كانوا يكسبون » ، « ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نُزُلاً خالدين فيها لا يبغون عنها حَوَلا » ، « فخلف من بعدهم خلق أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئا . . . »

صوت : ليت الناس يسمعون ويعـون ما يسمعـون من هذا الكلام الحكيم . . . فهل لديك ما تضيفه على ما سمعنا قبل استئذانك بالانصراف ؟

الـغــزالي : بالطبع، فانا أمضي في القول : « ايها الولد، العلم بلا عمل جنون، والعمل بغير العلم لا يكون. واعلم ان العلم الذي لا يبعدك اليـوم عن المعاصي، ولا يحملك على الطاعة، لن يبعدك غدا عن نار جهنم، واذا لم تعمل بعلمك اليوم ولم تُدارك الأيام الماضية تقول غدا يوم القيامة : « فأرجعنـا نعمل صـالحاً » فيقال : « يا أحمق أنت من هناك تجيء » . أيها الولد اجعل الهمة في الروح، والهزيمة في النفس، والموت في البدن، لأن منزلك القبر، وأهل المقابر ينتظرونك في كل لحظة متى تصل اليهم ؟ إياك إياك أن تصل اليهم بلا زاد . »

## ابن زُهر : أسرة أندلسية نابغة في الطب والأدب، والشعر، والسياسة

### أبو العلاء زُهـر ( . . . ـ ١١٣١ )
### أبو مروان بن زُهر ( ١٠٩١ ـ ١١٦٢ )
### الحفيد بن زُهر ( ١١١٣ ـ ١١٩٨ )

صـوت : أسرة ابن زهر الاندلسية التي نبغ أفرادها في ميادين الـطب، والأدب والشعر، والسيـاسة، قـدمت مثلما قدمت أسرة ابن حزم الاندلسية الاخرى، ومن قبلهما أسرة موسى ابن شاكر ببنيهـا الثلاثة في المشـرق العربي، أجلّ الخدمات الى الحضارة البشرية. وكما سبق أن عرفنا القراء على موسى بن شاكر، وعرفناه على بنيه ومآتيهم العلمية لأنه تركهم أطفالاً، فاننا سنلتقي الآن بالحفيد بن زهر صاحب الموشح البديع « أيها الساقي اليك المشتكى » لنتعرف اليه اولاً، ثم إلى أبيه، ابي مروان عبد الملك بن العلاء، اشهر أبناء الاسرة ـ وكان يعتبره ابن رشد أعظم الأطباء منذ عهد جالينوس ـ واخيراً الى جده أبي العلاء زهر، فنكون قد تعّرفنا هكذا الى ثلاثة أجيال من أجيال هذه الاسرة الفذة . . .

الحفيد : أهلاً وسهلاً . . .

صـوت : بعد هذا التقديم اود يا ابا بكر ان أذكـر لك ان موشحك البديع نسب خطأ الى الخليفة الشاعر ابن

المعتز ألذي ملك يوماً وليلة وحسب. فنحن لا نفتأ نردده ونغنيه مع موشح «جادك الغيث اذا الغيث همى» للسان الدين بن الخطيب. فهلا اسمعتنا اياه؟

الحفيد : ولم لا؟ إنه من أحب شعري اليّ، وخصوصاً الموشحات التي نظمتها. وهذا هو :

ايها الساقي اليك المشتكى
قد دعوناك وان لم تسمع

وندیم همت في غرته
وشربت الراح من راحته
كلما استيقظ من سكرته
جذب الزق اليه واتكى
وسقاني اربعا في اربع

غصن بانٍ مال من حيث استوى
بات من يهواه من فرط الجوى
خفق الاحشاء موهون القوى
كلما فكر بالبين بكى
ويحه يبكي لما لم يقع

ليس لي صبر ولا لي جلد
يا لقومي عذلوا واجتهدوا
انكروا شكواي مما أجد
مثل حالي حقه أن يشتكي
كمد اليأس وذل الطمع

مـا لـعيـني عـشـيـت بـالـنـظر
انـكـرت بـعـدك ضـوء الـقـمـر
واذا مـا شئـت فـاسـع خـبـري
عشيت عينـاي من طـول البكـا
وبكى بعـضي عـلى بعضي مـعي

كـبـدي حـرّى ودمـعـي يـكـف
يـعـرف الـذنـب ولا يـعـتـرف
ايهـا المـعـرض عـما أصـف
قـد نمـا حـبي بـقـلبـي وزكـا
لا تخل في الحـب اني مـدعـي

صـوت: ومع ان شهرتك الواسعة تقوم، بوجه خاص، على شعـرك الجيد الجميـل في موضـوعـات شتى، فقـد اشتغلت بالسياسة وبالـطب، فلنتعرف اليـك برسم صورة لك بالخطوط العريضة. فمتى كان مولدك ؟

الحفيد : ولدت في اشبيلية في سنة ٥٠٧ هـ. / ١١١٣ م . وقد نسجت على منوال آبائي وأجدادي فتثقفت بـالطب والفقه واللغة والادب ، وتمرست بالسياسة، واتصلت بخدمة الملوك والامراء .

صـوت: وقـد نشأت صحيـح البنيـة، قـويـا، وبلغت حـد الشيخوخة دون ان تفقد قوة من قوى أعضائك . . .

الحفيد : . . . إللهم إلا بعض الثقل في السمع أصابني في اواخر حياتي.

صــوت : ويروى أنك كنت شديد البأس، تجذب قوساً ست عشرة أوقية ، وتلعب الشطرنج بمهـارة فائقـة. وقد تحليت بكرم النفس، وحسن الخصال . وفيك يقول ابن دحية صاحب كتاب « المطرب من أشعار اهل المغرب » : « كان شيخنا الوزيـر ابو بكـر بن زهر بمكان من اللغة مكـين، ومورد من الـطب عـذب معين. كان يحفظ شعر ذي الرمة، وهو ثلث لغـة العوب، مع الاشراف على جميع أقوال أهل الطب، والمنزلة العلياء عند اصحاب المغرب، مع سمو النسب وكثرة الاموال والنشب. صحبته زمانا، واستفدت منه أدباً جليلاً . »

الحفيد : ليس هذا الكلام يصدر من ابن دحية بمستغرب من امرىء مثله عرف بالموضوعية والانصاف والصدق في الرواية .

صــوت : اما في شؤون الطب فقد انصرفت الى الناحية العملية فيـه، فكنت ماهـراً في المعـالجـة، حسن التـدبـير، لا يدانيك في ذلك احد، الامـر الذي جاب اليـك الشهرة الذائعة في الاندلس والمغرب. ولكن لم يذكر من تآليفك الطبية غير رسائلك في الكحالة، او طب العيون .

الحفيد : صحيح ما تقول يا سيدي. وقد اتصلت مثـل ابي بأمراء دولة المرابطين في أواخر ايـامها، فعملت في خدمتهم. وبعدهم اتصلت بالموحدين، ولا سيما بأبي يوسفَ يعقوب المنصور بن يوسف المـوحدي، وقـد

دعاني الى بلاطه في مراكش، وجعلني طبيبه الخاص، ومنحني لقب الوزارة، واجزل لي الهبات والنعم.

صـوت : وكان برفقتك بنت اخت لك علّمتها الطب، فكانت ماهرة في فن التوليد وامراض النساء. سوى ان حظوتك عند السلطان أبي يوسف والجاه العريض الذي اصابك منه أثارا الغيرة الاكالة والحسد الشديد في نفس الوزير أبي زيد عبد الرحمن، فدس لك ولابنة أختك السم. وكانت وفاتكما سنة ٥٩٥ هـ. \ ١١٩٨ م ٠وحزن السلطان عليك حزنا عميقا، ورثاك، وامر بدفنك في حديقة الامراء. وقد خلفت، كأبيك من قبلك، ابناً وبنتاً وحسب.

الحفيد : لما كُنت في مراكش عند السلطان أبي يوسف الموحدي نظمت شعراً ضمنته شوقي الى ولدي الصغير الذي بقي في اشبيلية، قلت فيه :

ولي واحـد مثـل فـرخ القـطا
صـغـير تخلفـت قلبـي لـديـه
وأفـردت عنـه فيـا وحـشتـنا
لـذاك الشـخيص وذاك الـوجيـه
تـشـوقـني ، وتشـوّقـتـه
فيبـكي علـيّ، وأبـكي عـليـه
وقـد تعـب الشـوق مـا بيـننـا
فـمـنـه اليَّ، ومـني الـيـه

صـوت : وعرف السلطان بهذا الشعر، فأثر في نفسه، فبعث بالمهندسين الى اشبيلية بعد ان امرهم بأخذ رسم

بيوتك وقياساتها لكي يبنوا لك مثلها في مراكش. ففعلوا ذلك بأسرع ما امكن. وشيدت لك الدار المماثلة لها في مراكش، وفرشت كما هي مفروشة في اشبيلية، وطلب اليك نقل عيالك وحشمك وما شئت الى مراكش.

الحفيد : واحتال اليَّ السلطان حتى جئت الى الدار الجديدة فوجدتها مثل داري في اشبيلية. فحسبت نفسي في حلم لا في يقظة، فلما دخلت الدار الفيت ولدي الذي تشوقت اليه يلهو ويمرح فيها. فأخذتني فرحة عارمة !

صوت : دعنا نختتم هذا العرض السريع لسيرتك بالمقطع الشعري الجميل الذي نظمته لما شخت ووخط الشيب رأسك. فماذا قلت ؟

الحفيد : اسمع ما قلت في ذلك :

اني نظرت الى المرآة قد جليت
فأنكرت مقلتاي كل ما رأتا
رأيت فيها شويخاً لست أعرفه
وكنت اعهده من قبل ذاك فتى
فقلت اين الذي بالامس كان هنا ؟
متى ترحّل عن هذا المكان، متى ؟
فاستضحكت ، ثم قالت وهي معجبة :
قد كان ذاك، وهذا بعد ذاك أتى
كانت سليمى تنادي : يا اخي، وقد
صارت سليمى تنادي اليوم : يا ابتا

صـوت : وما دمنا في روضة الشعر فأحب أن أثبت هذه الابيات الرقيقة من بديع شعرك قبل الانتقال الى أشهر أفراد اسرتك، أبيك عبد الملك بن ابي العلاء زهر، كما وعدنا القراء :

يـا مـن يـذكـرني بعـهـد احبـتي
طـاب الحـديث بـذكـرهم ويـطيب
أعـد الحـديث عـلي من جنبـاتـه
ان الحـديـث عن الحـبيـب حبيـب
مـلأ الضلوع وفـاض عن احنـائهـا
قـلب اذا ذكـر الحـبـيـب يـذوب
ما زال يصـرب خـافقـاً بجنـاحـه
يـا ليت شعـري هـل تـطير قلوب ؟

الحفيد : ليت المجال يتسع لايراد مقتطفات شعرية أخرى . . .

صـوت : حبذا أيها الحفيد . فموعدنا الآن للحديث عن أبيك الذي يُعرف في الغرب باسم أبو ميرون آفنزوار ، أو آفنزوار وحسب ، تصحيفاً لأبي مروان بن زهر .

الحفيد : أرى أنك تكبدت عناءً في استقصاء أخبار أسرتنا ، فشكراً لك . وقد ولد أبي في أشبيلية بين السنة ٤٨٤ و ٤٨٧ هـ / ١٠٩١ و ١٠٩٤ م . لأن مترجميه لم يذكروا السنة بالضبط . وقد أخذ الطب بدوره عن أبيه الطبيب أبي العلاء بن زهر ، نظرياً وعلمياً ، وتقدم فيه ، بعد أن بدأ بدراسة أصول الفقه والأدب على علماء عصره وشيوخه . وكان من القلائل الذين

كانت لهم الشجاعة على دحض بعض نظريات جالينوس . وفي كتاباته عارض بشدة عقاقير المشعوذين وأدوية المنجمين الخرافية وندد بها .

صوت : وكان في طبيعته ميالاً الى القيام بالاختبارات ، واكتشاف المجهول ، وهذه صفة حميدة في العلماء . ولم يأخذ بنظرية الأمزجة التي كانت سائدة آنذاك ، وقد عرفت منذ عهد جالينوس . وما لبث أن اعتبر أشهر أطباء الاندلس في عصره . وسبق سواه من الأطباء في الوصف الدقيق المبني على الملاحظات والاختبارات لعلة الحكة والأورام الحيزومية ، وخرّاج التامور ، وعالجها جميعاً علاجاً شافياً .

الحفيد : وكان أول الأطباء العرب ممن أشار بعملية شق الحجب ، وشرحه لطريقة التغذية القسرية أو الاصطناعية من طريق الحلقوم ، أو الحقنة في الشرج لمختلف حالات الشلل الذي يصيب عضلات المعدة ، وقد توسع في ذلك كثيراً . . .

صوت : وترك لنا أيضاً وصفاً كاملاً لسرطان المعدة وضعه وهو في السجن بعد مراقبته المرض لدى رفاقه في السجن . وكل ذلك تتضمنه مؤلفاته الطبية القيّمة التي نشير ههنا الى أهمها ، وهي : «كتاب التيسير في المداواة والتدبير» الذي ألفه باشارة من صديقه الحميم ومقدره الفيلسوف والطبيب الشهير ابن رشد . وقد عرف الانتشار الواسع في القرون الوسطى ، وترجم الى العبرية سنة ١٢٨٠ ،ثم الى اللاتينية وطبع بها في

مدينة البندقية الايطالية لأول مرة سنة ١٤٩٠ ، ثم في مدينة لايدن الهولندية سنة ١٥٣١ .وراحت طبعاته تتوالى بعد ذلك ، لأنه كان مع سائر كتبه ، وكتب سواه من أطباء العرب ، من المراجع الرئيسية إن لم تكن الوحيدة لدراسة الطب حتى القرن السابع عشر . وأود الاشارة في هذا المجال الى أن انتشار مؤلفاته بالترجمات العبرية في اوروبا جعل بعض الكتاب والمؤرخين يعتقدون خطأً أنه يهودي الأصل .

الحفيد : ماذا أسمع ؟ أحقاً ما تقول؟ وهل ظلوا في غيهم وجهلهم أصله وفصله؟

صوت : لا ، فان كاتباً معروفاً يدعى جبرائيل كولين كتب عنك وعن آثاره فدحض كل ذلك، بعد أن سبق للكاتبين شتايشنايدر وفوستنفلد القيام بذلك .

الحفيد : حسناً فعلوا ! ولأبي « كتاب الاقتصاد في اصلاح الأنفس والأجساد » ، وضعه بايعاز من الامير المرابطي ابراهيم بن يوسف بن تاشفين ، بعد أن وضع له تصميمه . وله أيضاً « كتاب الأغذية » و « كتاب الجامع » في الأشربة والمعجونات .

صوت : وعلى ذكر دولة المرابطين نذكر أنه كأبيه أبي العلاء زهر ـ جدك ـ عمل في خدمتهم في أول أمره ، في الأندلس والمغرب . ولكن الأمير علي بن يوسف بن تاشفين المرابطي أساء معاملته في مراكش ، وسجنه لأسباب ما تزال مجهولة . وقد قام بزيارة الى المشرق لأداء

فريضة الحج فملأ البلاد مهابة وجلالة . ومارس الطب فيه زماناً ، وتولى رئاسة الطب في بغداد ، ثم في مصر ، ففي القيروان ، الى أن استوطن مدينة دانية ، فذاع صيته فيها الى أقطار الأندلس والمغرب لأنه بزَّ أهل زمانه في مهنة أبقراط .

الحفيد : صحيح ما تقول ، وقد اتصل بعد انقراض دولة المرابطين سنة ٥٤٣ هـ. / ١١٤٨ م. بأمير دولة الموحدين عبد المؤمن بن علي الذي استولى على مراكش ، واستمر حكمه زهاء سبع عشرة سنة . وقد أكرمه ، وبالغ في الانعام عليه ، وقلّده الوزارة مثل جدي أبي العلاء زهر .

صوت : وواصل اعماله في ميداني التأليف والتطبيب حتى كانت وفاته سنة ٥٥٧هـ /١١٦٢ م . في اشبيلية بتأثير خرّاج خبيث . . . وقد دفن خارج باب النصر في مسقط رأسك .

الحفيد : ومن عجيب المصادفات ان جدي أبا العلاء زهر توفي أيضاً من جراء دمل فاسد !

صوت : حسن ! وقد وصلنا الى جدك، فلا تكتمل الصورة التي وددت رسمها لأسرة إبن زهر على ما احسب إلا بعد التعريف بجدك هذا، ابي العلاء بن زهر فنكون هكذا قد تعرفنا الى الاب، والابن، والحفيد، ولو باعطاء فكرة عامة عن مآتيهم جميعاً التي تبرز مقامهم العلمي المرموق، اليس كذلك ايها الحفيد ؟

الحفيد : كما تريد يا سيدي، وليس لي إلا أن أجزل لك الشكر

على هذا الاهتمام البالغ بأسرتنا. فقد كان جدي مشهوراً في الاوساط الطبية، ومعروفا في حلقات الاطباء في المغرب، كما في المشرق. ولقد أخذ الطب عن ابيه وعن ابي العيناء المصري. وكان يمارسه نظرياً وعملياً، وعلى يديه تخرّج عدد من التلاميذ، وقد عرف بتشخيصه الدقيق للامراض.

صوت : اما الفلسفة والمنطق والادب والحديث فقد درسها على شيوخها في قرطبة. وذاعت شهرته حتى بلغت المعتمد بن عبَّاد، الملك الشاعر، فألحقه ببلاطه في اشبيلية، وأعاد اليه ضيعة كانت ملكاً لجده أبي بكر محمد قبل ان يصادرها بعض ذوي السلطان.

الحفيد : وأقام جدي ابو العلاء في البلاط حتى كانت غزوة المرابطين لاشبيلية، ووقوع اميرها في الأسر سنة ٤٨٤هـ. /١٠٩١م وقد بدر منه في تلك الحادثة المشؤومة ما كان يتوقع منه من الوفاء وعرفان الجميل تجاه من اكرمه، وقدره وعطف عليه. ولا احسب ان المقام يتسع لتفصيل ذلك . . .

صوت : . . . ولا حتى الوقت يا سيدي فقد استرسلنا في هذا اللقاء الممتع حقاً. فلنكمل استعراض سيرته التي قاربت نهايتها. فقد استدرجه السلطان يوسف بن تاشفين لخدمته، وقلده الوزارة. وكانت وفاته في قرطبة في سنة ٥٢٥ هـ/١١٣١م. من جراء دمل خبيث - كما سبق ان ذكرنا - كان بين كتفيه. وقد نقل جثمانه الى اشبيلية!

الحفيد : تماماً، يا سيـدي . . . وهذه هي قصة اسرة ابن زهر الاندلسية !

## إبن باجة : إمام علماء الأندلس
## وأول مشاهير الفلاسفة العرب فيها
( أوائل القرن الحادي عشر ـ ١١٣٨ )

صوت : نور فهم ساطع، وبرهان علم لكل حجة قاطع، تتوجت بعصره الاعصار، وتأرجت من طيب ذكره الامصار، وقام اوان المعارف واعتدل، ومال للافهام فننا وتهدل، وعطل بالبرهان التقليد، وحقق بعد عدمه الاختراع والتوليد، اذا قدح زند فهمه اورى بشرر للجهل محرق، وان طما بحر خاطره فهو لكل شيء مغرق، مع نزاهة النفس وصونها وبعد الفساد من كونها، والتحقيق الذي هو للايمان شقيق والجد الذي يخلق العمر وهو مستجد، وله ادب يود عطارد ان يلتحفه، ومذهب يتمنى المشتري ان يعرفه، ونظم تعشقه اللبات والنحور، وتدعيه مع نفاسة جوهرها البحور، وقد اثبت منه ما تهوى الاعين النجل ان يكون إثمدها، ويزيل من النفوس حزنها وكمدها، فمن ذلك قوله يتغزل :

ابن باجة : اسكان نعمان الأراك تيقنوا
بأنكم في ربع قلبي سُكّانُ
ودوموا على حفظ السوداد فطالما
بلينا بأقوام اذا استحفظوا خانوا

سلوا الليـل عني اذ تنـاءت ديـاركم
هـل اكتحلت لي فيه بـالنـوم اجفـان
وهـل جُرِدّتْ اسيـاف برق سمـائِكُمْ
فـكـانت لهـا الا جفوني اجـفـانُ

صـوت : هذا الثناء الذي استمعنا اليه اغدقـه بهذا السجـع اللطيف الفتـح بن خاقـان صاحب كتـاب « قلائـد العقيان » ولكن في غير هـذا الكتاب. ذلـك بأنـه في « القلائد » وبعدما جرى ما جرى بينهما من معاداة هجاه وجعله آخر ترجمة فيهـا، اذ قال في مستهـل هجائه : « الاديب ابو بكر بن خاقان ابن الصائغ، هو رمد عين الدين، وكمد نفوس المهتدين، اشتهر سُخْفا وجنونا، وهُجر مفروضاً ومسنونا فما يتشرع، ولا يأخذ في غير الأعاليل ولا يشرع . » ثم يمضي الفتح ابن خاقان في هجائه لابن باجة مشيرا الى اهتمامه بالموسيقى والتلحين فيقول : « . . . فقصر عمره على طرب ولهو، واستشعر كل كبر وزهو، واقـام سوق الموسيقى، وهام بحاني القطار وسقا، فهو يعكف على سماع التلاحين، ويقف عليه كل حين . . . »

ابن باجة : لقد والله ظلمني الفتح بأقواله، وكيف يوفق بين هذا وبـين ما سبق لـه قولـه في كتابـه الآخر؟ سـامحه الله . . .

صـوت : صحيح ما تقول، وهل يعقل ان تقصر عمرك على الـطرب واللهو والسخف، كـما يقـول، وكنت اول مشاهير الفلاسفة العرب في الاندلس، وانصرفت الى

السياسة والعلوم الطبيعية، والفلك، والرياضيات، والموسيقى والشعر والفلسفة، والطب . . . وقد برزت في الطب بصورة خاصة مما اثار حفيظة زملائك في تلك الصنعة فدس لك بعضهم السم في باذنجان في مدينة فاس بالمغرب في شهر رمضان من سنة ٥٢٩ هجرية . . . وهناك من يجعل تاريخ وفاتك سنة ٥٣٣هجرية .

ابن باجة : على ذكر زملائي في الطب أذكر هنا أنه كان بيني وبين الوزير الطبيب ابي العلاء بن زهر بسبب المشاركة ـ لما كان يقال ـ ما بين النار والماء والارض والسماء. فلما قلت فيه وفي طبه :

يا ملك الموت وابن زهر
جاوزتما الحد والنهايه
ترفقا بالورى قليلا
في واحد منكما الكفايه

صوت : وماذا فعل أبو العلاء هذا ؟

ابن باجة : ردّ ببيتين من الشعر قال فيهما :

لابدّ للزنديق ان يصلبا
شاء الذي يعضبده او ابى
قد مهد الجذعُ له نفسه
وسدّد الرمح اليه الشبا

ويقصد بالذي يعضدني مالك بن وهب جليس أمير المسلمين وعالمه .

صوت : ويزعم الناس ان ابن معيوب خادم أبي علاء بن

زهـر، هو الـذي سمّ لـك البـاذنجـان لعـداوتـك لسيده . . . يضاف الى ذلك ما نسب اليك من اقوال تتهمك بالكفر وانحلال العقيدة، مما ردده المقلدون المتزمتون من معـاصريـك الذين اعمـاهم الجهـل والحسد. فاتهمت بالزندقة، وقتلت بـالسم كما مـرّ معنا . . .

ابن باجة : الواقع يا سيدي، ان مثل هذه الاتهامات لم ينجُ منها احـد من فلاسفـة الاسـلام لا في المشـرق ولا في المغرب .

صـوت : وعلى ذكر ما كان من اتهامك بالكفر أورد ابن سعيد في كتابه « المُغرب في حلى المغـرب » ان القائـد أبا عمرو بن ياسر مولى عماد الدولة بن هود قال مخاطبا عماد الدولة في شأنك، وقد حصلت في سجنه :

أعمـاد دولـة هـاشم قـد أسـعَـدَ
المقـدارُ في أسـر العـدو الـكـافـر
لا تنسَ فيـه كـل . ـا كـابـدتـه
مـن سـوء أقـوال وسـوء سـرائـر
لـولاه مـا أضحت قـواعـد ثغـرنـا
كـالطـلِّ يسقط مـن جنـاح الطـائـر

ابن باجة : بـربك دعنـا من هـذه السفـاسف، ولنهتم بـأمـور أجدى .

صـوت : في الحقيقة نحن لا نعرف من امر مولدك الا القليل القليل، وهو انك ولدت في سرقسطة، في الاندلس، في اواخر القرن الخامس الهجري، اما اسمك الكامل

فهو ابو بكر محمد بن يحيى ابن الصائغ التجيبي، المعروف بابن باجة، وباجة في قول ابن خلكان كلمة اندلسية افرنجية معناها الفضة . . . وقبل ان نبدأ حوارنا واستعراض نشاطاتك اود ان اورد ما يقوله الامير ركن الدين بيبرس في كتابه « زبدة الفكر في تاريخ الهجرة » ملخصا حياتك : « ان ابن الصائغ كان عالما فاضلا، له تصانيف في الرياضيات والمنطق، وانه وزّر لأبي بكر الصحراوي صاحب سرقسطة ووزّر أيضا ليحيى بن يوسف بن تاشفين عشرين سنة بالمغرب، وان سيرته كانت حسنة، فصلحت به الاحوال، ونجحت على يديه الآمال، فحسده الاطباء والكتّاب وغيرهم، وكادوه، فقتلوه مسموما . »

ابن باجة : خير الكلام ما قلّ ودلّ، اليس كذلك يا سيدي ؟

صوت : بالطبع وخيره أيضا الكلام المنصف، والمنزه عن الغرض والهوى . . ولنعد الى سبب العداوة بينك وبين الفتح ابن خاقان، قبل ان نمضي حوارنا . يقول ابن زاكور في شرحه على « قلائد العقبان » إن السبب الذي احقد عليك الفتح بن خاقان انك ازدريته وكذبته في مجلس إقرائه، فتسابيتما . . .

ابن باجة : . . . صحيح هذا، وكان يستحق ذلك مني . . .

صوت : وقد ذكر أيضا لسان الدين بن الخطيب في كتابه « الاحاطة » لدى ترجمته للفتح بن خاقان سبب العداوة بينك وبين الفتح فقال ما نصه : « وحدّثني بعض الشيوخ ان سبب حقده على ابن باجة ابي بكر

اخر فلاسفة الاسلام بجزيرة الأندلس ما كـان من ازدرائه به وتكذيبه اياه في مجلس اقرائه، اذ جعل يكثر ذكر ما وصله به أمراء الأندلس وَوَصَف حَلّياً، وكـان يبـدو من انفـه فضلة خضراء اللون، كـما زعموا ـ فقال له : فمن تلك الجواهر اذن الزمردة التي على شاربك ؟ فثلبه في كتـابه بمـا هو معـروف . »
ولنتحاور الآن كل ذلك. فلقد كنت شاعرا رقيقـا حوى شعرك من دقة المعاني وسلاسة المباني ما يؤكد قوة شاعريتك ورهافة احساسك، وسـلامة ذوقـك الأدبي. هات اسمعنا شيئا من شعرك .

ابن باجة : قـد اودعـوا القلب لمـا ودعـوا حـرقـا
فـظل في الليل مثـل النجم حيـرانـا
روادتــه يستـعــير الصبــر بعــدهـم
فقــال اني استعـرت اليــوم نيــرانــا

صـوت : رائع يا سيدي، هلا اسمعتنا تتمة هذا الشعر :

ابن باجة : ضربـوا القبـاب عـلى اقــاحي روضة
خــطر النسيم بهــا فـفــاح عبيــرا
وتــركت قلبي ســار بــين حمــولهم
دامي الكــلام يســوق تلك العيــرا
هــلّا سـألت اميــرهـم هـل عنــدهم
عــانٍ يفـك وهــل سـألت غيــورا
لا والـذي جعـل الغصـون معـاطفـا
لهُــمُ وصــاغ الاقــحـوان ثــغــورا

ما مر بي ريحُ الصبا من بعـدهم
الا شهقت لـه فعـاد سعـيرا

صوت : وقد استوزرك الامير ابو بكر بن ابراهيم المعروف بالاميرالصحراوي وكان مثلا في الكرم وآية في الجود، انسى اجواد الاسلام والجاهلية، الى الغاية في الحياء والشجاعة والتبريز في ميدان الفضائل. وقد قيل بحق « استوزر ملك سرقسطة الوزير الحكيم الشهير ابا بكر ابن الصائغ واختصه ولطف منه محله، فتجملت دولته ونبه قدره واخباره معه مشهورة . »

ابن باجة : من ذلك انني غبت يوما عنه وعن حضور مجلسه بسرقسطة ثم بكَّرت من الغد، فلما دخلت قال لي الامير : اين غبت يا حكيم عنا ؟
يا مولاي، اصابتني سوداء واغتممت . . .
فاشار الامير الى الفتى الذي كان يقف على رأسه، وخاطبه بلسان عجمية، فأحضر طبقا مملوءا دراهم ونوادير ياسمين، ودفعه كله اليَّ، فقلت له : يا مولاي، لم يعرف جالينوس من هذا الطب. فضحك الامير.

صوت : ومن اخبارك معه وانت صاحب التلاحين المعروفة، انك حضرت يوما مجلسه، وانشدته بعض موشحتك :
جـرر الـذيـل ايما جَـرِ
وَصَلِ السكر منك بالسكر

ابن باجة : فطرب الامير الممدوح لذلك، ومضيت في الانشاد حتى

ختمت الموشحة بقولي :

عقد الله راية النصر

لأمير العلا ابي بكر

فصاح : واطرباه ! وشق ثيابه وقال : ما احسن ما بدأت به، وما ختمت. والله لن تمشي لدارك الا على الذهب . فخفت العاقبة، واحتلت بأن جعلت ذهباً في نعلي ومشيت عليه !

صوت : وعلى ذكر التلاحين نذكر ههنا قول المقري صاحب كتاب « نفح الطيب في غصن الاندلس الرطيب » « . . . اما في الموسيقى فكتاب ابي بكر بن باجة الغرناطي فيه الكفاية، وهو في المغرب بمنزلة ابي نصر الفارابي بالمشرق، واليه تنسب الالحان المطربةِ التي عليها الاعتماد . » ونعود الى مخدومك الامير الصحراوي فهلا اسمعتنا شيئا من رثائك له، وهو كثير وفيه غنيت في ألحان مبكية :

ابن باجة : سلام والمام وروح ورحمة

على الجدث الثاني الذي لا ازوره

احقا ابو بكر تقتضيّ فلا تُرى

تردُّ جماهير الوفود ستوره

لئن أنِست تلك اللحود بلحده

لقد اوحشت امصاره وقصوره

صوت : وننتقل الى الجوانب العلمية والفلسفية فنذكر ان ابن ابي اصيبعة يسرد لائحة بثمانية وعشرين مؤلفا ينسبها اليك، تقسم الى ثلاث فئات مختلفة، هي شروح على

ارسطوطاليس ، وتآليف اشراقية، ومصنفات طبية .
غير انه لم يصلنا من كل ذلك الا مؤلفان هما رسالة اتصال الانسان بالعقل الفعّال، وتدبير المتوحد، وهو تلخيص لأهم آثارك الفلسفية ويرد في شرح عبري على «حي بن يقظان» كتبه في القرن الرابع عشر الميلادي موسى التربوني .

ابن باجة : ماذا تقول، اهذا كل ما بقي من مؤلفاتي ؟ لقد احزنني ما ذكرت .

صـوت : ان ذلك ليحزن حقا، ولكن ما يعزّي ان ابن طفيل وابن رشد الفيلسوفين الاندلسيين المعروفين اخذا عنك بعض بنود فلسفتك، وشهدا لك بالتقدم. فاسمع ما يقول ابن طفيل في مطلع كتابه «حيّ بن يقظان» : «ثم خلف بعدهم - اي بعد المشتغلين بالتعاليم والمنطق من متفلسفة الاندلسيين الاوُل خلفَ احذق منهم نظرا الى الحقيقة . ولم يكن فيهم اثقب ذهنا، ولا اصح نظرا، ولا اصدق روية من ابي بكر ابن الصائغ، غير انه شغلته الدنيا، حتى اخترمته المنية قبل ظهور خزائن علمه وبث خفايا حكمته ! »

ابن باجة : واعود هنا الى تكرار القول المأثور «والفضل يعرفه ذووه» !

صـوت : وختاما، يا أبا بكر لا بد من القول انه كان لك أثر كبير في الغرب المسيحي كما كان لك فعل عظيم في ازدهار الفلسفة في المغرب. وعلى الرغم من قلة المصادر التي تتناول آثارك الفلسفية، أو حياتك، فقد قدروا فضلك من الرسائل القليلة التي وقعت بين

أيديهم وطالعوها. فقد قال المفكر الفرنسي الكبير رينان : « ولا ريب ان ابن باجة من أعاظم الذين عملوا على ازدهار عصرهم، ومن الذين حرصوا على ان تبلغ الفلسفة العقلية فيه المستوى الذي بلغته ! »

# ابن طفيـل : أحد أصحـاب الكفايـات النادرة

## (أوائل القرن الحادي عشر ـ ١١٨٥ )

صــوت : «في جزيرة مهجورة من جزائر الهند التي تحت خط الاستواء ، وفي وسط ظروف طبيعية طيبة تولّد طفل من بطن أرض تلك الجزيرة تخمرت فيه طينة على مر السنين دون أن يكون له أم أو أب . وفي قول آخر ان تيار البحر حمله الى هذه الجزيرة في تابوت أحكمت زمه أمه بعد ان أروته من الرضاع ، وكـانت أميرة مضطهدة، في جزيرة مجاورة ، فاستودعت ابنها الأمواج حتى تنجيه من الموت ، وهذا الطفـل هو حي بن يقظان . فتبنته غزالة ، وأرضعته ، وصارت له كأمه . ونما حي وأخذ يلاحظ ويتأمل ، وكان الله قد وهبه ذكاء وقاداً ، فعرف كيف يقوم بحاجات نفسه ، بل استطاع أن يصل بالملاحظة والتفكير الى أن يـدرك بنفسه أرفع حقائق الطبيعة وما وراءها ، وقد وصل الى ذلك بطريقة الفلاسفة بطبيعة الحال . وأدت به هـذه الطريقـة الى أن يحـاول عن سبيـل الاشـراق الفلسفي الوصول الى الاتحـاد الوثيق بـالله . وهذا الاتحـاد هو العلم الغـزير والسعـادة العليـا المتصلة الخالدة في وقت واحد . ولكي يصل حي الى ذلك دخل مغارة وصام أربعين يوماً متوالية ، مجتهداً في أن

يفصل عقله عن العالم الخارجي وعن جسده ، بواسطة التأمل المطلق في الله لكي يصل الى الاتصال به ، حتى أدرك ما أراد . وعندما بلغ ذلك المبلغ لقي رجلا تقياً يسمى «ابسال» أقبل من جزيرة مجاورة الى هذه الجزيرة يحسبها خلاء من الناس . وقام أبسال بتعليم الكلام لصاحبه المنفرد بنفسه والذي لقيه دون أن يتوقع ذلك . ولم يلبث أن وجد في الطريق الفلسفي الذي ابتكره حيّ لنفسه تعليلاً علوياً للدين الذي كان يعتقده ، وتفسيراً كذلك لكل الأديان المنزلة . ثم أخذ أبسال صاحبه الى الجزيرة المجاورة ، وكان يحكمها ملك تقي يدعى « سلامان » ـ وهو صاحب أبسال الذي كان يرى ملازمة الجماعة ويقول بتحريم العزلة ـ وطلب اليه أن يكشف لأهل الجزيرة عن الحقائق العليا التي وصل اليها ، فلم يوفق . ووجد عالمانا نفسيهما مضطرين ، آخر الأمر ، الى أن يعترفا بأن الحقيقة الخالصة لم تخلق للعوام ، اذ أنهم مكبلون بأغلال الحواس ، وعرفا أن الانسان اذا أراد أن يصل الى التأثير في افهامهم الغليظة ، ويؤثر في ارادتهم المستعصية ، فلا مفر له من ان يصوغ آراءه في قوالب الأديان المنزلة . وكانت نتيجة هذا أن قررا اعتزال هؤلاء الناس المساكين الى الأبد ، ونصحهم بالاستمساك بأديان آبائهم . وعاد حي وصاحبه الى الجزيرة المهجورة لينعما بهذه الحياة الرفيعة الآلهية الخالصة التي لا يدركها الا القلائل من الناس . »

ابن طفيل : أحسنت يا سيدي ، في تلخيصك لقصة « حيّ بن

يقظان » ، فلو طلبت الي ذلك لما استطعت ايجازها كما أوجزتها أنت .

صـــوت : دعنا الآن نتعرف اليـك ، يا أبـا بكر ، ونستعرض نشاطاتك العلمية .

إبن طفيل : أنا أبو بكر محمد بن عبد الملك بن محمد ابن طفيل القيسي ، ولدت قبل سنة ٥٠٦ هجرية ، في وادي آش التي تقـع الى الشمال الشـرقي من غرنـاطة ، بالأندلس . وتوفيت سنة ٥٨١ هجرية ، وبين هذين التاريخين تنقضي حياتي التي ذكرت أنها كانت حافلة بالنشاط .

صـــوت : قليلة هي المعلومات التي وصلت الينا عن نشأتك ، وكل ما نعرف أنك قرأت الحكمة بجميع أقسامها على علماء زمانك. ويقول بعض المؤرخين :

- « ان ابن طفيل قد قرأ العلم على جماعة من أهل الحكمة ، منهم أبو بكـر الصائـغ ، المعروف بـابن باجة ، وغيره . . . »

إبن طفيـل : الواقع يـا سيدي ، انني أذكـر في كتابي « حيّ بن يقـظان » عنـد الكـلام عـلى أبن بـاجـة ، انني لم القــه شخصيا ، وعلى ذلك فأنا لم اقرأ عليه قط سوى انني اعترف له بالكمال ، ولم يكن في حكماء الأندلس اثقب ذهنا ، ولا اصح نظرا ، ولا اصدق روية من ابي بكر الصائغ ، أي ابن باجة .

صـــوت : ويذهب بعض المؤرخـين الى انك كنت تلميـذاً لأبن

رشد، مع انك أنت نفسك لا تذكر ذلك، وقد كنت تكبره بحوالي خمس عشرة سنة أو أكثر قليلا.

إبن طفيل: كل ما كان بيني وبين ابن رشد يتلخص بتقديمه الى الخليفة أبي يعقوب يوسف المنصور، وحثّه على الاشتغال بتفسير ارسطو... ثم بعد ذلك تخليت لابن رشد عن عملي كطبيب للمنصور.

صوت : على أي حال، يا أبا بكر، لقد عرفت بعلمك الواسع واشتغالك بالطب، والفلك، والرياضيات، الى جانب احاطتك بالشعر، فضلا عن الثقافة الادبية الكاملة. فلنسمع، اذا سمحت، ما تستحسنه من نظمك، فقلما نجد فقيها أو فيلسوفا أو عالما، من العرب ليس له المام بالشعر.

إبن طفيل: ألّت وقد هام المشيح وهوّما
واسرت الى وادي العقيق من الحمى
وراحت على نجد فراح منجدا
ومرّت بنعمان فأضحى منعّما
وجرّت على ذيل المحصّب ذيلها
فما زال ذاك التُربُ نهباً مهشما
تقسِّمه ايدي التجار لطيمة
ويحمله الداريُّ أيان يمّما
ولما رأت أن لا ظلام يكنّها
وأن سراها فيه لن يتكتما
أزاحت غمام العَصب عن حرّ وجهها
فألقت شعاعا يُدهش المتوسّما

فكان تجليها حجاب جمالها
كشمس الضحى يغشى بها الطرف كلما

صوت : يا لروعة هذا الشعر! دعنا الآن نتحدث عن منجزاتك، وآثارك في حقول العلم التي برزت فيها. فلسان الدين بن الخطيب يذكر انك وضعت كتابين في الطب. ويذكر ابن ابي اصيبعة في كتابه «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» عند ترجمة ابن رشد كتابا عنوانه «مراجعات ومباحثات بين ابي بكر بن طفيل وابن رشد، في رسمه للداء في كتابه الموسوم بالكليات.»

إبن طفيل : ولي ارجوزة في الطب ايضا...

صوت : ولكن المؤرخين يتفقون على ان كتبك لا تدل على طول باعك في الطب، ولا تجعلك في أئمة هذه الصنعة، على نقيض ما كنت في الفلك، والفلسفة.

إبن طفيل : لقد كنت في الواقع طبيبا، احترف الطب في غرناطة، ورئيساً لأطباء سلطان الموحّدين. كما كنت بعد ذلك طبيب السلطان أبي يعقوب يوسف، ولم أحلم يوماً بأن أكون من أئمة الطب.

صوت : غير أن الحال يختلف تماماً في الفلك، الذي تدل العبارات التي تذكرها في هذا العلم في مستهل كتابك «حيّ بن يقظان» على سعة اطلاعك في هذا الميدان. وقد ذكر ابن رشد أن لك مقالة جيدة في البقع المسكونة، وغير المسكونة. كما ذكر أن لك نظريات قيّمة في تركيب الاجرام السماوية وحركاتها. وكم كنا

تودّ الاطلاع على عملك الفلكي لو أن المجال يتسع أمامنا، ولكننا سننتقل الى فلسفتك التي شرحتها لنا في أشهر مؤلفاتك «حيّ بن يقظان» وهو الأثر الوحيد الذي بين يدينا من كتبك الفلسفية، فهلا حدثتنا عنه.

إبن طفيـــل : أخذت عنوان «حيّ بن يقظان» من ابن سينا الذي سبقني الى تأليف كتاب رمزي خيالي بعنوان «حيّ بن يقـظان». غير أن الاقتبـاس، لم يتعد، يـا سيدي الاسم لان ليس ثمة أي علاقة في المضمـون، والمحتوى بين الكتابين. فقصتي فلسفية غيبيـة من ابتكاري، وابداعي. ومغـزى القصة أن الانسان الذي لا يقع تحت تأثير العقيدة التقليدية، والذي لا يعرض للضغط الاجتمـاعي، يستطيـع بالعقـل، وبواسـطة الادراك الحسّي أن يتوصل شيئا فشيئا الى معـرفة اليقـين، ويدرك مدى اعتماده في وجوده على كائن أعلى.

صـــوت : تماما . . . وفي مقدمة كتابك هذا، تشير الى فضل ابن سينا عليك، وتطريه، إلاّ انك تنتقده، لأنه خلط بين آراء ارسطو، وبين آرائه الشخصية، دون محاولة منه للتمييز بين الرأيين. وان مذهبك الذي توضحه في كتاب «حيّ بن يقظان» هو المذهب العقلي. فأنت تعتقـد ان في وسـع الانسـان الارتقـاء بنفسـه من المحسوس الى المعقول، والوصول بقواه الطبيعية الى معرفة الإله والعالم .

إبن طفيـــل : وهذه المعرفة التي توصلت، أو اشرت اليها، تنقسم

الى قسمين : المعرفة الحدسية، والمعرفة النظرية. فالمعرفة الحدسية هي التي ينكشف فيها الأمر للنفس بوضوح زائد، وليس في مصطلحات الفلسفة ما يدل عليها دلالة حقيقية، لأنها حال أكثر منها معرفة. فبعضهم يسميها ذوقا، وبعضهم الآخر يسميها حدسا أو كشفا، ولكنها حال لا يمكن اثباتها على حقيقة امرها في الكلام، ومتى حاول احد ذلك وتكلفه بالقول، أو بالكتب، استحالت حقيقة، وصارت من قبيل المعرفة النظرية.

صوت : وما هي المعرفة النظرية؟

إبن طفيل : المعرفة النظرية، يا سيدي، هي التي ينتهى اليها بطريق القياس والبرهان، والبحث الفكري. وليس ادراك أهل النظر مقصورا على عالم الطبيعة، بل يدركون بنظرهم حقائق ما بعد الطبيعة، ويشترط في ادراكهم هذا أن يكون صحيحا، وهو شيء يحتمل أن يُنتهى اليه بطريق العلم، ويوضع في الكتب وتتصرف به العبارات.

صوت : وقد سلك حيّ بن يقظان في الوصول الى الحقيقة المطلقة كلا من هذين الطريقين، فتارة كان يكتشف المعرفة بحواسه، وتارة اخرى كان يعود الى فكره وحدسه الباطني. ونعود الى القصة بحد ذاتها، فنشير الى أنها تشتتمل على قسمين : خصصت القسم الأول منهما، وهو القسم الأكبر، لوصف تطور حيّ الطبيعي. أما القسم الثاني الذي تصف فيه ذهاب

حي الى الجزيرة المجاورة واقامته بين سكانها، فليس سوى وسيلة للنقد الاجتماعي من طرف خفيّ .

**إبن طفيل** : ذلك هو الواقع . . . فلقد شئت تشريح احوال عصري الاجتماعية، واظهار فساد الأنظمة وانحطاط الأخلاق، وتفسخ العقائد الدينية.

**صوت** : واضح جداً أن قصة حي بن يقظان التي كتبتها يا ابا بكر، تختلف عن قصة ابن سينا من جهة قربها من الحقيقة الواقعة. ذلك بأن بطلك يصور لنا عقل الانسان الطبيعي، في حين يصور لنا ابن سينا بطله بعقل فوق عقل البشر. وفي هذا المقام أذكر ان قصتك التي تُؤلف بين القصة والفلسفة، انتشرت انتشارا كبيرا باللغة العربية، وترجمت الى عدد غير قليل من اللغات، ونشرت بها بحيث قرأها وقدرها الكثيرون في الشرق والغرب.

**إبن طفيل** : وما هي اللغات التي نقلت اليها قصة « حيّ بن يقظان » ؟

**صوت** : اللاتينية، والعبرية، والفارسية، والهولندية، والانكليزية، والالمانية، والفرنسية، والاسبانية. وهنا أود ان اشير الى قصة انكليزية بعنوان « روبنصون كروزو » التي يرى الكثيرون أن ثمة شبهاً عظيماً بينها وبين قصتك « حيّ بن يقظان ». وقد حاولوا ايجاد صلة اقتباس وتقليد بينهما .

**إبن طفيل** : لقد اثرت فضولي يا سيدي، فما مضمون هذه القصة، ومن هو كاتبها، ومتى كتبت؟

صــوت : اسم الروائي الانكليزي الذي كتبها دانيال ديفو، وقد وضـع قصتـه « روبنصـون كـروزو » في أوائــل القـرن الثامن عشر الميلادي . . .

إبن طفيــل : اذاً فقـد جـاء بعــدي بكثـير . . . لقــد سـرّيت عني . . .

صــوت : بالطبع لقد أراد الكاتب أن يبيّن لنا كيف ان رجلا يعيش مدة ثمانية وعشرين عاما في جزيرة خـالية، يتوصل بعقله الى الكشف عن الكثير من الامور، وقد اتقن عـددا من الصناعـات المختلفة، وسيـطر على الطبيعة، ثم ادرك قدرة الاله في آثاره .

إبن طفيــل : وكيف وصل هذا الرجل الى الجزيرة الخـالية، مـع العلم، انه لم يولد فيها، كما ولد حيّ ؟

صــوت : لقد غادر روبنصون كروزر هذا أهله وبلاده شاباً، كما ذكرت، فهبت عاصفة هوجاء حطمت سفينته فوقع اسيراً بين ايدي بعض القراصنة، ولكنه استطاع الفرار من آسريه والوصول الى الجزيرة الخالية. واستـطاع الحياة في عزلته بفضل ما كان لديه من المعلومات على نقيض حيّ بن يقظان الذي لم يكن له أب أو أم، ولم يكن على علم بشي مما عند البشر .

إبن طفيل : اذن فالقصتان تختلفان اختلافا كبيرا، وخصوصا في الناحية الفلسفية .

صوت : تماماً، يا سيدي، وهي الى جانب ذلك تمتـاز عن سواها من القصص الفلسفية الشرقية، بكونها أقرب

ما تكون من الحقيقة الواقعية والوصف الطبيعي، والتفصيلات الدقيقة، حول الحياة العملية مما يجعلها في طليعة الآثار العربية الخالدة في تاريخ الفكر البشري .

# السهروردي : مبدع الفلسفة الاشراقية

( ... - ١١٩٠ )

السهروردي : ( مناجيا ربه )«الهنا واله مبادينا .
يا قيوم ، يا حي، يا كل، يا مبدأ الكل .
يا نور كل نور، يا فايض كل خير وجود .
خلصنا الى مشاهد عالم ربوبيتك،
نجنا عن قيد الهيولى
أذقنا برد عفوك وحلاوة مناجاتك .
يا ربنا ورب كل عقل، ونفس .
أرسل على قلوبنا رياح رحمتك، واخرجنا عن هذه القرية الظالم أهلها، وأنزل على أرواحنا لوامع بركاتك، وأفض على نفوسنا أنوار خيراتك. يسّر العروج الى سماء القدس، والاتصال بالروحانيين، ومجاورة المعتكفين في حضرة الجبروت المطمئنين، في غرفات المدنية الروحانية التي هي وراء الوراء. . .
سبحانك ما عبدناك حقّ عبادتك، يا من لايشغله سمع عن سمع .
سبحانك أنت المتجلي بنورك لعبادك في أطباق السموات . . »

صوت : السلام عليك أيها الفيلسوف الحكيم . . . أنت

شهاب الدين أبو الفتوح السهروردي . لقد عرفتك من مناجاتك الرائعة هذه، ومن وصف لك اورده تلميذك المحب الشهرزوري صاحب كتاب « نزهة الأرواح » .

السهروردي : آه، الشهرزوري . وماذا يقول في هذا الوصف، يا سيدي ؟

صـوت : « انه كان مستوي القامة، يضرب شعره ولحيته الى الشقرة، وانه كان يميل الى السماع، - أي الموسيقى - وكان يبدي احتقارا شديدا لكل مظاهر السلطان والأبهة الدنيوية. وكان، في بعض الأحيان يلبس ثوبا واسعا طويلا، وعمامة زاهية الألوان وأحيانا أخرى، كان يبدو على العكس من هذا، في ثياب مهلهلة . . ومرارا كان يقتنع بارتداء خرقة الصوفية. . . »
تماماً، كما أراك الآن . . .

السهروردي : صحيح اني أهملت نفسي ومظهري لازدرائي بالمظاهر الفارغة التي يتمسك بها الآخرون ويعتزون. ولكنني لم أقبل قط بأن تكون ثيابي دنسة، وأنا الصوفي الذي أثر عني الورع.

صوت : ومن قال أن ثيابك كانت دنسة ؟

السهروردي : الكثيرون ممن أرادوا تشويه أفكاري وآرائي المتحررة بتشويه مظهري .

صـوت : ولكن خاب فألهم، وعلى الرغم من اتفاق اصدقائك وخصومك على اهمالك لمظهرك، فقد سعى اليك

العلماء، وأحاطوا بك، وكرموك، وقدروا فلسفتك حق قدرها. ولكن دعنا الآن نعرّف قرائنا الكرام عليك وعلى بعض نواحي عبقريتك . .

السهروردي : كما تشاء يا سيدي . .

صوت : بين سنتي ٥٤٥و٥٤٩ هجرية ( الموافقتين ١١٥٠ ـ ١١٥٥ ميلادية ) استقبلت قرية سهرورد القائمة في أعالي جبال فارس ـ أو العراق العجمي ـ طفلا كتب له أن يخلد تلك القرية لأنه أصبح الحكيم شهاب الدين السهروردي، زعيم مدرسة الاستشراقيين الفلسفية التي حفلت حياته القصيرة بألوان كثيرة من ضروب النضال الحي في سبيل الحق والمثل العليا .

السهروردي : وسهرورد، يا سيدي كانت أزهى قرى منطقة زنجان الخصبة، ذات الطبيعة الخلابة الباسمة أخرجت للدنيا غير واحد من الفقهاء والعلماء والمتصوفين . . .

صوت : . . . وكنت أنت أشهرهم على الاطلاق. نشأت كأكثر الاطفال نشأة دينية، فحفظت القرآن، وتعلمت القراءة والكتابة في مدة قصيرة، الأمر الذي أذهل الجميع في قريتك وما جاورها، فراحوا يتحدثون عن ذكائك وأنت طفل، ونفورك مما كان يقوم به الأطفال ممن هم في مثل سنك.

السهروردي : صحيح، وقد شعرت بأن الأطفال في سهرورد كانوا يحبون أن أجاريهم في لهوهم ولعبهم بدلا من الانصراف الى الدرس والتأمل .

صوت : ومما يروى أنك كنت تؤدي الصلوات الخمس جميعا وأنت طفل، فلا يمنعك برد الشتاء القارس في تلك المنطقة الباردة من التمثل بأبيك ومشايخك .

السهروردي : لم تكن الصلاة عندي، في صغري، مجرد ركوع وسجود وتلاوة سور، بل كنت اعتبرها اتجاها كليا نحو الخالق العظيم ليأخذني بيدي الى طريق الخير، ويوجه خطواتي نحو الصراط المستقيم .

صوت : وأنتقلت من سهرورد الى مراغة من أعمال أذربيجان، طلبا للعلم، لأن الدراسة فيها كانت أعمّ وأشمل. وكان الشيخ مجد الدين الجيلي، أشهر علمائها. فتتلمذت عليه، وكان قلبه مشربا بالحب الالهي .

السهروردي : وكانت حلقة دروسه تجمع كثيرين من الشبان من جنسيات مختلفة المتعطشين للعلم، يأتونه من مناطق مختلفة. وهناك التقيت فخر الدين الرازي الذي كان مهتماً بدروس علم الكلام، في حين كنت مأخوذا بعلم الكلام والمنطق كمدخل للدراسات الفلسفية .

صوت : كانت دروس الفلسفة تستهويك أكثر من سائر العلوم لملاءمتها نزعتك . فقد كنت كثير الجدل، قوي الحجة، الأمر الذي جعلك تدرس الفلسفة بإمعان لكي تقوي حجتك على مناظريك .

السهروردي : ولكنني ما لبثت آن أيقنت بعد ملازمتي للشيخ مجد الدين الجيلي انني استوعبت زبدة علومه، وبت بحاجة الى الانتقال الى أصفهان الشهيرة بعلمها

أيضا، سعيا وراء توسيع مداركي وآفاقي، ولقاء أئمة الصوفيين .

صــوت : وهكذا كان، وقد اهتممت بكتب الشيخ الرئيس إبن سينا بصورة خاصة، وكنت لاتسمع برجل له شهرة علمية الاّ سعيت للقائه . . .

السهروردي : . . . ولا بكتاب إلا تقت الى الحصول عليه . . . ومن أصفهان ارتحلت الى ديار بكر ، حيث لقيت عند أميرها كل تكريم وتقدير، وقد أهديته كتابي « الألواح العمارية » .

صــوت : إلا أن اقامتك في اصفهان، وديار بكر لم تطل على الرغم مما أحطت به من رعاية . فقد كانت نفسك تنازعك الى آفاق أوسع . . .

السهروردي : وقد عبّرت عن قلقي وحيرتي وهمومي بهذه الكلمة « وها هو ذا . . . قد بلغت سني الى قريب من ثلاثين سنة، وأكثر عمري في الأسفار والاستخبار، والفحص عن مشارك مطلّع على العلوم، ولم أجد من عنده خبر عن العلوم الشريفة، ولا من يؤمن بها . »

صــوت : اذن، فالسنوات التي قضيتها في الاسفار والتفقد لم تروِ نهمك الى العلم، ولم تشفِ غليلك. ولقد ذاع صيتك، وأصبحت من النوابغ بعد هذه السن، وأنت بعد تنتقل من بلد الى بلد حتى حططت الرحال في حلب.

السهروردي : من ماردين حيث مكثت ردحا من الزمن مع شيخها

الطبيب فخر الدين الرازي انتقلت الى حلب لكثرة ما سمعت عنها وكانت من مراكز الثقافة الاسلامية الممتازة آنذاك بفضل الرعاية العلمية التي بسطها الملك الظاهر الأيوبي، ابن السلطان صلاح الدين الأيوبي الشهير.

صوت: ولقد أثر عن هذا الملك تعزيزه الحركة العلمية التي بدأها وزيره القاضي بهاء الدين بن شدّاد مع نور الدين زنكي، فأنشأ المدارس واهتم بالعلماء، واعاد اليها عزّها السابق الذي عرفته زمن الحمدانيين.

وكانت المدرسة الحلوية أشهر مدارس حلب في ذلك العهد لكثرة ما ضمته من كبار العلماء والأدباء والشعراء.

صوت: وسعى العلماء من فقهاء واصوليين وكلاميين الى التعرف اليك، بعد أن سبقتك شهرتك الى حلب، واليهم.

السهروردي: غير أن مظهري لم يكن ليحمل مستقبليَّ على الاحترام كما يبدو، ولم يلق الهيبة حتى في نفوس العلماء. ومرت الأيام وأنا في المدرسة الحلوية احضر دروس شيخها الشريف افتخار الدين لأقبس منه أنوار العلم، غير انني ايقنت انني لم افد شيئا.

صوت: وهكذا بدأت حياة المناظرة والجدل مع استاذك ومع فقهاء حلب الذين كانوا يكوّنون عنك فكرة سيئة، بعد أن بدأت اقوالك وأفكارك تتسرب الى المدارس

والجوامع والمنتديات . . وسرعان ما تطور الجدل العلمي الى خصومة . .

السهروردي : . . كانت تلك الخصومة بيني وبين الفقهاء الذين نسبوا اليّ آراء لم اتفوه بها، وأثاروا عليّ النقمة العارمة بعد أن ناظرتهم في عدد من المسائل، ولم يصمدوا أمامي . . .

صوت : ولكن شيخ حلب المفضال وقف الى جانبك، وقرّب مجلسك وناصرك عليهم . . .

السهروردي : . . الأمر الذي زادهم حقدا وضغينة، فراحوا يقلبون علمي جهلا، وايماني كفرا، وتصوفي شعوذة، وفلسفتي هرطقة . . .

صوت : . . بالاختصار، قلبوا كل حسناتك الى سيئات . . ولكن الشيخ افتخار الدين، شيخ المدرسة الحلوية مهّد لك عند الملك الظاهر الأيوبي الذي أحب التعرف اليك ليتثبت من مدى صحة الأقوال التي أطلقها بحقك علماء مملكته.

السهروردي : وبالفعل أحسن الملك الظاهر استقبالي وجعلني من الخلصاء المقربين اليه.

صوت : الأمر الذي أزكى نار الحقد في نفوس العلماء الذين ايقن الملك أن ثمة بونا شاسعا بين عقليتك المتحررة، وعقليتهم المتحجرة . وقد لمس فيك سمو الحكمة واشراق الذهن .

السهروردي : ولكن كل ذلك لم يشفع فيَّ . . .فلما انتصر لي الملك

لجأ خصومي الى أبيه الملك صلاح الدين مستفزين عاطفته الدينية وبغضه للفلاسفة وأرباب المنطق، قائلين له في رسالتهم : « ادرك ولدكَ والاّ تتلف عقيدته ». فكتب صلاح الدين الى الملك الظاهر لكي يبعدني وينفيني.

صوت : غير أن الملك الظاهر لم يذعن لأمر أبيه علما منه بالمكيدة المدبّرة. ولن نسترسل طويلا في تفاصيل هذه المأساة المحزنة بل نذكر أنك في المناظرة التي اقترحها الملك الظاهر أفحمت العلماء ودحضت كل حججهم. ولما طال الجدال دون أن ينتهي الى نتيجة وجهوا اليك السؤال التالي : « قالوا . . . انك قلت في بعض تصانيفك أن الله قادر على أن يخلق نبيا . . وهذا مستحيل ».

السهروردي : فقلت لهم : « وما وجه استحالته ؟ فإن الله القادر هو الذي لا يمتنع عليه شيء . . »

صوت : ولم تفرق لسائليك بين الممكن في حد ذاته، والممكن الذي اخبر القرآن بأنه لم يقع .

السهروردي : ولم يدعوني أدلي برأيي. ووقفوا عند هذا الجواب وحكموا عليّ بالكفر، وجردوني من الايماني، واتهموني بانحلال العقيدة. وما لبثوا أن وضعوا وثيقة كفري واذاعوها على الناس وهي تفتي بهدر دمي .

صوت : ولكن اين هذه الوثيقة ؟ ان كل من ترجم وأرخ للملك الظاهر او لك لم يوردوا نصها، مكتفين بالاشارة اليها وحسب .

السهروردي : على أي حال نجحت مؤامراتهم، وحكم عليّ بالموت وكنت اذ ذاك في السادسة والثلاثين وقد طلب اليّ الملك الظاهر أن أختار ميتتي . فطلبت أن احبس في مكان ما، وامنع عن الأكل والشرب حتى الموت.

صوت : لكنك شئت أن تمتحن نفسك وتحقق نزعتك الصوفية بهذه الميتة . . . ولا عجب، فحياة الصوفيين ليست الا نوعا من العذاب، والفناء في سبيل الحقيقة العليا . ويروى انك لما علمت بصدور الحكم بقتلك انشدت بيتا، هل تذكره ؟

السهروردي: وكيف لا أذكره ؟ قلت :

أرى قدمي اراق دمي

وهان دمي فها ندمي

صوت : وهكذا كان ! وانقل اليك الآن ما كتبه سبط ابن الجوزي في تاريخه عن ابن شدّاد « لما كان يوم الجمعة، بعد الصلاة في العاشر من ذي الحجة سنة سبع وثمانين وخمسمائة، أخرج الشهاب السهروردي ميتا من الحبس بحلب، فتفرق عنه اصحابه » . ويقول المؤرخون أن الملك الظاهر تأثر كثيرا وندم على فعلته وحقد على الذين جروه الى هذا المأزق الذي اودى بحياة هذا الفيلسوف الحكيم الذي تجرد عن امور الدنيا، وكتب في عهد شبابه .

السهروردي: وماذا فعل ؟

صوت : لقد نقم على جميع من افتوا بقتلك، فقبض عليهم ونكبهم وصادر جماعة منهم بأموال عظيمة . »ولكن

هل ارضى بذلك انصارك ومريديك ؟

السهروردي : على أي حال فانه قد انتقم للفكر بما فعل .

صوت : ولما كان الشيء بالشيء يذكر، يا سيدي الفيلسوف الحكيم المتصوف، فانني اسألك في هذا المجال أن تشرح لنا مبدأ فلسفتك الاشراقية وأساسها الأول .

السهروردي : ان الله نور الأنوار، ومصدر جميع الكائنات، فمن نوره خرجت أنوار اخرى هي عماد العالم المادي والروحي، والعقول المفارقة ليست إلّا وحدات من هذه الأنوار تحرك الافلاك وتشرف على نظامها .

صوت : لقد رددت كل شيء في العالم الى نور الله وفيضه، وهذا النور هو الاشراق. لقد صهرت آراء من تقدمك من المفكرين عند الفرس والهنود والاغريق، في بوتقة من كشفك وذوقك ومواجيدك وخرجتها صروة نقية تعّبر عن روح وحكمة وفلسفة، مما جعل هذه الفلسفة توسم باسمك. ويقول المفكر دوبور في هذا الصدد :«الاشراقيون الحكماء، اتباع المذهب القائل بحكمة الاشراق أو الحكمة المشرقية، ويطلق هذا الاسم بوجه خاص على تلاميذ السهروردي . وهذه الحكمة هي عبارة عن مذهب التوفيق في الفلسفة اليونانية الذي انتقل الى الشرق في كتب الافلاطونية الجديدة، وهرمس وما شابهها . . . »ولقد شغلت بالاشراق عن كل شيء في الحياة، حتى اننا نستشعر هذه الفلسفة في الكثير من كلماتك ودعواتك

التي كنت ترددها في خلواتك. فهلا اسمعتنا شيئا منها ؟

السهروردي : « الاشراق سبيلك اللهم، ونحن عبيدك نعتز بك ولا نتذلل لغيرك، لأنك أنت المبدأ الأول، والغاية القصوى، منك القوة وعليك التكلان . . . اعنا على ما امرت ، وتمم علينا ما أنعمت، ووفقنا لما تحب وترضى .

صوت : ومع انشغال قلبك بالتصوف. وعلى الرغم من قصر حياتك، فقد تركت تراثا فكريا ثمينا توزع في كتب ورسائل بلغت ثلاثة واربعين مؤلفا حسب قول تلميذك الشهرزوري. وليت المجال يتسع لاستعراض أهمها، ولكنني أكتفي بالقول انها لفتت اليك اهتمام كبار المفكرين في عصرنا هذا، فاعتبروا « فلسفة أو حكمة الاشراق التي وضعت اسسها بمثابة النزعة الانسانية الحقيقية في الفكر العربي . . . »

السهروردي : اذن فقد انتهت هذه الزيارة؟

صوت : كم كنت أود أن تطول أكثر، ولكن ما العمل والوقت محدود،فشكرا لك يا شيخنا الجليل !

# إبن رشد : شارح المعلّم الأول أرسطو
## (١١٢٦ - ١١٩٨)

إبن رشد : «لما دخلت على امير المؤمنين ابي يعقوب وجدته هو وابو بكر بن طفيل ليس معهما غيرهما. فأخذ ابو بكر يثني عليّ ويذكر بيتي وسلفي، ويضم بفضله الى ذلك اشياء لا يبلغها قدري. فكان اول ما فاتحني بع امير المؤمنين بعد ان سألني عن اسمي واسم ابي ونسبي ان قال: ما رأيهم في السماء؟ يعني الفلاسفة، اقديمة أم حادثة؟ فأدركني الحياء والخوف، فأخذت أتعلل وأنكر اشتغالي بعلم الفلسفة، ولم اكن ادري ما قرر معه ابن طفيل. ففهم امير المؤمنين الروع والحياء فالتفت الى ابن طفيل، وجعل يتكلم على المسألة التي سألني عنها، ويذكر ما قاله ارسطوطاليس وافلاطون وجميع الفلاسفة ويورد مع ذلك احتجاج اهل الاسلام عليهم، فرأيت منه غزارة حفظ لم أظنها في احد المشتغلين بهذا الا أن المتفرغين له. ولم يزل يبسطني فعرف ما عندي من ذلك. فلما انصرفت امر لي بمال وخلعة سنية ومركب.»

صوت : هكذا يصف الحكيم ابو الوليد محمد بن رشد كيفية دخوله بلاط الخليفة الاندلسي ابي يعقوب الذي ضمّ الكثيرين من العلماء من جميع الاقطار. ويمضي حكيم الاندلس الذي كان له ابلغ الاثر في تطور الفلسفة الاوروبية فيقول :

« استدعاني ابو بكر بن طفيل يوما فقال لي : سمعت

امير المؤمنين يتشكى من قلق عبارة ارسطوطاليس أو عبارة المترجمين عنه، ويذكر غموض أغراضه ويقول : لو وقع لهذه الكتب من يلخصها ويقرّب أغراضها بعد ان يفهمها فهماً جيداً لقرب مأخذها على الناس. فان كان فيك فضل قوة لذلك فافعل، واني لأرجو ان تفي به ، لما اعلمه من جودة ذهنك وصفاء قريحتك، وقوة نزوعك الى الصناعة. وما يمنعني من ذلك الا ما تعلمه من كبرة سني واشتغالي بالخدمة، وصرف عنايتي الى ما هو اهم عندي منه. فكان هذا الذي حملني على تلخيص ما لخصته من كتب الحكيم ارسطوطاليس . . . »

وهكذا كانت هذه المقابلة التي تمت سنة ٥٦٣ هجرية، نقطة تحوّل عظيمة في حياة ابي الوليد محمد ابن رشد. فهلا حدثتنا، يا ابا الوليد، عن نشأتك وأسرتك ؟

ابصرت النور في قرطبة سنة ٥٢٠ هجرية، في اسرة اندلسية عريقة، حققت مقاما مرموقا في الفقه والسياسة والقضاء .

صوت : على ذكر اسرتك اشير في هذا المجال الى انها توارثت العلم جيلا بعد جيل تماما كأسرة زميلك الفيلسوف والطبيب ابن زهر. وكان الذاكرون اذا ما ذكروكم ميزوا بينكم باسم الجد والابن والحفيد . . .

إبن رشد : فيقولون : ابن رشد الجد، وابن رشد الابن ، وابن رشد الحفيد . . .

صـوت : . . . الذي هو انت ! . . حسنا. وقد تعلمت الفقه في صباك، وبعد ان درست اللغة والشعر والقـرآن والحديث، استظهرت الموطـأ. ونسجت على منـوال ابيـك وجدك، فـدرست الكـلام والفقـه والأدب، وضربت بسهم وافر منها، وألفت في الكلام كتاب « مختصر المستصفى في الاصول » وفي العربية كتاب « الضروري »، وفي الفقه كتاب « بداية المجتهد ونهاية المقتصد » ، وسوى ذلك مما ليس الآن مجاله. سوى انـك بـرزت في الفلسفـة والـطب وبـززت فيهـما معاصريك جميعاً .

إبن رشـد : لقد اخذت الطب عن ابي جعفر هارون، وابي مروان بن جربول البلنسي، ووضعت تآليف كثيرة فيه .

صـوت : وكانت تربط بينـك وبين احـد كبار اطبـاء عصرك مروان بن زهر مودة كبيرة. فضـلا عن انك كنت تتمتع بمكانة رفيعة بين الاطباء جعلت البعض يردد :
ـ « كان يفزع الى فتياه في الطب كما يفزع الى فتياه في الـفـقــه. »
على انه على الرغم من كل ذلك فان شهرتك ترتكز على نتاجك الفلسفي الخصـب، وعلى الدور الذي مثلتـه في تطور الفكـر العربي من نـاحية، والفكـر اللاتيني من الناحية الاخرى. ولقد قامت شهرتك على انك شارح كبير، ولولا شرحك لارسطو لما انتفع احد بفلسفته. وبعد ان عينت قاضياً على اشبيلية، لم تقم طويلاً في هذه المدينة. اذ عدت الى قرطبة بعـد

حوالي الستين لتتولى منصب قاضي القضاة، وتلتحق بعد حوالى عشر سنين بالبلاط المراكشي كطبيب الخليفة الخاص .

إبن رشد : وبعد ان تولى المنصور، ابن ابي يعقوب، الخلافة إثر وفاة ابيه استدعاني ليجدد لي تعييني. واستقبلني احسن استقبال، وقربني وعينني وزيراً، مخصصاً لي مرتبة تفوق مرتبات وزرائه كافة .

صوت : إلا انك لما بلغت الثامنة والستين، وبعد ان مضى على التحاقك بخدمة المنصور سنوات غير قليلة لقيت خلالها الحظوة والاحترام والاكرام، وتميزت بالعلاقات الودية بينكما، اصدر الخليفة فجأة الأمر بنفيك الى مدينة أليشانه، على مقربه من قرطبة، واحرق كتبك، مع بقية كتب الفلسفة التي وضعها فلاسفة آخرون.

إبن رشد : وحظر علي وعلى سواي الاشتغال بالفلسفة والعلوم جملة، ولم يسمح لنا الا بالاستغال بالطب، وعلم النجوم، والحساب. ويقيني ان الوشاة والحساد الكثيرين اوغروا صدر الخليفة عليَّ، ففعل ما فعل .

صوت : تقول احدى الروايات، يا ابا الوليد، ان السبب في استياء المنصور منك ونقمته عليك، انما هو قولك في رسالة لك في الحيوان، انك رأيت زرافة في حديقة ملك البربر . . .

إبن رشد : . . . ولكنني أوضحت له هذا الالتباس، قائلا للخليفة. « انما قلت ملك البرين، اي ملك المغرب

والاندلس، وانما تصحفت على القارىء »، ولكنه لم يرض بالايضاح .

وتقول رواية ثانية ان سبب تلك النقمة ورود عبارة اخرى في احد كتبك او رسائلك جاء فيها « فقد ظهر ان الزهرة احد الآلهة » . وقد استل خصومك هذه العبارة من مكانها في النص الواردة فيه واولوها تأويلا خاطئاً. ولكن هذا السبب كسابقه لا يعلل محنتك تعليلا كافيا . . .

ابن رشد : ذلك هو الواقع، يا سيدي، فقد اختار الخليفة تلك المناسبة للايقاع بي ارضاء للذين لم يكونوا ينظرون الى الفلسفة الا نظرة الحذر وسوء الظن، والفقهاء الذين كانوا يتربصون بالفلاسفة شرا. وقد كان نصيبي كنصيب الكثيرين من الفلاسفة الذين سبقوني وحلت بهم النكبة نفسها، امثال ابن باجة، وابن سينا، والكندي . . .

صوت : وقبل ان نشير الى نهاية محنتك، اود ان اورد سبباً آخر لنقمة الخليفة عليك - على ما روي - الا وهو مخاطبتك اياه في مجلسه بقولك : « يا اخي » ، أو « تسمح يا أخي » ، اذا كنت تبحث عنده في شيء من العلوم . . .

ابن رشد صحيح، فلقد كانت امانة التعبير العلمي احق عندي بالرعاية من زخرفة القول في ألقاب الملوك والامراء، اذ لا محل لها بين تقريرات العلماء والفلاسفة. وما

دمت قد ذكرت سبباً ثالثاً ربما كـان اساس محنتي، فاليك سبباً رابعا، لعله وافق في نفس المنصور غيظاً آخر لم اكن لألتفت او اعتقد انه يستحق العقاب .

صـوت : وما هو هذا السبب، يا ترى ؟

إبـن رشـد : مصادقتي، ابا يحيى، اخا الخليفة، ووالي قرطبة . . . وقد اعتبر الوشاة والحاقدون ان وراء هذه الصداقة عداوة مستتـرة للمنصور، لن تلبث ان تنكشف عن تمرد، وعن ولاء للمتمردين .

صـوت : ولكن كما سبق وذكرنا، لم تدم محنتك طويـلا، اذ رضـي عنك الخليفة فجـأة أيضاً، وجنـح الى تعلم الفلسفة، فأعادك الى منصبك.

إبـن رشـد : ولعل السبب المفاجىء لاعادتي كان زوال الاسباب التي دعته الى ابعادي في الاصـل للحد من غلواء الجمهور والفقهاء الذين درجوا بين آن وآخر على تكفير الفلاسفة والتنكيل بهم.

صـوت : ولكن في هذه الاثناء، كانت حالتـك الصحية قـد ساءت، فمرضت اثر عودتك، وكانت وفاتك يـوم الخميس التاسع من صفـر سنة ٥٩٥ هجـرية، في مراكش، وقبل وفاة المنصور الذي نكبك بشهـر او نحوه، ودفنت بخارجها. ثم نقل جثمـانك، ودفن بقرطبة مع سلفك . . .

إبن رشـد: وكيف تم ذلك ؟ ولماذا ؟

صـوت : نزولا عند رغبة اسرتك نقلت رفاتك بعد ثلاثة اشهر

الى قرطبة حيث ترقد الآن رقادها الأبدي . . . وقد اعقبت ذرية لم يشتهر منهم الا ابنك عبد الله الذي درس الطب مثلك واشتغل في بلاط الخلفاء . واولادك الآخرون ساروا في التقليد العائلي .

إبـن رشـد : . . . اي انهم كانوا من الفقهاء والقضاة . . . اني اشكرك على كل هذه المعلومات !

صوت : وقبل ان ننتقل الى عرض مؤلفاتك، وقراءة ما يتيسر لنا من مقتطفات أود ان نرسم صورتك كما خلفها لنا مترجموك . . . يقول عنك ابن الابار في كتابه « ازهار الرياض في اخبار عياض » :

- « تأثلت له عند الملوك وجاهة عظيمة لم يصرفها في ترفيع حال ولا جمع مال، انما قصرها على مصالح اهل بلده خاصة، ومنافع اهل الاندلس عامة . ».

وقد كنت متواضعاً، عفاً الى حد التقشف، شديد الشغف بالدرس والقراءة والإكباب على البحث، ولم تدع ذلك، على ما يروى إلا مرتين اثنتين وحسب طوال حياتك !

إبـن رشـد : . . . اجل يا سيدي، ليلة وفاة ابي وليلة زواجي، لم اصرفهما بلا درس او تصنيف. فقد كنت منقطعاً الى طلب العلم والمعرفة.

صوت : وكنت كريما الى ابعد الحدود، حتى انك لم تكن لتكترث بمظهرك، او تدخر المال لأيام الشدة، فكنت تمنح كل من يقصدك، وغالباً ما لامك الناس على

بذلك لمن لا يحبونك ولا ينفكـون يتهمونـك بشتى التهم .

إبـــن رشـــد : ان اعطاء العدو هو الفضيلة، اما اعطاء الصديق فلا فضل فيه.

صـوت : وقد اعطيت مرة رجلاً اهانك وقلت له : نصيحتي لك ألا تفعل هذا مع غيري انااردت الا يحطم انفك.

إبـــن رشـــد : على انني كنتُ اتسامح في ما خصني، ولا اتسامح في امر سواي .

صـوت : ويقول ابن الابار عنك :

ـ « كان على شرفه اشـد الناس تـواضعـاً واخفضهم جناحاً . . »

وكـان في ذلك مـطمع للطامعين في تـواضعـك وكرمك. وأحسب انني وضعت امام القراء الأعزاء اقرب صورة ممكنة لك، يا ابا الوليد. فلننتقل الآن الى ذكر مؤلفاتك التي تقع في اربعة اقسام هي : اولاً ، الشـروح او المصنفات الفلسفيـة والعلمية. وثـانياً، الشروح او المصـنفـات الطبية. ثالثاً، الكتب الفقهية والكلامية. ورابعاً، الكتب الأدبية واللغوية. ولسنا ندري ماذا أحرق من آثارك، وماذا ضاع منها بعد وفاتك. ولكن ما بقي منها يكفي لاعطائنا صـورة صحيحة لعقلك في شتى مشاركاته، من فلسفة وطب وفقه. فما رأيك في قـراءة شيء لنا عن بعض الاغذية مما ورد تحت عنوان الفواكه في كتابك « الكليات »

الطبي. ففي ذلك فائدة ملموسة كبيرة للجميع. أليس كذلك ؟

إبن رشد : كما تشاء يا سيدي. فاسمع ما اخترت من فصل الاغذية : « . . . وأما الفواكه فأفضلها التين والعنب. والتين مزاجه حار رطب يخمل بالمعدة ويلين البطن، وفيه جلاء بحسب ما فيه من اللبنية،وأفضله أتمه نصجاً. وأما العنب فإنه حار، حرارته قليلة ، رطب باعتدال، يخصب البدن بسرعة، الا انه يكون عنه رياح في الهضوم كلها، بخلاف التين، فان الرياح المتولدة عنه انما هي في المعدة والامعاء. واما الزبيب فحار، رطب، منصج، نافع للكبد . . . والتفاح : الحلو حار باعتدال، رطب، والحامض بارد يابس، خاصته تقوية الاعضاء الرئيسية، وهو يقوي الدماغ بالشم، وهذا كله بعطريته، وهو مما يولد رياحاً غليظة في الهضم الثاني والثالث، حتى انهم زعموا انه ربما كان سببا للسل، وذلك أنه تخرق الرياح المتولدة عنه شرايين الرئة . . . هكذا حكاه ابو مروان بن زهر، ولكن شرابه ليس يتولد عنه هذه النفخة .

- الكمثرى : اما الذي لم يدرك منه نصج فبارد يابس، وأما الذي ادرك فمعتدل أو مائل الى البرد قليلاً لأنه مركب من حلاوة وحمضة ، وقبض افعاله الثوالث وقبض البطن، وخاصته قطع العطش.

- السفرجل : أغلظ جوهراً من الكمثري واكثر قبضاً ، ولذلك صار برده اكثر، وخاصته أنه يشد

النفس وينفع من الخفقان شمه، كما ينفع الكمثرى، وهو في ذلك أقوى .

ـ الرمان : منه الحار ومنه الحامض ، وكلاهما رطبان ، إلا ان الحلو أرطب وأحر، ويكون منه نفخة يسيرة، وخاصته أنه يمنع الأغذية من ان تفسد في المعدة.

ـ الخوخ : بارد رطب يحدث أخلاطاً زجاجية، خاصته انه إذا شُمَّ نفع المغشي، ينفع أكله من بحر المعدة. وأما لبُّ نواه فانه يجلو الوجه، ودهنه ينفع من ثقل الصمم، وعصارته لقتل الديدان.

ـ واما المشمش : فإن مزاجه يقرب من مزاج الخوخ، إلا انه ليس فيه خواص الخوخ.

ـ واخيراً العبقر : وهذا نوعان، ابيض واسود، وكلاهما اذا ادرك بارد رطب، يكثر برد الصفراء، ويرخي فم المعدة بعض إرخاء . . . »

ها قد بلغنا نهاية هذا الفصل، فهل لك في شيء آخر ؟

صوت : حبذا لو كان الوقت يتسع لذلك. فبالاصالة عن نفسي، وبالنيابة عن القراء الأعزاء، اتقدم بالشكر الوافر لابن رشد الفيلسوف الطبيب الذي يقول فيه عباس محمود العقاد :

ـ « ان عقل ابن رشد هو عقل الشارح الفاهم الامين غير مدافع. ذلك مكانه في تاريخ الفكر الانساني، وقد بلغ به قصارى اثره، وغاية قدره، وانه لأثر كبير وقدر عظيم . »

## إبن البيطار : إمام النباتيين وعلماء الأعشاب
### ( القرن الثاني عشر - ١٢٤٨ )

صوت : هذه خطوط عريضة ترسم لنا شخصية العالم النباتي الطبيب إبن البيطار الذي سنلتقيه ونحاوره في هذا اللقاء . اسمه أبو محمد ضياء الدين عبد الله بن أحمد ، أبصر النور في القرن الثاني عشر في مالطة بالاندلس . درس في إشبيلية على أبي العباس النباتي الأندلسي ، وكان يجمع النباتات ويدرسها ، ويصنّفها . قام في مطلع شبابه بزيارة كل من مراكش والجزائر وتونس حيث جمع الكثير من الأعشاب ودرسها . وبعد أن زار بلاد الروم حطّ عصا الترحال في مصر حيث اتصل بخدمة الملك الكامل الأيوبي الذي عيّنه رئيساً على سائر العشّابين وأصحاب البسطات - على حدّ قول إبن أبي أُصيبعة ، وكان يعتمد عليه كثيراً في الأدوية المفردة والحشائش . ذلك بأن الملك الكامل ، إبن العادل الأيوبي قرّب إليه العلماء. ومن مصر انتقل إبن البيطار إلى دمشق حيث دخل في خدمة الملك الصالح نجم الدين ، إبن الملك الكامل الأيوبي . وكانت دمشق منطلقاً لجولات قام بها في البلدان المجاورة لجمع الأعشاب ودراستها لمعرفة خصائصها ، وفوائدها الصحية ووجـوه استطباباتها . ويقول الشيخ أحمد بن محمد المقري التلمساني في كتابه « نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب » :

- « وكان إبن البيطار أوحد زمانه في معرفة النبات ، سافر إلى بلاد الأغارقة واقصى بلاد الروم والمغرب ، واجتمع بجماعة كثيرة من الذين يعانون هذا الفن، وعاين منابته وتحققها ، وعاد بعد أسفاره ، وخدم الكامل بن العادل ، وكان يعتمد عليه في الأدوية والحشائش ، وجعله في الديار المصرية رئيساً على سائر العشابين وأصحاب البسطات .
ومن بعده خدم ولده الصالح ، وكان حظياً عنده ، إلى أن توفي بشعبان سنة ٦٤٦ التي توفّي بها ابن الحاجب . وله في المصنفات كتاب « الجامع في الأدوية المفردة » وكتاب « المغني » أيضاً في « الأفعال العجيبة والخواص الغريبة » ، وشرح كتاب ديسقوريدوس . قال الذهبي : انتهت إليه معرفة تحقيق النبات وصفاته ، وأماكنه ومنافعه ، وتوفي بدمشق . . . أكل عُقاراً قاتلاً فمات من ساعته .
أما إبن سعيد في كتابه « المغرب في حُلَى المَغرب » فقال : « وقد جمع الطبيب الماهر الشهير ضياء الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد إبن البيطار الملقي ، نزيل القاهرة ، كتاباً في هذا الشأن حشر فيه ما سمع به فقدر عليه من تصانيف الأدوية المفردة ككتاب الغافقي وكتاب الزهراوي وكتاب الشريف الإدريسي الصقلي وغيرها ، وضبطه على حروف المعجم ، وهو النهاية في مقصده . . . » .

إبن البيطار : احسب أنك اعطيت القراء فكرة واضحة عني وعن عملي ، يا سيدي . فماذا تودّ الآن التحاور فيه ؟

صوت : قبل حوارنا أودّ أن انقل اليك وإلى القراء ما يقول إبن

سعيد في وصف مسقط رأسك مالقة ، نقلاً عن كتاب « المسهب » للحجاري .

ابن البيطار : هات ما عندك ، فلكم أحنّ إلى مالقة التي ربما كان لطبيعتها الجميلة الفضل في اشتغالي بالنبات . . .

صوت : يقول إبن سعيد في كتاب « المغرب في حُلَى المغرب » :
ـ « ومالقة التي كانت تُعرف في القديم باسم « رَيّه » ، بحرية برية ، ولها الوادي الربيعي الذي يأتي زائراً مغباً ، فيزداد أهلها فيه غبطة وحباً ، وعلى مذانبه المتفرعة كسبائك اللجين ، ما ترتاح بمرآة النفس والعين ، ولها مما فعلت به ما حفها من شجر اللوز وشجر التين ، وهومفضل على سائر تين الأندلس ، إلاّ شُعريَّ إشبيلية، فإن بعضهم يفضله، ولا سيما في دخوله في الأدوية ومنفعته . ويكفيها عن الإطناب ما يتضمن شرح اسمها ، إن معنى ريّه عند النصارى « سلطانة ، فهي سلطانة البلاد . ولها القلعة المنيعة التي تتقلّد من المجرّة بنجاد » . دخلت مدينة مالقة وأقمت فيها إقامة أرعت الشباب ، وأمتعت مجالس الاداب . وكان والدي يفضلها ويعجب بها ولا سيما في أيام فرحهم وخروجهم إلى كروم العنب والتين . ولقد خرجنا الى كرم أقمنا فيه مدة منفعته ، فعددنا ذلك من أيام النعيم ، إذ بياض أبراجها في خضرة شجرها مع تناسقها وكثرتها ، كما قال الكاتب ابو العباس الشبلي :

نظرت لمالقةٍ مرةً
وقد زينوا أرضها بالبروج

فقلت سها بدت زُهْرهُا
تضاهي نجوم السها والبروجْ »

إبن البيطار : حسنا ، يا سيدي ، فأنا أشكر إبن أبي أُصيبعة على ما تفضّل به عليّ . فبماذا تريد أنِ نبدأ ؟

صوت : ونأتي إلى نتاجك العلمي النفيس الذي اكسبك الوصف الذي أطلقه عليك تلميذك إبن أبي أُصيبعة ، وقد رافقك في بعض جولاتك العلمية ناحية دمشق ، حيث يقول : « الحكم الأجل العالم . . . أوحد زمانه ، وعلّامة وقته في معرفة النبات وتحقيقه واختياره ومواضع نباته ونعت أسمائه على اختلافها وتنوعها . »

صوت : بالطبع سنبدأ بأهم مؤلفاتك « الجامع في الأدوية المفردة » . وقبل أن نستعرضه ، ونتكلم على محتوياته ، أودّ أن أنقل إليك ما يقوله فيه أكبر مؤرخي العلوم في العصر الذي نعيش فيه العلامة الدكتور جورج سارتون . . .

إبن البيطار : تُرى ماذا يقول ؟

صوت : « انه خير ما أُلفّ في هذا الموضوع في القرون الوسطى . بل إنه لأضخم نتاج من نوعه منذ أيام ديسقوريدس حتى منتصف القرن السادس عشر » . وهو إذ يورد ملاحظات شخصية لا يفوته أن يثني على النهج الذي اتبعته في التأليف من ناحية الدقة ، والتمحيص ، والموازنة . وقبل أن ندخل في موضوع محتوى هذا الكتاب النفيس ، اودّ أن أعرّف القراء الكرام على ديسقوريدس الذي يُذكر كلما ذكر اسمك ابن البيطار . . .

ابن البيطار : لا أرى أي مانع يحول دون ذلك ، فقد كان ديسقوريدس هذا خير معين لي في بحوثي ، فماذا عندك؟

صوت : يقول ابن القفطي في كتابه « إخبار العلماء بأخبار الحكماء » :

ـ «ذياسقوريذوس حكيم فاعل كامل من أهل مدينة عين زربة ، شأمي يوناني حشائشي كان بعد بقراط ، وفسّر من كتبه كثيراً ، وهو أعلم من تكلّم في أصل علاج الطب ، وهو العلامة في العقاقير المفردة ، وتكلّم فيها على سبيل التجنيس والتنويع ، ولم يتكلم في الدرجات . وألف كتاب الحشائش ، خمس مقالات .

قال جالينوس تصفّحت أربعة عشر مصحفاً في الأدوية المفردة لأقوام شتى فما رأيت فيها أتم من كتاب ذياسقوريذوس ، وعليه احتذى كل من احتذى بعده وخلّد فيها معنى نافعاً وعلماً جماً .

ومعنى اسمه في اليونانية « شجّار الله » ، لأن ذياسقور شجّار، ويذوس الله ، أي مُلهمُ الله على القول في الأشجار والحشائش . وله في السمائم كتابان مقالتان أتى فيهما بقول حسن . وكان ذياسقوريذوس هذا يقال له السائح في البلاد ، ويحيى النحوي الأسكندراني يمدحه في كتابه في التاريخ ويقول تغذية الأنفس صاحب النفس الزكية النافع للناس المنفعة الجليلة المتعوب المنصوب السائح في البلاد المقتبس لعلوم الأدوية المفردة من البراري والجزائر والبحار والمصوّر لها المعدد لمنافعها ، ويقال ان المقالتين المضافتين الى الخمس مقالات نُحلتا اليه » .

ويقول إبن أبي اصيبعة واصفاً اسلوبك في العمل بقوله :

- « . . . ولقد شاهدت معه في ظاهر دمشق كثيراً من النبات في مواضعه ، وقرأت عليه أيضا تفسيره لأسماء أدوية كتاب ديسقوريدس ، فكنت أجد من غزارة علمه ودرايته وفهمه شيئاً كثيراً جداً وكنت أحضر لدينا عدة من الكتب المؤلفة في الأدوية المفردة مثل كتاب ديسقوريدس وجالينوس والغافقي وأمثالها من الكتب الجليلة في هذا الفن . فكان يذكر أولاً ما قاله ديسقوريدس في كتابه باللفظ اليوناني . . . ثم يذكر جمل ما قاله ديسقوريدس من لغته وصفته ونفعه وأفعاله ، ويذكر أيضـا ما قاله جالينوس فيه من نعته ومزاجه وأفعاله وما يتعلق بذلك ، ويذكر أيضا جملاً من أقوال المتأخرين ، وما اختلفوا فيه مواضعه الغلط والاشتباه الذي وقع لبعضهم في نعته . فكنت أُراجع تلك الكتب ، ولا أجده يغادر شيئاً مما فيها . وأعجب من ذلك أيضـا أنه كان ما يذكر دواءً إلاّ ويعيّن في أي مقالة هو من كتاب ديسقوريدس وجالينوس ، وفي أي عدد هو من جملة الأدوية في تلك المقالة . . . »

ابن البيطار : بهذا تقضي الأمانة العلمية ، يا سيدي ، فعلى العالم منا عندما يتناول بالدرس والبحث أي موضوع سبق لسواه من العلماء معالجته أن يعيد الفضل الى ذويه ، ولا ينتحل شيئاً مما ليس له ، وإلاّ قلّت ثقة الناس به إذ يعلمون انه ينسب إليه أفضال سواه . ولست أجد أي حرج في ذلك ، فالأمانة في مثل هذه الأمور خلّة مطلوب توافرها دائماً .

صوت : صحيح ، ولا ريب في ذلك . فهلّا أسمعتنا الآن شيئاً من ذلك تدليلاً على ما ذكره إبن أبي أُصيبعة ؟

ابن البيطار : سأتحدث الآن عن الخسّ . يقول ديسقوريدس في مقالته الثانية ان الخس جيد للمعدة ، مبّرد للبطن ، منّوم ، مدرّ للبول ، وإذا طبخ يكون اكثر غذاء . وإذا أُكل كما يُقلع غير مغسول وافق الذين يشكون معدتهم . وإذا شُرب بذره نفع من الاحتلام الدائم وقطع شهوة الجماع . وإذا أُكل دائماً أحدث غشاوة في العين ، وقد يُعمل بالماء والملح . وأما الخس البري فإنه شبيه بالخسّ البستاني غير أنه اكبر ساقاً منه وأشد بياضاً من ورقه وأرقّ وأخشن ، وطعمه مرّ ، ولبنه شبيه بلبن الخشخاش الأسود ، ولذلك من الناس من يخلط لبنه بعصارة الخشخاش . ويقول جالينوس في المقالة السادسة : هذه بقلة باردة رطبة وليست في الغاية، ولولا ذلك لكانت مما لا يؤكل ، لكن برودة الخس كبرودة مياه الغدران ، فهو لذلك نافع من الأورام الحارة والعلل المعروفة بالحمرة إذا كان كل واحد منهما ضعيفاً يسيراً في المقدار . فأما ما عظم منها فليس في الخس تبريده . وأما على طريق الطعام فهو يقطع العطش . وقال جالينوس في كتابه « الاغذية » : ان الخس أجود البقول غذاء لأنه يولّد دماً ليس بالكثير بالرديء ، إلّا أنه ليس في غاية الجودة . وقد كنت آكل الخس في شبابي لأن معدتي كانت تولّد مراراً كثيراً ، فكنت أُبردها به . وأنا الآن في شيخوختي آكلها سليقة وذلك أني لم أجد شيئاً من البقول يداوى به السهر غيره . والخلّة التي يذم بها الخسّ جهّال الأطباء بأن يقولوا إنه يولّد دماً كثيراً

يجتمع منه امتلاء دموي هو له مديح وذلك انه لو كان كذلك لكان أحمد من سائرالبقول والأطعمة التي ليس منها شيء يولّد الدم الكثير من غيره من الاخلاط .

أما دوفس فيقول في كتاب « التدبير » : الخس شافٍ لجميع العلل الحادثة من السكر ـ إذا أُخذ في وسط الشراب . وهو نافع من اللذع العارض في المعدة ، ضار للمعي ويهيج البطن .

وقال إبن ماسويه : الخسّ يولّد خلطاً محموداً أكثر من توليد جميع البقول ، ودماً صالحاً إلى البرد ما هو . والمغسول منه بالماء رديء لأن جميع البقول يزيد غسلها بالماء في قراقرها ونفخها . وإن دُقّ وخمر به اليافوخ أنام وسكّن الحرارة في الرأس والهذيان ، وهو سريع الهضم .

وقال قسطس في كتاب « الفلاحة » : ان الخس يهيج شهوة الأكل ، وإن أُكل بخلّ سكن المرة ، وان طُبخ بدهن وخل أذهب اليرقان ، وهو دواء لاختلاف المياه وتغيّرها ، وتغيّر الارضين، ويسكّن وجع الثدي ، وبـزره يسكّن لدغة العقرب ووجع الصدر .

ونأتي أخيراً إلى ما يقوله الرازي في كتابه « دمغ مضار الأغذية » :

ينبغي أن يجتنب أكل الخس من به قيح في صدره أو ربو أو خليط يحتاج أن يرمي به ، فإنه يخنق هؤلاء خنقاً سريعاً ، وإن اتفق لهم ذلك في حالة فليبادروا بالقيء بماء العسل ، وليأخذوا بعد ذلك معجون الربو وطبيخ الزوفى ونحوها مما يقلع ما في الصدر . وأما السعال الذي لا نفق معه الذي

يكون من مادة رقيقة تتحلب من الرأس فيسهر العليل ويمنعه النوم بالليل . وأكل الخسّ موافق له وأمّا يقول العامة من أنه يولّد دماً كثيراً فباطل ، وإنّما يُعطى المفتصدين والمحتجمين لأنه يطفىء ويبرد ، ولا سيما إذا أكل بالخل.والاكثار من الخس يضعف البصر ، ومن اكثر منه فليتقص بالقوقابا وليتعاهد تقطير ماء الرازيانج في عينيه .

صوت : ومن البقول ننتقل الى الفاكهة ، فهل لك أن تحدّثنا عن الرّمان مثلاً ؟

إبن البيطار : يقول جالينوس في مقالته الثامنة جميع الرمان طعمه قابض ولكن الأكثر فيه لا محالة القبض وذلك لأن منه حامض ، ومنه حلو ، ومنه قابض ، فيجب ضرورة أن تكون منفعة كل نوع بحسب الطعم الغالب عليه . وحبّ الرمان أشد قبضاً من عصارته وأشد تجفيفاً وقشوره اكثر الأمرين جميعاً من حبه .

ويقول ديسقوريدس في مقالته الأولى : الرمان كله جيد . الكيموس جيد.للمعدة قليل الغذاء ، والحلو منه أطيب طعماً من غيره من الرمان ، غير أنه يولّد حرارة ليست بكثيرة في المعدة ، ونفخاً ، ولذلك لا يصلح للمحمومين . والحامض أنفع للمعدة الملتهبة ، وهو اكثر إدراراً للبول من غيره من الرّمان ، غير أنه ليس بطيّب الطعم وهو قابض . وأما ما كان منه فيه متشابهة من طعم الخمر فإن قوته متوسطة . وحبّ الرمان الحامض إذا جفّف في الشمس ودُق وذُرّ على الطعام أو طبخ معه منع

الفضول من أن تسيل الى المعدة والامعاء . وإذا نقع في ماء المطر وشرب نفع من كان ينفث الدم . . . وعصارة حبّ الرمان ، وخاصة الحامض منه ، إذا طُبخت وخلطت بالعسل كانت نافعة من القروح التي في الفم والقروح التي في المعدة ، والداحس ، والقروح الخبيثة ، واللحم الزائد ، ووجع الآذان ، والقروح التي في باطن الأنف .

ويقول الرازي في كتابه « دفع مضار الأدوية » : وأما الحلو من الرمان فينفخ قليلاً حتى أنه ينعظ ، ويحطّ الطعام عن فم المعدة إذا امتصّ بعده ، وليس يحتاج الى اصلاح لأن نفخه سريع التفشي . وأما الحامض فإنه طويل الوقوف ، وينفخ ويبرد الكبد تبريداً قوياً ولا سيما إن أدمن وأكثر . ويعظم ضرره للمبرودين ويبّرد اكبادهم ويمنعها من جذب الغذاء فيورثهم لذلك إسهالاً ويهيج فيهم الرياح ، ولذلك ينبغي أن يلحقوه بالزنجبيل المربى والشراب القوي والاسفيدباج الذي يقع فيه الثوم والتوابل ، ولا شيء أصلح لأصحاب الأكباد الحارة إذا ادمنوا الشراب العتيق من التنقل به .

ويقولُ الرازي أيضاً في كتاب « الحاوي » : وقشر الرمان إذا سُحق واقتمح منه صاحب الدود وزن خمسة عشر ، وشرب عليه ماء حاراً فإنه يخرجها بقوة .

وأما إبن زُهْر فيقول في كتابه « الاغذية » : في الرمانين خاصة محمودة بديعة وهي أنهما إذا أُكلا بالخبز منعا أن يفسد في المعدة . وأما الحامض فإنه يقطع بلغم المعدة وسائر البلغم ، وإن طبخ به طعام لم يكن الطعام يفسد في المعدة وكذا يفعل الربّ المتخذ من الحلو منه . وفي

الشراب المتخذ من كليهما خاصية في منع اخلاط البدن من التعفن . . .

صوت : كم كنت أودّ الاسترسال في التعرّف إلى بعض ما في كتابك من معلومات عن النبات وفوائده الصحية والطبية لو كان الوقت يتسع أمامنا . فالموضوع شيّق ومفيد وواسع جداً ، ولا سبيل الى الاحاطة به ، وفي وسع من يود الأستزادة أن يرجع إلى أهم مصنّفاتك « كتاب الجامع لمفردات الأدوية والاغذية » ، ويعرف أيضاً بـ « مفردات إبن البيطار » . وقد سماه إبن أبي أُصيبعة في كتابه « طبقات الأطباء » « كتاب الجامع في الأدوية المفردة » . وهو مجموعة من العلاجات البسيطة المتخذة من عناصر الطبيعة من معادن ونباتات وحيوانات . وفيه جمعت وصفات العلماء القدامى من يونانيين وعرب ، مضيفاً إليه اختباراتك الشخصية . وقد رتبته على حروف المعجم . وهو مطبوع في بولاق في مصر ، سنة ١٨٧٤ ، في أربعة اجزاء . وقد ترجمه الكاتب الفرنسي لوكلير وطبعه في باريس بين السنة ١٨٨٧ و ١٨٨٣ . ويقع هذا الكتاب في نحو ٢٣٠٠ جملة تتعلق بزهاء ١٤٠٠ عقار ، منها ألف وردت في المباحث اليونانية .

ابن البيطار : ولي ، يا سيدي ، أيضاً كتاب « المغني في الأدوية المفردة » ، وأتناول فيه الاعضاء واحداً واحداً ، وأذكر طريقة معالجتها بالعقاقير ، بأسلوب مختصر . وهو يشتمل على عشرين فصلاً . وقصدت من وضعه أن ينتفع به الاطباء . . .

صوت : ولك كتاب « الأفعال الغريبة والخواص العجيبة » ، وكتاب « الإبانة والإعلام على ما في المنهاج من الخلل والاوهام » .

ونلخّص في مؤلفك المسمى « الفلاحة الرومية » معلومات تتعلق بنحو ٣٠٠ عقّار وغذاء جديد لم تُعرف من قبل ، بينها مئتا عشبة جديدة . فضلاً عن صيانتك من الضياع نتاج مئة وخمسين نباتياً ، منهم حوالي عشرين يونانياً ، وعدد من العلماء الفرس والهنود والسريان والكلدان . وترجم كتابك هذا الى عدد من اللغات هي اللاتينية والفرنسية والالمانية .

وتعميماً للفائدة نفتح كتاب « الدرة البهية في منافع الأبدان الانسانية » وهو مختصر مفردات الطبيب الأشهر والعلاّمة الأكبر ضياء الدين أبي محمد عبد الله بن أحمد إبن البيطار المالقي الاندلسي » ـ على حد قول محمد عبد الله الغزالي ، الموظف في وزارة المعارف العمومية في مصر ، وأمين مكتبة الاسكندرية التعليمية ـ الذي يمضي فيقول في هذا الصدد في مقدمته للطبعة الأولى منه :

« . . . فإني قد حصلت في أيام انتدابي للتدريس في الحرم المكي الشريف والمعهد السعودي للمعلمين بمكة المكرمة على مختصر مفردات ابن البيطار . . . وهذا المختصر مخطوط على ورق عتيق ، بخط دقيق ، أحسبه مسوَّدة المؤلف رحمه الله . ولعلمي بعد البحث المتواصل انه المختصر النادر المثال الوحيد اعتزمت طبعه ونشره وإخراجه من أصدافه بعد تحرير عباراته وإظهاره في ثوب

قشيب يليق به للانتفاع بفوائده وثمراته بعد الوقوف على ما ذكره ابن البيطار من المفردات الطبية في كتابه « الجامع في الأدوية المفردة » واسمائها وتحريرها وقواها ومنافعها ومضارها ، والصحيح منها وما وقع الاشتباه فيه ، وأعلامها وماهيتها وإصلاح ضررها والمقدار القانوني المستعمل منها أو عصارتها أو طبخها أو البدل منها عند عدمها أو فقدها ، والعقاقير وتراكيبها ، والحيوانات ومنافعها ، والبذور وخواصّها » . وفاتني أن أذكر أن بين يديّ الآن الطبعة الثانية من هذا المختصر . . .

إبن البيطار : « . . . الدرة البهية في منافع الأبدان الانسانية » . . . فماذا تودّ أن نفعل الآن .

صوت : اقترح أن نقرأ بعض ما ورد تحت عنوان « الثمار الرطبة وطبائعها ومضارها ومنافعها» واسماء هذه الثمار الرطبة هي :

العنب الرقيق الحلو ، دم صالح : يسهل ويسمن وينفع الصدر والرئة والمزاج البارد . وأبيضه يلينّ اكثر من الاسود . وفيه نفخ وتزيد في المعدة ويعطش ويضرّ بالكبد والطحال الغليظين .

التين الأبيض ، غذاء صالح : يجلو الكلى من الرمال ويؤمن من السم ، ويلطف ويدفع الأدران من الصدر والظهر وهزال الكلي ، وضعف الباه .

التفاح الفتحي البالغ ، دم قليل : يقوي القلب ، ويسر النفس ، ويعطر المعدة ، ويحسن الحلق ، ويجود الهضم ،

ويزيل لأغشاء امتصاصه . وماؤه بماء الورد واكله بالسكّر يبلّد ويضر العصب ويستحيل سريعاً .

السفرجل ، الكبار المائي خلط بارد : يدرّ البول ، ويسرّ النفس ، ويعطر الفم والمعدة ، وماؤه يقطع القيء ، وهو مسهل بعد الغذاء ، وقابض قبل الغذاء ، ويضرّ ذوي المزاج البارد ، وينفع الصفراوي .

الكمثرى الحلو البالغ دم كثير بارد : مغذية وتنفع المعدة الضعيفة ، والمزاج الحار . وتسكّن الغثيان . والفجّ منها مبرّد ، والصلب ممسك ، والبالغ مسهل ويضرّ بالشيوخ ، ومضر بمرض القولنج .

المشمش واللوز البالغ ، دم صفراوي : يرطب ويسهل القيء ، ويوافق المزاج المعتدل ، والممتلىء منه خير من أكل القليل ويبرّد المعدة .

الدراقن اللون الزهر ، بلغم رقيق : الدراقن من الفواكه الطيبة ، هش القوام مخمل الظاهر ، ونواه كبير خشن يطفىء الحميات المحرقة ، ويوافق المعدة الغليظة والمزاج الحار ، ويمنع البخار وورقه يقتل دود البطن .

التوت الأبيض اللبّ ، الحلو ، دم رقيق : يبرّد ويرطب ، وينفع الحلق والمزاج الحار ، والإمعان منه اجود من اكل القليل . وأجود أكله على الريق لا بعد الطعام .

التوت الشامي البالغ المائي ، مركّب دم وريح : الشامي ينفع من أورام الحلق والمزاج الدموي ، والفجّ يولّد ريحاً ومغصاً ، وهو سريع الاستحالة الى التلف والرداءة .

التفاح المزّ الصغير قابض ، دم بلغمي : وهو درياق مانع من الغثيان، جيد للصفراء ومضر بالمفاصل والبلغم ، وجرمه يحدث ريحاً ومغصاً وقبضاً للطبيعة ، وتبليداً للذهن .

الحصرم وماؤه ، غذاء قليل : ينفع الاحشاء للصفراوي والمزاج الحار ، ومضر بالاحشاء الضعيفة ، وخير مائه العتيق ، وفي الحصرم إسهال وقبض لغلظ مائه ، ويسهل بمجموعه .

الموز الحلو النضيج ، خلط بلغمي : بطيء الهضم يفتش ويشد المعدة ويقمع الصفراء ويطيب النفس ويشهي الطعام ، ويضرس ويضّر بالاعصاب ، وينفخ ويهيج البلغم ، ويؤكل مع الملح اليسير او العسل .

البطيخ الأصفر ، الحلو البصلي ، دم يسير : يحلو ويفتت الحصى ويرخّي الاحشاء ويولد الحميات المحرقة ، ويوافق الامزجة المعتدلة ، ولا يؤكل مع اللبن ولا بعده فيضرّ المعدة الضعيفة الباردة .

البطيخ الأخضر ، البالغ الطول ، دم صافٍ : ينفع في المرض الحار والمزاج الصفراوي ، ويدرّ البول ، ويغسل المثانة والكلي ، ويفجج الاخلاط ويضرّ الكبد والطحال والمعدة المتورمتين، ويعقل البطن بجرمه ويصلحه بالسكّر.

إبن البيطار : وما رأيك في الانتقال الى ذكر بعض التوابل وطبائعها ومضارها ومنافعها . فلدي ما أقوله حولها . وأبدأ بالكمون الكرماني ، وهو دم حار : يصرف الريح ،

ويسخن ويصدع ويمري ويشهي وينفع من القولنج ويجلو الاحشاء ويخفف ويحرّك الباه ، وكذلك الكراويا وهي اقل يبساً وترفع الرطوبات من المعدة .

الينسون الكبار ، دم حارّ : يطرد الريح الغليظة ، ويقطع البلغم ويغذي ويجلو ويحلل ، وكذلك زيت الكمون والكراويا إذا طليا على البدن والركبتين بالتدليك أفادهما جداً .

الشونيز ـ أو الحبة السوداء ـ البستاني ، دم حار : يزكي وينبّه ويضر اصحاب الصفراء ويقطع التآليل والبهق والجرب والبرص ويزيل الصداع ويقتل الدود ويدرّ الحيض ، ويفتت الحصى ، ودخانه يقتل الهوام ويذهب حمّى البلغم السوداء .

السمسم البستاني ، دم صفراوي : يهيج الصفراء ويوخم ويرّطب ، ويلين البدن دهنه ويرخي المعدة .

الخشخاش الابيض منه ، دم جيد : منوم مرطب نافع للسعال والحلق والدماغ ويزيد في المني بالسكر .

صوت : شكراً وحبذا لو كان المجال يتسع لمزيد من هذه الفوائد الطبية . وفي الختام ، يا سيدي أبا محمد ، اورد ما يختم به الدكتور اسامه عانوتي فصلاً عقده حولك في كتابه القيّم « روائع من التراث العربي » حيث يقول :

ـ « . . . وقد إتضح لنا أن الأوصاف والمعلومات (الاستبطابات) الاساسية التي أتى بها ابن البيطار ، صحيحة ـ في جوهرها ـ وليس أدلّ على ذلك من أن طائفة

عظيمة من الاعشاب والنباتات التي طوى عليها كتابه قد اعترف بجدواها الطب الحديث ، ودخلت فى علم العقاقير مواد ثبت صلاحها في معالجة أمراض عديدة .

وإنّه لمن الغدر والظلم والتنكر لقدسية العلم أن يُسدل ستار الاعراض أو النسيان دون هذه الصفحات الرائعات » !

ابن البيطار :

شُكراً لك وله ، يا سيدي على هذا التقدير . . .

# نصير الدين الطوسي : العلامة وأكبر رياضيي العرب (١٢٠١ - ١٢٧٣)

صوت : يصادف العباقرة في حياتهم شتى انواع المحن ومعاكسات القدر الغاشم . ومع ذلك لا ينفكّون يصارعون بعناد عناصر الاخفاق والمصاعب حتى يتجاوزوها ويحالفهم النجاح كأن شيئاً من ذلك لم يكن . ولعلّ السجن هو من أصعب ما يتعرض له هؤلاء . . . غير انه اذا كان الانزواء بين جدران أربعة المقرون بالاضطهاد نقمة عليهم ، فإنه غالباً ما يكون نعمة على الفكر والأدب والتأليف ، وبخاصة على الموهوبين ممن زجوا في غياهب السجون . . . فهذا الكاتب والسياسي والرحالة الانكليزي السر ولتر رالي الذي كان يضع حبات اللؤلؤ في أذنيه ، وفصوص الماس في حذائيه ، والذي بسط عباءته فوق الوحول لتمرّ عليها الملكة اليزابيث ، وضع مؤلفاً في التاريخ وهو في السجن حيث قضى أربعة عشر عاماً بسبب الحسد السياسي .

وكانت الحجرة التي سُجن فيها ضيقة ، شديدة الرطوبة ، فأصيبت ذراعه بداء العصبي ، وكان الألم يعقّد أعصاب يده فيشلها عن الحركة . ولكنه بالرغم من بؤسه وانكسار قلبه صنّف مؤلفاً في التاريخ هو « تاريخ العالم » ، ما يزال

يدرّس إلى اليوم ، بعدانقضاء أكثر من نيف وثلاثة قرون . . .

**الطوسي :** ماذا تقول ، يا سيدي ؟. . . .

**صوت :** دعني أكمل . . . وفي السجن الذي قضى فيه سنتين وضع اوسكار وايلد رائعته « من الاعماق » ، كما وضع قصيدة طويلة بعنوان « سجن ريدنغ » . ولهذا الشاعر والأديب الانكليزي الآخر مجموعات من القصص والمسرحيات والشعر .

**الطوسي :** وهل هناك سواهما ؟

**صوت :** هناك كثيرون ! فقد كان السجن ايضاً في بادىء الأمر ضربة قاسية ، بل كارثة عظمى ، على أمين الصندوق في احد المصارف بسبب الأخطاء التي ارتكبها في دفتر حساباته . فاتهم بالاختلاس ، وهو منه براء . ولكنه افاد منه افادة عظيمة ، فقد عكف خلال مدة اقامته السنوات الخمس مسجوناً على كتابة القصص الرائعة التي جعلت اسمه محترما محبوبا في كل بقعة يتخاطب أهلها باللغة الانكليزية . وليس من المغالاة في شيء القول انه لولا دخوله السجن لما فكر يوما في الكتابة .

**الطوسي :** ومن يكون هذا ؟

**صوت :** انه الكاتب الاميركي او هنري ، صاحب المجموعات القصصية التي تضم أكثر من ٦٠٠ قصة والتي بيع منها زهاء عشرة ملايين نسخة ، وترجمت الى كل لغة حيّة بما فيها : اليابانية ، والاسبيرانتو ـ أو اللغة العالمية ، والتشيكوسلوفاكية ، والدانمركية ، والسويدية ،

والنـرويجية ، والفـرنسية ، والالمـانية ، والـروسيـة ، وغيرها . . .

الطوسي : احسب، يا سيدي انك وصلت الي الآن . . .

صوت : بالطبع ، لأننا استرسلنا قليلاً ذلك بأن المجال يضيق بنا عن تعداد العباقرة الذين كان السجن نقمة عليهم ، ولكنه كان في الوقت نفسه نعمة على التراث الحضاري في كل زمان ومكان . معنا الآن العلامة نصير الدين الطوسي ، احد أعظم العلماء والمفكرين العرب ، وأحد أشهر رياضييهم وفلكييهم ، الذي قيل ان مؤلفاته تكوّن مكتبة قيّمة زادت في الثروة الانسانية العلمية ، ودفعت بها الى الارتقاء والتقدّم . . .

الطوسي : اشكرك ، على هذا التقديم ، ومن قبله على تعريفي ببعض العباقرة ممن كان السجن نصيبهم في مرحلة من مراحل حياتهم ، مثلي تماماً .

صوت : قبل أن نبدأ باستعراض سيرتك وتقييم آثارك الخالدة نودّ أن نلمّ قليلاً بالظروف التي أدّت إلى سجنك .

الطوسي : انت نفسك ، يا سيدي ، ذكرت في مستهل هذا اللقاء الحسد السياسي ، قاتله الله ! فقد نقم عليّ بعض الوزراء والحكّام ، وحقدوا بسبب مكانتي المرموقة لدى أولياء الأمور ، فأوغروا صدر حاكم قهستان الذي حكم عليّ بالسجن ، وزجني في حصن « ألموت » مقرّ الفرقة الارهابية المعروفة باسم الحشاشين .

صوت : حسناً . . . دعنا نبدأ قصتك من بدايتها ونوضح كل هذه الملابسات. فأنت من مواليد طوس في سنة ٥٩٧ للهجرة . . .

الطوسي : . . . وعلى وجه التحديد في الحادي عشر من جمادى الاولى سنة ٥٩٧ .

صوت : وينسب الى طوس عدد كبير من صفوة الأئمة والعلماء ، كالغزالي ، وأخيه أبي الفتوح ، والفردوسي الحكيم الشاعر الفارسي وصاحب «الشاهنامة » ، وأبي القاسم منصور ، وسواهم ، وأنت بالطبع . . .

الطوسي : بدأت حياتي العلمية منجّماً للحاكم الاسماعيلي نصير الدين عبد الرحيم بن أبي المنصور في سرتخت . وبعد أن افتضحت محاولة انتقالي الى بلاط الخليفة في بغداد ، وضعت تحت المراقبة في سرتخت هذه ، ثم في قلعة « ألموت» التي ذكرت .

صوت : ولكن سُمح لك بالبقاء في منصبك ، ومواصلة بحوثك العلمية دون أن يعوقها أو يوقفها أي شيء . . .

ولكن افشيت سر التحصينات في هذا الحصن للمغول الغزاة الذين سرعان ما التحقت بجيوشهم ، ورافقت قائدهم الفاتح هولاكو ، وما لبثت ان احتويت على عقله ، فكان لا ينتقل ولا يسافر إلاّ في الوقت الذي تعيّنه له .

الطوسي : الواقع ان هولاكو مؤسس دولة المغول في فارس أعلى

مكـانتي عنده لاشتهـاري في علم الأرصاد، وكـان يستشيرني ويتصرف حسب رأيي ، لثقته بعلمي وبراعتي في التنجيم ، ومعرفة ما سيكون وما يؤول إلى تجنّب الحظوب ، وتلافي الاخطار .

صوت : ومن أخبارك معه أنك دخلت يوما عليه ... كتاباً مصوراً في عمل الترياق الفاروقي ، فرحت تشيد بما يحتوي عليه من منافع ، قائلاً له ان كمال منافـعه هو في ان تسحق مفرداته في هاون من ذهب .

الطوسي : وقد أمر لي اذ ذاك بثلاثة آلاف دينار لصنع هذا الهاون .

صوت : وقد صرّفك هولاكو في الاموال ، وجعلك الأمين على اوقاف الممالك التي استولى عليها . وكان لك في كل بلد نائب يستغلّ الأوقاف ويأخذ عِشْرها ويجعله اليك .

الطوسي : وقد استغللت الاموال هـذه التي وضعت بتصرفي لبناء مـرصـد مـراغـة الشهـير مـع مكتبـة.ضمت اكـثر من اربعماية الف مجلد، بينها كل نادر ونفيس .

صوت : بعملك هذا ، يا سيدي ، تتجلى بـأروع مظاهـرها براعتك ، ومحبتك الفائقة للعلم والبحث والدرس . وكنت قد بلغت الستين من عمرك عندما شرعت ببناء مرصد مراغة .

الطوسي : ولكن تبقّى لي ، يا سيدي ، اثنتا عشرة سنة أخرى لانجاز مهمتي في حساب الأزياج الفلكية الجديدة تماماً على اساس المراقبات والأرصاد الشاملة .

صوت : وقد سجلت حساباتك هذه في زيجك المشهور « الزيج الخاني » ، وكتاب « التذكرة الناصرية » وهو مسح شامل لميدان الفلك بأسره ، وقد كتب عليه علماء ، متأخرون الكثير من التعليقات . . .

الطوسي : الحقيقة ، يا سيدي ، ان الفضل في تسهيل سبل قيامي بابحاثي الى اهتمام الخانات المغول ، وبخاصة هولاكو ، بالأمور الفلكية ، وهو الذي كلفني بناء مرصد مراغة الذي تم تجهيزه بأفضل الآلات والاجهزة ، وبعضها يصنع للمرة الأولى . . .

صوت : . . فضلا عن اشراف فريق كبير من العلماء والحكماء والمراقبين على العمل فيه ، وقد جمعتهم من مختلف الانحاء في بلاد العرب ، فهلّا عددت لنا بعضهم ؟

الطوسي : من أشهر هؤلاء اذكر لك المؤيد العرضي من دمشق ، والفخر المراغي من الموصل ، والفخر الخلاطي من تفليس ، والنجم دبيران القزويني ، ومحيي الدين المغربي من حلب .

صوت : وكنت واسع المعرفة شاملها ، تستحق لقب العلامة في عرف الكثيرين من الذين درسوا مآثرك العلمية القيّمة . ووضعت كتباً باللغتين العربية والفارسية ، فهل لنا أن نتعرّف الى عناوين بعص تآليفك في الرياضيات والفلك وسواهما من المواضيع التي اهتممت بها ؟

الطوسي : سأذكر لك ما يحضرني من عناوين الآن لأنها كثيرة : فهناك المتوسطات بين الهندسة والهيئة ، وشكل القطاع ،

ومقدمة في الهيئة ، والتجريد في المنطق ، وأوصاف الأشراف ، وقواعد العقائد ، والتخليص في علم الكلام والعروض ، وجامع الحساب في التخت والتراب ، والكرة والاسطرلاب ، وتربيع الدائرة ، وكتاب المجسطي، والجواهر والاسطوانة ،والفرائض ، والجبر والمقابلة ، ورسالة في معرفة التقويم . وفي حقل الفلسفة اذكر دفاعي الشهير عن إبن سينا ضد حملات فخر الدين الرازي .

صوت : هذا فضلا عن نشر وتحسين الترجمات العلمية التي قام بها قبلك كل من ثابت بن قرّة ، وقسطا بن لوقا البعلبكي ، واسحق ابن حنين عن اليونانية لمؤلفات العلماء الرياضيين والفلكيين اقليدس، وابولونيوس ، وثيودوسيوس ، ومينيلاّوس ، واوتوليكوس ، واريستارخوس ، وبطليموس ، وهبسيكليس .

الطوسي : ولي ايضا ابحاث ودراسات حول الشؤون الإسماعلية لعلّ أبرزها « التصورات » .

صوت : ولعلّ أشهر مؤلفاتك الرياضية كتاب « شكل القطاع » الذي نتوقف قليلاً عنده ، قبل المضي في سيرتك التي قاربت على نهايتها . فهو كتاب فريد في نوعه ، ترجم الى اللغات اللاتينية والفرنسية والانكليزية ، وظل طوال قرون المصدر الذي استقى منه علماء الغرب الاوزوبيون المعلومات في المثلثات الكروية والمستوية.

الطوسي : كتابي هذا هو أول كتاب يفصل المثلثات عن الفلك ويجعلها علماً مستقلاً بذاته ، وهو يتضمن خمس مقالات ، تشتمل الواحدة منها على عدد من الاشكال والفصول ، لا

مجال هنا لذكرها والتبسّط فيها خوفاً من التطويل

صوت : أود أن انقل إليك الآن ما يقوله في كتابك شكل القطاع « قدري حافظ طوقان في كتابه » « الخالدون العرب » ، وانت منهم على سبيل تقييمه :

- « . . ومن يطالع هذا الكتاب يجد فيه ما لا يجده في أنفس الكتب الحديثة في المثلثات على نوعيها . ولهـذا الكتاب فوق ذلك أثر كبير في المثلثات وارتقائها . وفي وسعنا القول ان العلماء فيما بعد ، لم يزيدوا شيئاً هاماً على نظريات هذا الكتاب ودعاويه . وتتجلّى لنا عظمة الطوسي وأثره في تاريخ الفكر الـريـاضي وغير الرياضي إذا علمنا ان المثلثات هي ملح كثير من العلوم الريـاضية والبحوث الفلكية والهندسية ، وانه لا يمكن لهذه ان تستغني عن المثلثات ومعادلاتها . ولا يخفى أن هذه المعادلات هي عامل اساسي في استغلال القوانين الطبيعية والهندسية في ميادين الاختراع والاكتشاف » .

الطوسي : لك الشكر الوافر على نقلك الي هذا التقييم لكتابي « شكل القطاع » .

صوت : واخيراً ، يا سيدي كانت وفاتك في بغداد في الثامن عشر من ذي الحجة سنة ٦٧٢ للهجرة ، فهل تحب أن تعلم شيئاً عن أبنائك ، وماذا قاموا به من اعمال من بعدك ؟

الطوسي : بكل تأكيد ، يا سيدي ، فماذا عندك عنهم ؟

صوت : بعدك وَلِيَ ابنك صدر الدين علي اكثر مناصبك ، ولما مات

ولي بعده اخوه حسن بن نصير الدين محمد ، فقدم الشام وحكم في اوقاتها ، وأخذ منها جملة ، ثم عاد الى بغداد مع غازان وولي نيابتها ، فأساء السيرة ، فعزل ، وأهين ، ومات .

الطوسي : ساعه الله ، ما هكذا انشأت ابنائي . . .

صوت : هذا لا ريب فيه ، فقد كنت في اعتراف الكثيرين على مكانتك العلمية ، متواضعاً ، حسن الملتقى والعشرة ، غزير الفضل ، حليماً وسمحاً كريماً . . .

الطوسي : وماذا ، بربك ، عن ابني الثالث الفخر أحمد ؟

صوت : يسؤوني ان اعلمك ان الفخر أحمد هذا قتله غازان لأنه استولى على اوقاف الروم وظلم . . .

الطوسي : لكم أنا أخجل من تصرّفات أبنائي الشاذة هذه ، سامحهم الله مرة ثانية !

# ابن أبي أُصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء
## (١٢٠٣ - ١٢٧٠)

صـــوت : ـ « وبعد فانه لما كانت صناعـة الطب من أشـرف الصنائع، وقد ورد تفصيلها في الكتب الالهية والاوامر الشـرعيـة، حتى جعـل علم الابـدان قـرينـا لعلم الاديان. وقد قالت الحكماء : ان المطالب نـوعان خبـر ولذة، وهذان الشيئـان انما يتم حصـولها لـلانسان بوجود الصحة، لأن اللذة المستفادة من هذه الدنيـا والخير المرجو في الدار الاخرى لا يصل الواصل اليهما الّا بدوام صحته وقوة بنيته، وذلك انما يتم بالصناعة الطبية لانها حافظة للصحة الموجـودة. وردّاة للصحة المفقودة، فوجب اذا د نت صناعة الطب في الشرق بهذا المكان وعموم الحاجة اليه داعية في كل وقت وزمان، ان يكون الاعتنـاء بها أشـد، والرغبـة في تحصيل قوانينها الشكلية والجزئية أكدًّ واجدّ. وانه لما كـان قد ورد كثـير من المشتغلين بها والـراغبين في مباحث أصولها وتطلبها منذ اول ظهورها والى وقتنا هذا، وكان فيهم جماعة من اكابر أهل هذه الصناعة واولي النظر فيها والبراعة ممن قـد تواتـرت الاخبار بفضلهم ونقلت الآثار بعلو قدرهم ونبلهم، وشهدت

لهم بذلك مصنفاتهم، ودلت عليها مؤلفاتهم، ولم أجد لأحد من اربابها ولا من انعم الاعتناء بها كتابا جامعا في معرفة طبقات الاطباء وفي ذكر احوالهم على الولاء، رأيت ان اذكر في هذا الكتاب نكتا وعيونا في مراتب المتميزين من الاطباء القدامى والمحدثين، ومعرفة طبقاتهم على توالي ازمنتهم واوقاتهم، وان اودعه ايضا نبذا من اقوالهم وحكاياتهم، ونوادرهم ومحاوراتهم وذكر شيء من اسماء كتبهم، ليستدل بذلك على ما خصهم الله تعالى به من العلم وحباهم من جودة القريحة والفهم، فان كثيرا منهم وان قدمت ازمانهم وتفاوتت اوقاتهم، فان لهم علينا من النعم فيما صنّفوه والمنن فيما قد جمعوه في كتبهم من علم هذه الصناعة ووضعوه ما هو تفضّل المعلم على تلميذه، والمحسن الى من احسن اليه . . .»

سيدي، ابا العباس، هذا ما تقوله في مقدمة كتابك. ويقول المثل ان الفضل يعرفه ذووه، وأنت بتأليفك هذا الكتاب القيّم، «عيون الأنباء في طبقات الاطباء» قد رددت الى هؤلاء الاطباء بعض ما لهم علينا من افضال عميمة. انت من اسرة طبية عرفت في مصر والشام، في القرنين السابع والثامن الهجريين، وقد ولدت في دمشق سنة ٦٠٠ هجرية، وكنت حتماً اشهر افراد اسرتك، واليك يعود الانتباه اذا ما ذكر اسم «إبن أبي أصيبعة». وكنيت ابا العباس قبل ان يطلق عليك لقب جدّك إبن أبي أصيبعة . وقد درست في دمشق والقاهرة نظريا وعمليا

في البيمارستان النوري، وكان من أساتذتك ابن البيطار العالم النباتي الشهير مؤلف « جامع المفردات » . . .

ابن أبي أصيبعة : وكان من أساتذي أيضا رضي الدين الرحبي، ومهذب الدين عبد الرحيم بن علي الدّخوار الذي كوّن في الطب مذهبا كان له شهرة في عصره، والطبيب اليهودي عمران بن صدقة الذي كان قد جمع مكتبة حافلة بالمؤلفات الطبية القيّمة . فتمكنت من الافادة منها افادة كبيرة أكملت ثقافتي وساعدتني كثيرا في تأليف كتابي الذي عرفْت به . . .

صوت : وكنت تتردد أيضا على البيمارستان الناصري للقيام بأعمال الكحالة . وهناك استفدت من دروس السديد ابن أبي البين الأسرائيلي الطبيب الكحال مؤلف كتاب الاقراباذين المعروف بأسم « الدستور البيمارستاني »

ابن أبي أصيبعة : ولكن اقامتي في مصر لم تطل اذ انني غادرتها سنة ٦٣٥ هجرية، وتوجهت الى بلاد الشام تلبية لدعوة الامير عز الدين ايبك، صاحب صرخد، حيث كانت وفاتي سنة ٦٦٩ هجرية.

صوت : ونأتي الآن الى كتابك « عيون الانباء في طبقات الاطباء »، الذي به شهرت. فقد شرعت في تأليفه حوالي سنة ٦٤٠ هجرية وانت في دمشق برسم الوزير أبي الحسن أمين الدولة بن غزال بن أبي سعيد السامري وزير الملك الصالح من الملك العادل .

ابن أبي أصيبعة : إلا إنني دأبت على اعادة النظر فيه، وتنقيحه، ومتابعة

الاضافات والزيادات عليه حتى بلغت بالتراجم التي اوردتها فيه سنة ٦٦٨ هجرية، اي قبل وفاتي بسنة واحدة . . .

صـــوت : في هذا المقام أود أن اشير هنا أن بعض تلاميذك قد أضافوا الى النسخ التي كانت بين أيديهم من هـذا الكتاب أشياء كثيرة بعد وفاتك، الامر الذي يجعل بعض الاختـلاف الملحوظ بـين النسخ التي وصلت الينا . ولكن لا بأس، فما يهمنا الآن أن تتحدث عن محتوى « عيون الأنباء » اذا سمحت يا أبا عباس ؟

ابن أبي أصيبعة : نهجت في هذا الكتاب اسلوبا في التأليف هو التالي : عمدت الى ترجمة الطبيب ، ثم ذكرت مؤلفــاتــه، مع شيئ من التفصيل في أهم هذه المؤلفات، فضلا عن ايراد نبذ من أقواله وآرائه التي تحدد نظريته في الطب واسلوبه في المعالجة، حتى بلغت الاربعمائة ترجمة موزعة على مختلف عصور الطب .

صـوت : وعلى ذلك يقول ماكس ميرهوف في تعـليـق لــه عنك « في دائرة المعارف الاسلامية » ان لك الفضل العظيم الذي تتفوق به على سواك في التاريخ الطبي والعلمي للقرون الوسطى في الشرق، وهو لا يستثني في ذلـك إبن النديم، ولا إبن القفـطي المشهورين بتراجمهما.

ابن أبي أصيبعة : ولا تنسَ يا سيدي، انني ضمنّت كتابي هذا الكثير مما عـرفتـهِ عن الـطب اليـونـاني والهنـدي، الى جـانب

التفاصيل الوافية عن الحياة الاجتماعية والعلمية في العالم الاسلامي .

صـــوت : الحقيقة ان كتابك أصبح مصدرا وافيا ومهما في تاريخ الحركة الثقافية في الاسلام، وبالتالي في تاريخ الحضارة الاسلامية، وعليه اعتمد كثيرون ممن أرخوافي الغرب للطب الاسلامي .

ابن أبي أصيبعة : وقـد الّفت، يا سيـدي، ثلاثـة كتب أخـرى هي : « كتاب حكايـات الاطباء في عـلاجات الادواء » ، و « كتـاب اصابـات المنجمين » و « كتـاب التجارب والفوائد » ، ولكن هذا الكتاب الأخير لم يتم تأليفه .

صـــوت : ولكن، يـا ابا عبـاس، هذه الكتب لم تصـل الينا مطلقا، مع الأسف فهلّا أسمعتنا بعض ما يزخر به كتابك القيّم من نوادر وطرائف طبية .

ابن أبي أصيبعة : من نوادر اوحد الزمان، أبي البركات هبة الله بن علي ابن ملكا، في المداواة، أن مريضا كان قد عرض له، علّة الماليخوليا، وكان يعتقد أن على رأسه دنّاً وأنه لايفارقه .

صـوت : الدن هو وعاء كبير للخمر او نحوها، اليس كذلك ؟

ابن أبي أصيبعة : اجل . . . فكان كلما مشى يتحـايد المـواضع التي سقوفها قصيرة ويمشي برفق، ولا يترك احداً يدنو منه، حتى يميل الدن او يقع على رأسه. وبقي-بهذا المرض مدة وهو في شدة منه، وعالجه جماعة من الاطباء، ولم يحصل بمعالجتهم تأثير. وأنهى أمره الى اوحد الزمان،

ففكر أنه ما بقي شيء يمكن أن يبرأ به الا الامور الوهمية، فقال لاهله: اذا كنت في الدار فأتوني به .

صـــوت : لقد احسن اوحد الزمان اذ فكّر بالمعالجة الوهمية ، التي نسميها اليوم المعالجة النفسية . . . اكمل قصتك يا سيدي ، ومعذرة لهذه المقاطعة . . .

ابن أبي أصيبعة : وامر أوحد الزمان أحد غلمانه بأن ذلك المريض ، ان دخل عليه وشرع في الكلام معه - وأشار الى الغلام بعلامة بينهما - أن يسارع بخشبة كبيرة ، فيضرب بها فوق رأس المريض على بعد منه كأنه يريد كسر الدن الذي يزعم أنه على رأسه . وأوصى غلاما آخر ، وكان معه دن في أعلى السطح ، انه متى رأى ذلك الغلام ضرب فوق رأس صاحب الماليخوليا ، أن يرمي الدن الذي عنده ، بسرعة الى الارض .

صـــوت : انها ، والله لفكرة رائعة . فعسى أن تكون قد حملت الشفاء الى مريض الماليخوليا ؟ بربك أكمل لقد أثرت فينا الشوق لمعرفة النتيجة. . .

ابن أبي أصيبعة : ولما كان اوحد الزمان في داره، وأتاه المريض، شرع في الكلام معه، وحادثه، وأنكر عليه حمله للدّن، واشار الى الغلام الذي عنده من غير علم المريض، فأقبل اليه وقال : لابد لي أن أكسر هذا الدّن واريحك منه ! ثم أدار تلك الخشبة التي معه وضرب بها، فوق رأسه بنحو ذراع، وعند ذلك رمى الغلام الآخر الدّن من أعلى السطح، فكانت له جلبة عظيمة، وتكسّر قطعا كثيرة . فلما عاين المريض ما فعل به،

ورأى الدّن المنكسر، تأوه لكسرهم اياه، ولم يشك انه الذي كان على رأسه، وأثر فيه الوهم أثرا بريء به من علته تلك.

صــوت : أن ذلك لباب عظيم في المداواة، وقد جرى أمثال ذلك لجماعة من الاطباء المتقدمين مثل : جالينوس، وغيره في مداواتهم بالامور الوهمية . . .

ابن أبي أصيبعة : أجل يا سيدي !

صــوت : وفي نهاية اللقاء، هل تعلم يا ابا العباس، أن لكتابك تتمة يصح أن تعرف بأسم « ذيل عيون الانباء في طبقات الاطباء » ؟

ابن أيب أصيبعة : ماذا تقول ؟ أجاد أنت أم هازل ؟

صــوت : معاذ الله أن أخلط الجد بالهزل . فقد عمد الدكتور أحمد عيسى منذ ثلاثين سنة بالضبط الى اتمام صنيعك، فترجم لأكثر من تسعمائة طبيب ابتداء من سنة ٦٥٠ هجرية الى زمن طبع كتابه الذي دعاه، « معجم الأطباء » من سنة ٦٥٠ هجرية الى يومنا هذا. ويقع في خمسمائة وسبع وعشرين صفحة من القطع الوسط، وقد وصفه هو نفسه بأنه « ذيل عيون الانباء في طبقات الأطباء » . وقد استدرك ما فاتك .

ابن أبي أصيبعة : لقد أحسن صنعا الدكتور أحمد عيسى هذا في مواصلته الترجمة واستدرك ما فاتني، كما تقول وأنه لخبر يسرني كثيرا . فشكرا له على صنيعه ، وشكرا لك على زفك هذه البشرى اليّ . . .

# إبن النفيس: مكتشف الدورة الدموية الصغرى
## (١٢١٠ - ١٢٨٨)

صوت : حاول الطبيب باراسلوس (١٤٩٣ - ١٥١٤) ان ينزل سلفه الشهير جالينوس من مقامه الرفيع الذي كان يحتله في ميدان الطب . ولكن جالينوس رفض البقاء حيث أُريد له ، الّا انه ما لبث أن تداعى ، واهتزت به الارض ومادت . ومذ ذاك لم يُهْمَلْ الهجوم على هذا البطلِ ، بل المعبود ، الذي سيطر بعلمه زهاء اربعة عشر قرناً . فقد استطاع أخيراً ايطالي عظيم يدعى فيزاليوس (١٥١٣ - ١٥٦٤) ان يحطم جالينوس كعالم ثقة في الطب . وقد اظهر بلا شفقة الأخطاء التي ارتكبها ذلك العالم اليوناني الروماني في كتاب شهير اصدره بعنوان « فابريكا » . وهكذا ارتفع صوت جديد من مدينة بادووى الأيطالية ، صوت من ذهب الى الجسم البشري للحصول على الحقائق . وما كان اشد الضجة التي احدثها ذلك الكتاب . وكان أول المهاجمين لفيراليوس والساخرين منه استاذه سلفيوس على الرغم من معرفته انه كان على حق في اقواله ، ولكنه كان يساير الفئة المتسلطة . جاء تلميذ سلفيوس ، ويدعى كولومبو ، وشاركهم في ذلك كبار علماء بادووى جميعاً الذين هالهم أن يسفّه فيزاليوس

جالينوس العظيم . فاضطر فيزاليوس الى ترك عمله بسبب قوله الحقيقة التي لم يشأ العالم أن يسمح له بقولها ، وأحرق كل ما تجمّع ظهره الى عبقريته . وقد توفي في الخمسين من عمره ، في اللحظة التي كان ينوي فيها تجديد المحاولة التي كلّفته من قبل ذلك الثمن الباهظ . الاّ ان مصيره كان اقلّ مجداً وشهرة وألماً من المصير المشؤوم الذي آل اليه من قبل الاسباني سرفيتوس المولود سنة ١٥١١ الذي احرقه كالفن حياً سنة ١٥٥٣ . فقد كان سرفيتوس نزّاعاً الى الشك ، محباً للبحث والتدقيق ، الأمر الذي لم يكن كالفن يتحمله ، ولم يكن ليرصى بأن يجدّة وابداع في العالم . وهكذا سيق سرفيتوس الى المحرقة ، وكل جرمه التفكير السليم ، مضيفاً بذلك شهيداً آخر الى قافلة شهداء العلم وحرية الفكر . وصحيح أن هذين الطبيبين اهتما بالدورة الدموية الصغرى في الجسم البشري ، الاّ انهما لم يستطيعا أن يدفنا جالينوس . فقد تُركت هذه المهمة للعالم والطبيب الانكليزي وليام هارفي الذي ابصر النور سنة ١٥٧٨ وتوفي سنة ١٦٥٧ ، واليه يُعزى اكتشاف الدورة الدموية سنة ١٦٢٨ ، بعد نشر كتابه من حركات القلب والدم .

كان لا بد من هذه المقدمة الطويلة التفصيلية بعض الشيء لنقول بكل تأكيد مع المستشرقة الالمانية زيغريد هونكه في كتابها « شمس العرب تسطع على الغرب » المنقول الى العربية على يد فاروق بيضون وكمال دسوقي :

ـ « ان اول من نفذ ببصره الى اخطاء جالينوس ، ونقدها ، ثم جاء بنظرية الدورة الدموية لم يكن سرفيتوس

الاسباني ، ولا هارفي الانكليزي ، بل كان رجلا عربيا اصيلاً من القرن الثالث عشر الميلادي ، هو ابن النفيس الذي وصل الى هذا الاكتشاف العظيم في تاريخ الانسانية والطب ، قبل هارفي بأربعمائة عام ، وقبل سرفيتوس بثلاثمائة عام . وقد قيل فيه : « لم يوجد على وجه الأرض قاطبة مثيل له في الطب ، ولا جاء بعد ابن سينا مثله . قالوا ، وكان في العلاج اعظم من ابن سينا » .

مع ابن النفيس ، هذا العالم العربي الفذ سيكون لقاؤ نا اليوم . فلنتعرف اليه قبل أن نتعرّف إلى منجزاته العلمية الخطيرة الخالدة . . .

ابن النفيس : أشكرك وافر الشكر ، يا سيدي ، على كل ما تفضّلت بقوله في حقي ، وعلى كل المعلومات التي سرّني أن أعرف منها أن العالم اليوم قد عرف أخيراً كل الحقيقة حول مكتشف الدورة الدموية الصغرى ، والدورة الدموية الرئوية ، وأعاد الفضل الى ذويه !

صوت : لا شكر على واجب ، يا أبا الحسن . . . والآن اسمح لي بأن استعرض معك وقائع حياتك البارزة قبل الخوض في غمار الشؤون العلمية المتعلقة بعملك الرائع العظيم . ذلك بأن اكتشاف الدورة الدموية ، هو ولا ريب ، اعظم اكتشاف تشريحي قام به العرب في عهدهم . وقد عدّك سارتون بحق من الرواد الذين مهدوا للطبيب الانكليزي وليام هارفي الذي يُعزى إليه اكتشاف دورة الدم .

إبن النفيس : على ذكر هارفي ، هلاّ حدّثتني قليلاً عنه قبل استعراض وقائع حياتي ، فلكم أودّ التعرّف إليه .

صوت : لك ما تريد ، يا سيدي ، فلقد سبق أن ذكرت لك تاريخ ميلاد هارفي فعندما بلغ العشرين اوفده والده الى مدينة بادوى الايطالية لتعلّم الطب . وفي هذه المدينة التي علّم فيها فيزاليوس وضُرب ونفي ، درس صاحبنا علم التشريح . وبقي فيها خمس سنوات عاد بعدها الى انكلترا طبيباً ماهراً وفي نفسه الهادئة المستكينة لم يكن هناك شيء من العاطفة والقوة اللتين تميّز بهما باراسلسوس وفيزاليوس ، ولم يخطر بباله قط انه سيمسك بخناق العالم ويقول حسب طريقة تفكيره الخاصة .

ابن النفيس : هلاّ اطلعتني على قوام نظريته في دورة الدم .

صوت : الواقع أن حركة القلب والدم عرفت منذ أقدم الأزمنة . وفي ايطاليا وبمساعدة غاليليو عُمل الكثير في حقل النبض . وسرفيتوس كتب عن دورة الدم عبر الرئتين ، كما اكتشف سلفيوس الصمامات في الأوردة والعروق ، ووصفها . أما مساهمة هارفي في هذا الحقل فهي أنه واصل العمل الذي اضطر سرفيتوس ان يتركه ، والعمل الذي لم يستطع سلفيوس أن يواصله فقال ان الدم يجري في سيل متواصل عبر كل اجزاء الجسم من القلب ويعود من جديد الى القلب . وقال أيضاً إن تقلّص القلب يدفع الدم خارجاً ، وعندما يسترخي هذا القلب يجري الدم إليه ويملأه . وقد دفن نظرية جالينوس عندما أظهر أن لا علاقة بين الجانبين الأيمن والأيسر من القلب إلا من خلال الرئتين . وقد كانت هذه النظرية في ذلك العصر تعتبر هرطقة وتهديماً للأصول والمبادىء المقررة .

إبن النفيس : وماذا حدث لهارفي الذي طلع بهذه النظرية ؟ وكيف نجا ، وقد ذهب على ما تقـول الى أبعد مما ذهب أسلافه في هذا الصـدد ؟

صوت : الواقع أنه نجا من الموت ، ولكنه لم ينج معنوياً وأدبياً ، فبعد ظهور كتابه المؤلف من ست وسبعين صفحة تأثرت مهنته الطبية كثيراً لأنه لم يكن هناك من يثق بطبيب مجنون ـ كما وُصف ليضع بين يديه حياته . والحقيقة أنه لم يتأثر كثيراً بهذه الخسارة المادية بسبب كونه طبيباً للملك تشارلز الأول . ولم يتعرّض كثيراً للانتقاد لأن ظل العرش كان يحميه .

ابن النفيس : إذن هذه قصة هارفي الذي دحض كل شيء تقريباً مما كُتب في السابق عن القلب والدم ؟ لك كل شكري وامتناني ، يا سيدي على هذه المعلومات جميعاً .

صوت : لا شكر على واجب أيضـا ، فلنتعرف إليك الآن .

ابن النفيس : حسناً ، ماذا تودّ معرفته عني ؟

صوت : انت ابو الحسن علاء الدين علي بن الحزم ، المعروف بابن النفيس . . .

ابن النفيس : . . . وأحياناً بالقَرْشي ، نسبة الى قَرْش ، في ما وراء النهرين ، ومنها اصلي .

صوت : وانت طبيب ، عالم فيلسوف ، ولدت في دمشق سنة ٦٠٧ هجرية الموافقة ١٢١٠ ميلادية ، وتوفيت في القاهرة سنة ٦٨٧ هجرية أو ١٢٨٨ ميلادية وقيل سنة ٦٨٧ هـ / ١٢٩٣ م . وقد درست الطب في دمشق على مشاهير

العلماء وبخاصة على مهذّب الدين الدخوار ، مع أبن بلدك مؤرخ الطب الشهير ابن ابي اصيبعة ، ابن احد اطباء العيون في دمشق . . .

ابن النفيس : صحيح ما تقوله ، فقد كان ابن أبي اصيبعة هذا يكبرني بسبع سنين ، ثم درسنا الطب معاً على يد رئيس اطباء البيمارستان النوري الكبير . وكان استاذنا الدخوار الذي اشتهر بمحاضراته القيمة وبدروسه السريرية في البيمارستان من جهة ، واشتهر بغناه الوافر من جهة اخرى .

صوت : على ذكر ثروة الدخوار الطائلة نذكر في هذا المجال انه تمكن بها من تأثيث مدرسة طبية في داره الفسيحة ، وألحق بها عيادة خاصة ، كان يوفر لها المال اللازم من الريع الذي كانت تدرّه عليه املاكه الواسعة وقراه الكثيرة . وكان يدرّس كتب الرازي وابن سينا ، وبالطبع كتب جالينوس المحبّب الى قلبه .

ابن النفيس : وكان ابن أبي اصيبعة يسخر من استاذه الدخوار الذي كان يردد كلما سمع اسم جالينوس وبعض نظرياته : هذا هو الطبيب ! هذا هو الطبيب ! وتمر الأيام ونلتقي معاً ، ابن ابي أصيبعة وأنا طبيبين محدثين في البيمارستان الناصري في القاهرة ، وهو البيمارستان الذي أنشأه السلطان صلاح الدين . وقد ترك ابن ابي اصيبعة القاهرة فترة غير طويلة الى اطراف الصحراء ليصبح طبيباً خاصاً لأمير سوري ففقدت اذ ذاك الاتصال به .

صوت : وما لبثت أن أصبحت عميد اطباء البيمارستان

الناصري ، والطبيب الخاص للسلطان بيبرس . وبقيت طوال عشر سنين تلقي محاضراتك على تلاميذك الكثر عن جالينوس وابن سينا دون أي تحضير . ويروى انك تكتب دون العودة الى أي مرجع ، ولك في ذلك قصة تستحق ان تروى . فهل لك بذلك ؟

ابن النفيس : ذات يوم كنت منهمكاً في دلك جسمي بصابون زيت الزيتون النقي في احد حمّامات القاهرة التي كان فيها آنذاك اكثر من الف ومئتي حمّام ، فخطرت لي اشياء تتعلق بالنبض ، فخرجت من حوض الحمام على حين غرة الى القاعة الخارجية وطلبت ورقاً وقلماً ومداداً ، ورحت اكتب رسالتي عن النبض ، فلما فرغت من ذلك قفلت عائداً الى الحمّام كأن شيئاً لم يكن .

صوت : وكان يحضر مجلسك في دارك جماعة من الامراء ، واكابر الاطباء . وقد ابتنيت دارك في القاهرة وجهّزتها بالرياش والاثاث ، وفرشتها بالرخام حتى ابوابها . ولما لم تكن متزوجاً ، أوقفت كتبك وكل ما كنت تملك على البيمارستان المنصوري . ومن غريب الامور التي اودّ أن اوردها ههنا ان ابن أبي اصيبعة ، رفيق الدراسة وابن بلدك دمشق ، وزميلك في البيمارستان اغفل ذكرك في كتابه الضخم الذي ترجم فيه لحوالي اربعمائة طبيب عربي ، وسمّاه « عيون الانباء في طبقات الأطباء » ! وقيل ان سبب هذا التجاهل خلاف حصل بينكما !

ابن النفيس : لا مجال لذلك الآن، وعلى أي حال سامحه الله !

صوت : وقد اهتممت ، يا ابا الحسن ، الى جانب الطب ،

بالفقه ، والحديث ، وبعلم البيان ،والمنطق، والفلسفة . فكتب فيها جميعاً ، وألقيت المحاضرات في هذه العلوم في المدرسة المنصورية حيث تمتعت بشهرة واسعة خصوصاً في الفقه . ولم تكن لتتقبّل الأشياء على علاتها ولو انها صدرت عن العباقرة . . .

ابن النفيس : . . . في هذه الناحية كنت على نقيض الدخوار، والكثيرين من زملائه . ولم اكن لأرضى بتعليم تلاميذي آراء متوارثة عن عظماء من القدامى ، وأنا أشك في صحتها . وقد اعتمدت قبل كل شيء على استقراء الطبيعة اسرارها بواسطة الملاحقة والدرس والتجربة . ورأيت تبايناً في تركيب اجسام الحيوانات المختلفة ، فأوصيت بدرس التشريح المقارن لكي نلم بالاختلافات . ثم اعتمدت التشريح طريقة خاصة بي في العمل والبحث .

صوت : الواقع انه كانت تعمر قلبك الشجاعة الادبية التي عمرت قلب هارفي من بعدك ، والرازي من قبلك ، وهما اللذان دفعا بالطب اشواطاً واسعة الى الامام . وتدليلا عى ذلك نذكر ما قلته في مقدمتك لكتاب « شرح تشريح القانون» لأبن سينا : واما منافع الاعضاء فأنما يُعتمد في تعريفها على ما يقتضيه النظر المحقق والبحث المستقيم ، ولا علينا ، أوافق ذلك الرأي من تقدّمنا او خالفه . . .

ابن النفيس : بالطبع يا سيدي . فالعلم والحقيقة توأمان لا ينفصلن ، وقد سبق وقلت أن سرفيتوس أُحرق حيّاً لقوله الحقيقة ، ولم يجبن عن قولها لأنه كان عالماً حقيقياً .

صوت : ومن مؤلفاتك في غير المواضيع الطبية « الرسالة الكاملية في السيرة النبوية » ، « وكتاب فاضل بن ناطق » ، وهو مجاراة لكتاب « حيّ بن يقظان » لأبن طفيل ، ولكن بطريقة دينية لا فلسفية . اما في الطب فلك مصنّفات كثيرة تتميز بالجرأة وحرية الرأي ، فهل لك ان تعددها لنا ؟

ابن النفيس : «الكتاب الجامع » أنجزت منه ثمانين مجلداً من ثلثماية . . .

صوت : ولكن معظمها فقد ، مع الأسف . . .

ابن النفيس : ولي ايضاً « المهذّب في الكحالة » ، اي في طب العيون ، و « المختار من الاغذية » في علم الحمية و « شرح تقدمة المعرفة » لابقراط ، وشرح فصول ابقراط و « شرح مسائل حنين بن اسحاق » ، و « شرح الهداية في الطب » لأبن سينا ، و « بغية الفطن في علم البدن » ، و « شرح تشريح القانون » ، و « الموجز في الطب » وهو موجز لكتاب القانون لأبن سينا الذي رتبته على اربعة فنون .

صوت : وما هي هذه الفنون الأربعة ؟

ابن النفيس : اولاً ـ في قواعد اجزاء الطب العلمية والعملية بقول كليّ .

ثانياً ـ في الأدوية ، والأغذية المفردة والمركّبة .

ثالثاً ـ في الأمراض المختصة بعضو دون عضو .

رابعاً ـ في الأمراض التي لا تختص بعضو دون عضو ، وأسبابها ، وعلاماتها ، ومعالجتها .

صوت : وقد اشتهر هذا الكتاب وطُبع مرات كثيرة ، وكانت اولاها في الهند ، وترجم الى التركية مرتين ، ومرة الى العبرية . فهات الآن ، يا ابا الحسن ، اسمعنا ما تقول في « شرح تشريح القانون » لابن سينا عن الدورة الدموية .

ابن النفيس : إن القلب له بطنان فقط : احدهما مملوء من الدم هو الأيمن ، والآخر مملوء من الروح ، وهو الايسر . . .

صوت : دعني اوضح هنا للقراء ان المعنى المقصود بالروح ، فكلمة روح تستعمل عند القدماء ، حتى هارفي ، للدم المنقّى بعد مزجه بالهواء . . .

ابن النفيس : صحيح ما تقول ، وقد أحسنت صنعاً إذ لفتّ الى هذا المعنى المقصود بالروح . . . ولنعد الى موضوعنا . . . ولا منفذ بين هذين البطنين البتة . . . والتشريح يكذّب ما قالوه ، والحاجز بين البطنين أشد كثافة من غيره . فإن نفوذ الدم الى البطن الأيسر إنما هو من الرئة بعد تسخّنه ، وتصعّده من البطن الأيمن ، كما قررناه . . . ولكن ليس منهما ( أي تجويفي القلب ) أي منفذ . فإن جرم القلب هناك مصمت ليس فيه منفذ ظاهر ، كما ظنه جماعة ولا منفذ غير ظاهر يصلح نفوذ هذا الدم ، كما ظنّه جالينوس فلا بُدَّ وأن يكون هذا الدم ، إذا لطّف نفذ في الوريد الشرياني الى الرئة لينبثّ في جرمها ويخالط الهواء ، ويصفي الطف ما فيه ، وينفذ الى الشريان الوريدي ليوصله الى التجويف الأيسر من تجويفي القلب ، وقد خالط الهواء وصلح لأن تولد منه الروح » .

صوت : وماذا تقول في موضوع غذاء القلب ، معارضاً رأي أبن سينا ؟

ابن النفيس : « ان جعله للدم الذي في البطن الأيمن منه يتغذّى القلب لا يصحّ البتة ، فإن غذاء القلب إنما هو من الدم المنبث فيه من العروق المثبتة في جرمه » .

صوت : إن هذه العبارات الموجزة المأخوذة من كتابك في « شرح تشريح القانون » تكفي لإظهار اسبقيتك في وصف دوران الدم الرئوي ، والقول بعدم وجود نافذ بين تجويفي القلب ، وفي الاشارة الى الشرايين التاجية التي تغذّي القلب. فسرفيتوس، وفيزاليوس وسواهما من علماء النهضة لم يأتوا بجديد فوق ما قلته ، الأمر الذي لا يمكن أن يضع اسبقيتك موضع شك .

ابن النفيس : شكرا لك ، والآن ، هل بوسعك ، يا سيدي ان تقول لي هل ان كتابات علماء عصر النهضَة الذين تحدثّت عنهم ، صادرة عن اكتشافهم ما سبق واكتشفته ؟ أم أن اقوالي قد وصلت اليهم فتأثروا بها او نقلوها دون الاشارة الى مصدرها ، كما كان يحدث احياناً ؟

صوت : ان الجواب عن هذا السؤال عسير ، يا ابا الحسن ، على ان ما نعرفه هو ان مؤلفات العرب في الطب كانت تصل الى العالم الغربي ، بل كانت تدرّس احياناً في مدارسه الطبية ، كما هو الحال مع قانون ابن سينا . وقد كان الاتصال اوثق ما يكون في اسبانيا حيث ولد سرفيتوس ، فلا يستغرب اذن ان يكون هذا العالم قد قرأ شرحك أو سمع به .

وقد ذكر بعض المؤرخين ان سرفيتوس هذا كان يعرف اللغة العربية فضلاً عن معرفته اللغات اللاتينية واليونانية والعبرية . وفي هذا الصدد احب ان اسمعك ما يقوله المستشرق ميرهوف :

ـ « عندما قرأت المقطع الأول من هذا الموضوع ـ أي موضوع دوران الدم الرئوي ـ في شرح ابن النفيس ، فوجئت بشبهه العظيم ببعض عبارات سرفيتوس الاساسية ، فكأن المقطع العربي قد ترجم ببعض التصرّف الى اللاتينية » .

صوت : ومثل هذا الرأي يطلقه ايضاً المستشرق ميالي ، مشيراً الى الشبه بين عباراتك وعبارات العالم الاسباني ، مؤكداً أن ذلك كافٍ لأبرازه حقيقة الأمر بكل جلاء ووضوح .

ابن النفيس : ودعني استنتج من كل ما ذكرت ، يا سيدي ، انني كنت اسبق العلماء جميعاً ـ وخصوصاً علماء عصر النهضة ـ في اكتشاف دوران الدم الرئوي ، وفي القول بعدم وجود نافذ بين تجويفي القلب . . .

صوت : وفي الاشارة الى الشرايين التاجية التي تغذّي القلب . . .

ابن النفيس : وان سرقيتوس وسائر علماء النهضة ، ان لم يكونوا نقلوا عني ، فأنهم لم يزيدوا شيئاً على اقوالي في هذا الموضوع الطبي الخطير .

صوت : ومن هنا كنت بحق وحقيق صاحب الفضل الأول بين العلماء الذين مهّدوا لأكتشاف العالم الانكليزي هارفي ، وسبقوا الى معرفة دوران الدم معرفة جزئية . فالعثور على

كتابك في « شرح تشريح القانون » يحملنا على اعادة النظر في اسبقية كل العلماء الذين ذكرنا ، اذ يتأكد لنا انك سبقت علماء الطب ، بأستثناء هارفي الذي يبقى له على كل حال مركز الطليعة في هذا المجال ، الى معرفة هذا الموضوع الخطير ، بحيث وصفت الدوران الرئوي قرونا قبل عصر النهضة .

ابن النفيس : ومن اكتشف هذا الكتاب ، يا سيدي ؟

صوت : ان اول من اكتشفه بعد نسيان طويل طبيب مصري هو محيي الدين الطهطاوي الذي الف عنه بالالمانية اطروحة في جامعة فريبورغ سنة ١٩٢٤ مستنداً الى مخطوطة موجودة في برلين .

ابن النفيس : شكرا له ، يا سيدي ، ولك على كل ما زوّدتني به من معلومات!

# ابن منظور : لسان العرب
(... - ١٣١١)

صوت : معنا الآن العالم اللغوي ابن منظور ، صاحب معجم « لسان العرب » الذي سنحاوره في معجمه لنتعرّف الى مضمونه والدوافع الى وضعه ، قبل أن نتعرف اليه شخصياً . . . فهلا قدمت الينا معجمك يا سيدي ؟

إبن منظور : في مقدمة « لسان العرب » اقول ، بكل صراحة انني « لا أدعي فيه دعوى فأقول : شافهت او سمعت ، او فعلت او صنعت ، او شددت الرحال او رحلت ، او نقلت عن العرب العَرْباء أو حملت . فكل هذه الدعاوى لم يترك فيها الأزهري وابن سِيْدَهْ ، لقائل مقالا ، ولمْ يُخلّيا لأحد فيه مجالاً ، فانهما عَيَّنا في كتابيهما عمن رويا ، وبرهنا عما حويا ، ونشرا في خطبهما ما طويا ولعمري لقد جمعا فأدعيا ، واتيا بالمقاصد ووفيا . . . »

صوت : انك بذلك تعترف صراحة بأنك لم تأت بشيء من عندك ، بل انك جمعت ما تفرَّق من اصول سبقت عصرك ؟!

إبن منظور : ... صحيح وقد عينت هذه الاصول الخمسة التي

ضممتها الى معجمي وهي : « تهذيب اللغة » لأبي منصور الأزهري ، والمُحْكَم لابن سِيدَهْ الأندلسي ، و«الصِحاح» لأبي نَصْر الجوهري ، و « حاشيته » لأبي محمد بن بَرّي ، و « النهاية » لأبي السعادات ابن الأثير الجَزَرِي . . .

صوت : ولكن ثمة اصلا سَادساً لم تذكره ، يا سيدي ، في المقدمة ، يشتمل عليه « اللسان » ويتبينه الناظر فيه ، هو « جمهرة اللغة » لأبي بكر بن دُرَيْد . ومن هنا استطعت التنصلَ من كل زلل يمكن أن يكون في كتابك ، لأنك لم تكن فيه الاّ ناقلاً عن غيرك . . .

ابن منظور : وهذا ما اشرت اليه في المقدمة دونما حرج حيث اقول : « وليس في هذا الكتاب فضيلة بها ، ولا وسيلة اتمسك بسببها سوى اني جمعت فيه ما تفرَّق في تلك الكتب من العلوم وبسطت القول فيه ، ولم اشبع باليسير ، وطالب العلم مفهوم . فمن وقف فيه على صواب أو زلل ، او صحة او خلل ، فَعِهْدَتُه على المُصّنف الأول ، وحمده وذمه لأصله الذي عليه المعّوَل ، لأنني نقلت من كل اصل مضمونه ، ولم أبُدّل منه شيئاً ، فيقال : فإنّما إثْمهُ على الذين يبدّلونه . بل اديت الأمانة في نقل الأصول بالفَصّ ، وما تصرفت بكلام غير ما فيها من النصّ . فليعتدَّ من ينقل عن كتابي هذا انه ينقل عن هذه الأصول الخمسة ، وَلْيَغْنَ عن الاهتداء بنجومها ، فقد غابت لما أطَلعتُ شمسه » .

صوت : وعلى ذلك يكون « لسان العرب » ـ على حد قول احد

الأدباء ـ « اوسعُ مجموعة لـدينا تشتمـل على لغـة ، وصرف ، ونحو ، وَعَروُض ، وادب ، وتفسير القرآن ، وشرح للحديث ، والاشعار ، لكثرة ما فيه من الشواهد التي يُرجَعُ إليها محتجا بها » . وسنورد بعد قليل مثالاً على ذلك . . .

إبن منظور : كما تشاء ، فأي كلمة تود الاستشهاد بها ؟

صوت : التاج ، يا سيدي ، ولكن قبل ذلك دعني اكمل كلام الأديب الذي يُقيّم كتابك ، فهو يقول انه لا يخلو من التكرار وسوء الترتيب ، لأن صاحبه ينقل عن عدة كتب ، فيصطر أن يعود الى الكلمة نفسها بعد انصرافه عنها . وقد تختلف الأقوال فيها ، فحينا يُرجّح قولا على آخر ، وحينا لا يُرجح . . فهات الآن ما عندك حول كلمة « التاج » .

إبن منظور : تَوَجَ : التاجُ ، معروفٌ ، والجمع اتـواج وتيجان ، والفعل التتويج . وقد تَوَّجه إذ عَمَّمه ، ويكون تَوَّجَهُ : سَوَّدَهُ.والمتوج : المُسَوَّدُ ، وكذلك المعمّم ، ويقال : توَّجه فتتوَّج ، أي اَلبسه التاج فلبسه . والاكليل والقُصَّة والعِمامة : تاجٌ على التشبيه . والعرب تسمي العمائم التاج . وفي الحديث : العمائم تيجان العرب ، جمع تاج ، وهو ما يصاغ للملوك من الذهب والجوهر ، اراد ان العمائم للعرب بمنزلة التيجان للملوك لأنهم اكثر ما يكونون في البوادي مكشوفي الرؤ وس او بالقلانس ، والعمائم فيهم قليلة . والاكاليل تيجان ملوك العجم . والتاج الإكليل . ابن سِيدَهْ : ورجل تائجٌ ، ذو تاج على النسب ، لأنّا لم نسمع له بفعل غير متعـد، قال هِمْيان بنُ قَحافة :

« تَقَدُّمَ الناسِ الإمامَ التائِجا »

اراد تَقدُّمَ الإمامُ التائج الناسَ . فَقُلِبْ . وَالتاجُ : الفِضّة . ويقال للصليجة من الفضة : تاجة ، وأصله « تَازْه » بالفارسية للدرهم المضروب حديثاً . قال : ومنه قول هِمْيان :

« تَنَصُّفَ الناس الهمامَ التائجا »

اراد ملكا ذا تاج ، وهذا كما يقال : رجلٌ دارعٌ ، ذو دِرْع . وتاجٌ وتويجٌ ومتّوج : اسماء . وتاج وبنو تاج ، قبيلة من عدوان ، مَصْروفٌ ، قال :

ابعـد بني تـاجٍ وسعِيـكَ بينهـم ؟
فـلا تُتبِعَنْ عينَـكَ مـا كـان هـالكـا

وتاجَةُ : اسم امرأة ، قال :

يا ويح تاجَةَ ، ما هذا الذي زعمت ؟
أسَمُّهـا سَبُـعٌ ام مَسُّهـا لَمَـمُ ؟

وَتُّوجُ : اسم موضع ، وهو مأسدة ذكره مُلَيْحُ الهُذَلي : « ومِنْ دُونهِ اثباجُ ، فَلْجٍ وَلَوَّجِ » .

صوت : الشكر الوافر لك ، على هذا الشرح الوافي ، يا ابن منظور . ولنعد الآن الى تقييم كتابك « لسان العرب » ، الذي عرفناه بعد ان طبع في بولاق بمصر خلال السنوات ١٢٩٩ ـ ١٣٠٨ هجرية في عشرين جزءاً . فمتى فرغت من جمعه ؟

إبن منظور : كان الفراغ من جمعه في ليلة الاثنين الثاني والعشرين من ذي الحجة سنة ٦٨٩ هجرية .

صوت : ويطيب لي الآن ان اورد بعض ما قيل فيه على لسان معاصريك من ائمة العلم والأدب القدامى ، ومن معاصرينا المحدثين . قال مُحشّي « القاموس » ابو عبد الله محمد بن الطيب الفاسي في كلامه على اللسان :

- « وهو عجيب في تقوُّله وتهذيبه ، وتنقيحه وترتيبه . الاّ انّه قليل بالنسبة لغيره من المُصنَّفات المتَداولة ، وزاحم عصُرُه عَصَر صاحب القاموس ، رحم الله الجميع . . »

إبن منظور : ومن هو صاحب القاموس يا سيدي؟

صوت : انه مجد الدين أبو طاهر محمد الفيروز ابادي الذي ولد بعد وفاتك سنة ٧٢٩ هجرية ، أي بعد ثماني عشرة سنة ، وقد نسج على منوالك في ترتيب كتابه ، مبتدئا مثلك ومثل الجوهري من قبلك في معجمه « الصِحاح » أي مبتدئا بالهمزة ، معتمدا الحرف الأخير من الكلمة . وكان الفيرزو ابادي من أئمة مؤلفي المعاجم العربية ، تعلّم في شيراز وواسط وبغداد ودمشق ، وعلّم في القدس وكان يُسافر وبصحبته أحمال من الكتب كثيرة . واسم كتابه الكامل هو « القاموس المحيط والقابوس الوسيط الجامع لما ذهب من كلام العرب شماطيط » !

إبن منظور : حسناً ، وماذا يقول سواه في « لسان العرب » ؟

صوت : يعلق معاصرنا اللبناني احمد فارس الشدياق في مقدمته لطبعة بولاق من معجمك على كلمات الطيب الفاسي المذكور :

- « وسبب قلته كبر حجمه وتطويل عبارته ، فإنه ثلاثون

مجلدا . فالمادة التي تملاء في « القاموس » صفحة واحدة ، تملأ فيه أربع صفحات بل اكثر ، ولهذا عجزت طَلبَةُ العلم عن تحصيله ، والانتفاع به » .

ابن منظور : اصحيح ، ما يقول الشدياق هذا ؟

صوت : الى حد كبير ، وخصوصاً في أيامنا هذه التي تتميز بالسعي وراء الموجزات أو المختصرات . ولكن « لسان العرب » استوعب من المواد اكثر مما استوعب القاموس ، فاسمع ما يقوله نصر الهوريني في هذا الصدد :

- « فإن الفيروز ابادي جمع فيه ستين الف مادة ، زاد على الجوهري بعشرين الف مادة ، كما انه زاد عليه ابن منظور الافريقي في « لسان العرب » بعشرين الف مادة ، ولعل المصنف لم يطلع عليه وإلّا لزاد في كتابه عنه » .

والمصِّنفُ هنا هو الفيروز ابادي نفسه ولكن اسمح لي ، يا سيدي ، ان اقول ان معجمك لم يسلم من عثرات وتصحيفات ذكر الكثير منها لغويون معاصرون لنا اذكر لك منهم الشيخ ابراهيم اليازجي ، واحمد تيمور باشا ، ومصطفى جواد في غير مجلة ادبية ولغوية . . .

ابن منظور : لهؤلاء ولسواهم ممن نَبَّهَ وينبّه على العثرات والاخطاء والتصحيفات الشكر ، فجلّ من لا يخطىء !

صوت : صحيح ، ولكن « لسان العرب » ، يا سيدي ، ابن منظور ، يبقى على علاته ، جم الفوائد لا يقوم مقامه أيُ معجم قديم من المعاجم العربية التي تركها لنا العرب القدامى . . .

إبن منظور : انك لتثلج صدري بقولك هذا . . . ترى ماذا بعد ؟

صوت : بعدما قيمنا اشهرمجموعاتك الادبية ومصنفاتك ، سنتناول حياتك وسائر آثارك . فقد عُرفتَ بابن منظور ، ولكن هل لنا أن نعرف اسمك وشيئاً من نشاطك ؟

إبن منظور : اسمي الكامل جمال الدين ابو الفضل محمد بن مُكَرَّم بن أبي الحسن بن احمد الانصاري الافريقي . ولدت في مصر في المحرَّم من سنة ٦٣٠ للهجرة ، وتوفيت في مصر أيضا في شعبان سنة ٧١١ ، بعد أن اصابني العمى في آخر عمري .

صوت : وفي مصر درست على علماء عصرك كابن المقيّر ، ومرتضى بن حاتم ، وعبد الرحيم بن الطفيل ، ويوسف بن المخيلي ، وسواهم .

إبن منظور : وخدمتُ في ديوان الانشاء،ووليتُ قضاء طرابلس الغرب قبل أن أعود الى مصر حيث كانت وفاتي .

صوت : ويصفك السيوطي ، في كتابه « بغية الوعاة » بقوله :

ـ « كان صدراً رئيساً فاضلاً في الأدب ، مليح الانشاء ، عارفاً بالنحو واللغة والتاريخ والكتابة ، صاحب نُكتٍ ونوادر ، وعنده تشيُّعٌ بلا رفض » .

إبن منظور : وقد نظمتُ الشعر كسواي من علماء اللغة ، فهل تحب سماع شيء من شعري ؟

صوت : بكل تأكيد ، فقد روى لك ابن حُجْر العسقلاني في كتابه

« الدرر الكامنة » بعضا من شعرك ومنه قولك :

ضع كتابي ، إذا اتاك الى الأرض ، وقلبْهُ في يديك لُماما

فعلى ختمه ، وفي جانبيه
قُبَلٌ قد وضعتهن توائما

إبن منظور : وقولي ايضاً :

الناس قد اثموا فينا بظنهمُ
وصدَّقوا بالذي ادرى وتدْرينا
ماذا يضرّك في تصديق قولهم
بأن نُحقّق ما فينا يظنونا
حملي وحُملكِ ذنباً واحدا ، ثقةً
بالعفو اجملُ من إثمِ الورى فينا .

صوت : وهلا اسمعتنا بعد ، يا ابن منظور ، من هذا الشعر الرقيق الجميل ؟

إبن منظور : باللهِ ، ان جُزْتَ بوادي الأراكْ
وَقبّلتْ عيدانُهُ الخضر فاكْ
فابعث الى عبدك من بعضها
فاتني ، واللهِ ما لي سواكْ

صوت : ويقول ابن حُجر العسقلاني عنك بصدد تركك الكثير من المصنفات ، ومعظمه جَمْعٌ واختصار :

ـ « وكان مُغْرَىً باختصار كتب الأدب المطوَّلة ، اختصر « الاغاني » و« العقد » و« الذخيرة » و« نشوار المحاضرة »

ومفردات ابن البيطار » والتواريخ الكبار ، وكان لا يَمَلّ » !

إبن منظور وجمعتُ ، فضلاً عن ذلك ، « اخبار ابي نواس » وتتضمن سيرته في العراق ومصر ونوادره وشعره ومجونه . ولي من المجموعات الأدبية كتاب « انتشار الازهار في الليل والنهار ».

صوت : ولنسمع اخيراً ما يقوله في هذا المقام الصفدي :
- «لا أعرف في الأدب وغيره كتابا مطولاً الا وقد اختصره .
وأخبرني ولده قطب الدين انه ترك بخطه خمسمائة مجلدة » !

إبن منظور : تلك هي الحقيقة ، يا سيدي ، وليس فيها أي مبالغة !

## إبن خلدون : أول فلاسفة التاريخ

(١٣٣٢ - ١٤٠٦)

صوت : لم يترك إي فرع من فروع المعرفة إلا الَمّ به . . وتتجلى عبقريته ويبدو نبوغه في نواح كثيرة متشعبة لعلّ من أهمها انه المنشىء الأول لعلم الاجتماع، وإمام ومجدد في علم التاريخ، وإمام ومجدد في فن الترجمة الذاتية أو ترجمة المؤلف لنفسه، (الاوتوبيوغرافيا)، فضلا عن انه إمام ومجدد في إسلوب الكتابة العربية، وفي بحوث التربية والتعليم، وعلم النفس التربوي والتعليمي، وانه راسخ القدم في علوم الحديث، وفي الفقه المالكي . ويجمل لنا المقري في كتابه « نفح الطيب » صورة إبن خلدون بهذه السطور:

« رجل فاضل حسن الخلق، جمّ الفضائل، باهر الخصل، رفيع القدر، ظاهر الحياء، أصيل المجد، وقور المجلس، متعدد المزايا، شديد البحث، كثير الحفظ، صحيح التصور .. . وقد كان إبن خلدون هذا من عجائب الزمان. وله من النظم والنثر ما يزري بعقود الجمان مع الهمة العلية، والتبحر في العلوم [illegible] العقلية ... »

لقاؤنا اليوم. فهو عبد الرحمن أبو زيد ولي الدين بن خلدون، مولود في تونس في غرة رمضان سنة ٧٣٢ هجرية الموافق ٢٧ أيار سنة ١٣٣٢ ميلادية.

**إبن خلدون:** في البدء لك الشكر على هذا التقديم الذي تفضلت به، يا سيدي، ثم اسمح لي أن أتحدث قليلا عن اسمي وكنيتي ولقبي وشهرتي، فأقول أن كنيتي أبا زيد أكتسبتها من اسم إبني البكر حسب ما جرت عليه عادة العرب في الكنية. وأما لقب ولي الـدين فقد عرفت به بعد أن توليت وظيفة القضاء في مصـر. وكثيرا ما كنت أضيف الى اسمي صفة المالكي نسبة الى مذهبي الفقهي، وهو مذهب الامام مـالك بن أنس . . . فضلا عن صفة « الحضرمي » لأن اسرتي ترجع الى اصل يماني حضرمي .

**صـــوت :** وكثيرا ما كانت تضاف الى اسمك في الكتب والرسائل المدونة في عصرك وبعده ، القاب ونعوت اخرى تنبىء عن وظيفتك او عن مكانتك العلمية او الدينية ، ومنها: الوزير، الرئيس، والحاجب ، والصدر الكبير، والفقيه الجليل. . .

**إبن خلدون:** . . . وعلامة الأمة ، وامام الأمة، وجمال الاسلام والمسلمين.

**صـــوت :** لقد اجتزت، يا سيدي الجليل، في حياتك، اربع مراحل تمتاز كل مرحلة منها بمظاهر خاصة من نشاطك العلمي والعملي . المرحلة الاولى ومدتها عشرون عاما

هجريا مرحلة النشأة والتلمذة والتحصيل العلمي ،
وتمتد من ميلادك سنة ٧٣٢ هجرية الى سنة ٧٥١،
وقد قضيتها كلها في مسقط رأسك تونس .. ألبس
كذلك ؟

إبن خلدون بلى ، يا سيدي ، والمرحلة الثانية ، وتستغرق خمسة
وعشرين عاما هجريا ، هي مرحلة الوظائف الديوانية
والسياسية وتمتد من اواخر سنة ٧٥١ هجرية الى
اواخر سنة ٧٧٦ هجرية، وقد قضيتها متنقلا بين بلاد
المغرب الادنى والاوسط والاقصى، وبعض بلاد
الاندلس. اليس كذلك !

صوت : ... بلى ، وقد استأثرت الوظائف الديوانية
والسياسية بمعظم وقتي وجهودي في اثناء هذه المرحلة
الا ان المرحلة الثالثة - اذا سمحت لي بالتعريف بها،
فكانت مرحلة التفرغ للتأليف ، وتمتد على نحو ثماني
سنوات ، من اواخر سنة ٧٧٦ هجرية الى اواخر سنة
٧٨٤ هجرية قضيت نصفها الاول في قلعة ابن سلامة
ونصفها الاخير في تونس. وقد تفرغت في هذه المرحلة
تفرغا كاملا لتأليف « كتاب العبر وديوان المبتدا
والخبر، في ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم
من ذوى السلطان الاكبر » .

... ويطلق الان على القسم الاول من هذا الكتاب
اسم « مقدمة ابن خلدون » وهو الاسم الذي
اشتهر وخلّدك . وهو يشغل مجلدا واحدا من سبعة
مجلدات يشغلها هذا الكتاب حسب طبعة بولاق
المصرية .

إبن خلدون : حسنا، اما تأليف هذا القسم في وضعه الاول فلم يستغرق الا خمسة اشهر فحسب . « ثم نقحته بعد ذلك وهذبته، والحقت به تواريخ الامم كما ذكرت في اوله وشرطته. وما العلم الا من عند الله العزيز الحكيم».

صوت : وأما المرحلة الرابعة، فهي مرحلة وظائف التدريس والقضاء، وتستغرق زهاء أربع وعشرين سنة وتمتد من أواخر سنة ٧٨٤ هجرية الى أواخر سنة ٨٠٨ هجرية قضيتها كلها في مصر . . . وهكذا تكون وفاتك في القاهرة في أواخر رمضان من العام ٨٠٨ هجري أو ١٤٠٦ ميلادي وتكون قد عشت ثلاثة أرباع القرن . . .

إبن خلدون وقد استأثرت وظائف التدريس والقضاء بأكبر قسط من وقتي وجهودي في اثناء هذه المرحلة .

صوت : حسنا، والآن دعنا نستعرض بايجاز أهم وقائع حياتك وأبرز وجوه نشاطك وبخاصة آثارك العلمية التي هي أبلغ دليل على عبقريتك الفذة، وفكرك الوقاد التقدمي المتطلع ابدا الى الجديد والمتفوق . . .

إبن خلدون انك، يا سيدي ، تخجل تواضعي بهذه الاوصاف . . يكفي ما ذكرته في التقديم في مستهل هذا اللقاء .

صوت : عفوا، يا شيخي ، فتلك هي الحقيقة . وليس ثمة اي مبالغة . ولكن ذلك غير مستغرب عنك فانت

تنهي كتابك كما بدأته متواضعا، شأنك في ذلك شأن العلماء الاصيلين في المنهجية الاكاديمية، فتقول معترفا بنهجك العلمي.

« عزمنا ان نقبض العنان عن القول في هذا الكتاب الاول الذي هو طبيعة العمران وما يعرض فيه . وقد استوفينا من مسائله ما حسبناه كفاية . ولعل من يأتي بعدنا ممن يوءيده الله بفكر صحيح وعلم مبين ، يغوص من مسائله على اكثر مما كتبنا . فليس على مستنبط الفن احصاء مسائله ، وانما عليه تعيين موضع العلم ، وتنويع فصوله، وما يتكلم فيه . والمتأخرون يلحقون المسائل من بعده شيئا فشيئا الى ان يكمل » .

صوت : مادمت قد ذكرت انك امام ومجدد في فن الترجمة الذاتية فهات ارو لنا سيرتك بنفسك كما جاءت في كتابك الشهير « التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا» .

إبن خلدون : «في تونس ربيت في حجر والدي الى ان ايفعت، وقرأت القرآن العظيم على الاستاذ ابي عبد الله بن نزّال الانصاري . ودرست عليه كتبا جمة مثل « كتاب التسهيل لابن مالك»، و « مختصر ابن الخطيب في الفقه » . وفي خلال ذلك تعلمت صناعة العربية على والدي . . .ولازمت ايضا مجلس امام المحدثين في تونس شمس الدين ابي عبد الله محمد ابن جابر . واخذت عن ابي عبد الله محمد بن

ابراهيم الايلي العلوم العقلية والمنطق وسائر الفنون الحكمية والتعليمية » .

صــوت : واستدعاك المستبد على الدولة يومئذ بتونس الى كتابة العلامة ، او ديوان الرسائل . وماذا عن حياتك في فاس ؟

إبن خلدون: لما خرج سلطان تونس لمحاربة ابي زيد ، صاحب قسنطينه، خرجت مع السلطان الأكبر ولكن انتصر ابو زيد ، ففررت الى مراكش . ثم استقدمني اليه ابو عنان ، سلطان فاس واستعملني في كتابته والتوقيع بين يديه . فلم ترقني هذه الوظيفة ، فاتصلت سرا بالامير محمد ، صاحب بجاية أدبر معه المؤامرة ضد ابي عنان .

صــوت : ولكن السلطان اكتشف المؤامرة ، فقبض عليك وسجنك وبقيت في السجن حتى موت السلطان ، فاطلقك الوزير الحسن بن عمر واكرمك . ولكنك اتصلت بمنصور بن سليمان القائم بأمر بني مرين وأعنته على حصار الوزير ابن عمر .

إبن خلدون: ثم تركت ابن منصور بن سليمان وتابعت السلطان ابا سالم الذي دخل فاس منتصرا سنة ٧٦٠ هجرية ، فاستعملني السلطان في كتابة سره والترسيل عنه ، ثم ولاّني خطة المظالم ، اي القضاء.

صــوت : وماذا عن رحلتك الى الاندلس ، ومتى كانت ؟

إبن خلدون: « جعلت طريقي الى الاندلس فاتح عام ٧٦٤ هجري

وكان سلطانها ابو عبد الله المخلوع او ابن الاحمر وحين وفد على السلطان ابي سالم بفاس واقام عنده ، حصلت لي معه سابقته، وصلة خدمة، من جهة الوزير ابي عبد الله بن الخطيب، لما كان بيني وبينه من الصحابة . . . وكتب للسلطان ابن الاحمر ووزيره ابن الخطيب بشأني . وقد اهتز السلطان لقدومي ، وهيأ لي المنزل في قصوره . ثم نظمني في علية اهل مجلسه » .

صوت : وماذا تحدثنا عن لقائك الطاغية بطره او بطرس الرابع القاسي ، ملك قشتاله يومئذ ؟

ابن خلدون : «سنة ٧٦٥ هجرية سفرت عن السلطان الاحمر لاتمام عقد الصلح ما بينه وبين ملوك العدوة فلقيت الطاغية بأشبيلية ، وعاملني من الكرامة بما لا مزيد عليه . وطلب المقام عنده وأن يرد عليّ تراث سلفي باشبيلية وكان بين زعماء دولته فتفاديت من ذلك بما قبله . ولم يزل على اغتباطه الى ان انصرفت عنه . فأقطعني قرية البيرة من أراضي السقي بمرج غرناطة . . . »

صوت : ثم لم يلبث الأعداء وأهل السعايات أن حملوا الوزير ابن الخطيب من ملابستك للسلطان واشتماله عليك وحركوا له جواد الغيرة على حد تعبيرك ، فتنكر لك وشميت منه رائحة الانقباض.

إبن خلدون : « وجاءتني كتب السلطان ابي عبد الله صاحب بجاية بانه استولى عليها، واستدعاني اليه ، فاستأذنت السلطان ابن الاحمر بالارتحال اليه . فودّع وزوّد وكتب لي مرسوما بالتشييع ».

صوت : ولكنك سئمت التطواف والمناصب ، وخفت عواقب السياسة ، فآثرت الاعتزال في قلعة سلاّمة شرق تلمسان ، فمكثت عند بني العريف اربع سنوات ، وبدأت بتأليف كتابك في التاريخ.

إبن خلدون: ولكنني احتجت الى مواد لكتابي هذا لم تكن متيسرة في قلعة سلاّمة ، فذهبت الى تونس سنة ٧٨٠ هجرية .

صوت : وفي سنة ٧٨٤ سرت الى الحج . ولكن ما ان وصلت الى مصر حتى عرض عليك القضاء على المذهب المالكي فقبلته . فماذا عندك في هذا الصدد عن هذه الفترة من حياتك ونشاطك في مصر ؟

إبن خلدون: « لما رحلت من تونس في منتصف شعبان من سنة ٧٨٤ اقمنا في البحر نحوا من اربعين ليلة ثم وافينا مرسى الاسكندرية واقمت فيها شهرا لتهيئة اسباب الحج ، ولم يقدر عامته ، فانتقلت الى القاهرة ، حاضرة الدنيا . . ولما دخلتها اقمت اياما ، وانثال عليّ طلبة العلم بها يلتمسون الافادة . فجلست للتدريس بالجامع الازهر منها ، ثم كان الاتصال بالسلطان . وبينما انا في ذلك اذ سخط السلطان قاضي المالكية في دولته ، فعزله وخصني بهذه الولاية ، فقمت بما دفع اليّ من ذلك المقام المحسود. . . »

صوت : . . . فكثر الشغب عليك من كل جانب ، واظلم الجو بينك وبين اهل الدولة . . .

إبن خلدون : « . . . ووافق ذلك مصابي بالاهل والولد ، وصلوا من المغرب في السفين ، فأصابها قاصف من الريح ، فغـرقت وذهب الموجـود والسكن والمولـود ، فعـظم المصـاب والجزع ، ورجـع الزهـد ، واعتزمت عـلى الخروج من المنصب . . . وشملتني نعمة السلطان ايدّه الله ، في النظر بعين الرحمة ، وتخلية سبيلي من هذه العهدة التي لم اطق حملها . فردها الى صاحبها الاول ، وانشطني من عقالها . . .»

صـوت : فذهبت الى الحج سنة ٨٧٩ هجرية ، ثم عدت الى القاهرة وانقطعت فيها الى التدريس حينا ، ثم عدت الى تولّي القضاء سنة ٨٠١ هجرية .

إبن خلدون : ولما غزا تيمورلنك سوريا ذهب الملك الناصر فرج ، ابن الملك الـظاهـر بـرقـوق الى دمشق ليفـاوضـه واصطحب معه العلماء ، وانا في جملتهم ، ولكن الناصر فرج اضطر الى العودة الى مصر لبلوغه خبر تدبير موءامرة عليه فحملت تبعة الامر ، وذهبت سرا عـلى رأس وفد لمفـاوضـة القـائـد المغـولي الاعـرج تيمورلنك في الصلح . وقد القيت بين يديه خطبة نفيسة ، فاكـرمني واعادني الى مصـر حيث تـولّيت القضاء بعد ذلك مرارا .

صـوت : ان لقاءك الشهير بالطاغية المغولي الاعـرج قد جـرّ عليك ، على ما نعلم ، الكثير من الاتهامات التي انصبّت على رأسك . فقد اتخذ اعداوءك من حديثك مع تيمورلنك دليلا استندوا اليه في اتهامك بالخيانة ،

وبأنك انسان على استعداد لبيع نفسك كل يوم الى سيد جديد .

إبن خلدون : كان لي اعداء كثيرون ، كما مرّ معنا ، ولطالما سعوا بي حتى ان بعضهم لم يتورع ذات مرة في ان يعيبوا عليّ انني اثناء اقامتي في مصر اتخذت مسكنا يطل على النيل . . أتصدق ؟

صـوت : لقد نسي اعداؤك انك كنت مؤرخا من ذلك الصنف من المؤرخين الذين يسعون الى الحقيقة في مواقعها ويستقونها من مصادرها الاولى . . . فما لنا ولهم ، ولنختتم هذه اللقاء الممتع حقا بتقييم آثارك العلمية ، في الاجتماع والتاريخ . هل لك ان تعطينا تعريفا لفن التاريخ كما فهمه من تقدّمك وكتب فيه ؟

إبن خلدون: «التاريخ في ظاهره لايزيد على اخبار الايام والدول ، ولكن جلّ من كتب في هذا الفن اخطأ ، إما في عدم التأكد من صحة ما سطّر ، او لعب الخيال دورا كبيرا لديهم . وكان ينقل لاحقهم عن سابقهم . غير ان موضوع التاريخ لم يعد يسرد اخبار السابقين ، بل اصبح خبرا عن الاجتماع الانساني الذي هو عمران العالم ، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الاحوال ، كما ان موضوعه دراسة شاملة للمجتمع البشري من مختلف نواحيه ونشاطاته الاقتصادية ، والفكرية ، والثقافية ، والسياسية ، وخصوصا محاولة تعليل كل هذه الظواهر الاجتماعية ، مع مراعاة تقدم المجتمعات وتطورها .

صـوت : والعلم هذا الذي اتيت به يختلف كما تقول عن علم الخطابة الـذي هو احد العلوم المنطقية ، وعن علم السياسة المدنية التي هي تدبير المنـزل او المدينـة بما يجب عمله حسب مبادىءالاخلاق والحكمة ، لذلك فـانت تعتقد انك اول من يتطرق الى علم العمران .

إبن خلدون : . . . اللهم الا اذا كان سبقني احد آخر ، ولم يصل ما قد يكون كتبه الى علمي ، او يكون اندثر ، كما اندثرت علوم الامم السابقة . . . اما علوم اليونان التي وصلت الى العرب عن طريق الترجمة ، فلم اجد فيها مثل هذا العلم الذي ابحث فيه .

صـوت : ولكن ما قولك في كتاب القاضي ابي بكر الطرطوشي «سراج الملوك » وقد بوّبه على ابواب تقرب من ابـواب كتابك ؟

إبن خلدون : الـطرطـوشي لم يصب الهـدف، وهـو ليس الا عــرض المسائل والاحـاديث، والاثار، وكلمـات متفرقـة لحكماء الفـرس والهنـد وغيــرهم، ولكن المقصـود هــو عرض البراهين الطبيعية لكل ذلك. . .

صـوت : احسب اننا أعطينا فكرة لا بأس بها عن مقـدمتك القيّمة ، ولم يبق امامنا الا ان اذكر لك بعض ما ردده احد كبار علماء عصرنا حول المقدمة ومزاياها ، وحول قيمتك العلمية التي تتجلى في سعة النظر ، وعمق البحث ، وقوة النفكير . ففي كتابه « دراسة التاريخ » يقول المؤرخ الكبير والاستاذ بجامعة اوكسفورد ارنولد توينبي :

« ان ابن خلدون في المقدمة التي كتبها لتاريخه العام قد ادرك وتصور وأنشأ فلسفة التاريخ . وهي بلا شك اعظم عمل من نوعه ، خلقه أي عقل في أيّ زمان ومكان » .

صـــوت : وهناك الكثير من هذه الاحكام التقييمية ليست المجال يتسع لايرادها ، ولكن الشهادة التي سمعناها قبـل لحظات تلخصها جميعا وتفي بالغـرض . . . والان استودعك الله . . وشكرا . .

إبن خلدون : لا شكر عـلى واجب ، يـاسيـدي ، ورافقتـك السلامة . . .

# مصادر الكتاب

## أبرز المراجع العربية


دائرة المعارف ............ بإدارة الدكتور فؤاد أفرام البستاني
تاريخ الحكماء (وهو مختصر الزوزني المسمى ........
بالمنتخبات الملتقطات من كتاب ..................
«إخبار العلماء بأخبار الحكماء» ... لجمال الدين أبي الحسن علي بن
.......................يوسف القفطي

شمس العرب تسطع على الغرب ..................
(أثر الحضارة العربية في أوروبا) . للمستشرقة الألمانية زيغريد هونكه
.......... ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي
روائع من التراث العربي ............ للدكتور أسامة عانوتي
الخالدون العرب .............. قدري حافظ طوقان
حي بن يقظان ............ جميل صليبا وكامل عيّاد
مع أبي العلاء في سجنه .............. طه حسين
زوبعة الدهور (أبو العلاء المعري) ............ مارون عبود
أبو العلاء المعري .............. إدوار البستاني
الكندي فيلسوف العرب .......... الدكتور أحمد فؤاد الأهواني
عبد الرحمن بن خلدون ........ الدكتور علي عبد الواحد وافي
الشيخ الرئيس إبن سينا ............ عباس محمود العقّاد
سلسلة «نوابغ الفكر العربي» ... منشورات «دار المعارف ببيروت»
ـ السهروردي ............ سامي الكيالي

ـ بديع الزمان الهمذاني ........................ مارون عبود
ـ إبن سينا ................ الدكتور أحمد فؤاد الأهواني
ـ أبو حيّان التوحيدي ............ الدكتور إبراهيم الكيلاني
ـ الفارابي ........................ سعيد زايد
ـ إبن المقفّع ................ حنا الفاخوري
ـ أبو الفرج الأصبهاني ................ شفيق جبري
ـ إبن رشد ................ عباس محمود العقّاد
ـ الجاحظ .................... حنا الفاخوري
ـ المسعودي .............. الدكتور علي حسني الخربوطلي

(فضلاً عن المقالات والأبحاث المبثوثة في الصحف والمجلات العربية التي لا سبيل إلى حصرها، وأكتفي أحياناً بالاشارة إليها وإلى كاتبيها في المتن).

# الفهرس
## ٣٩ من أعلام العرب
### ( أدب ، فكر ، علم )
### ( حسب التسلسل الزمني لتاريخ الوفاة )

# فهرس عـام للأجزاء الثلاثة

## الجـزء الأول

الفصـل الأول :

٢٥ من أعلام العلم

## الفصل الثاني

## ٢٥ من أعلام الأدب

الفصل الثالث

٩ من اعلام الريادة

# الجزء الثاني

## الفصل الرابع

### ٣٧ من أعلام الفن ( رسم ، موسيقى )

## الفصل الخامس

### ٦ من أعلام الفكر

## الفصـل السـادس

## ٥ من أعلام السيـاسـة

بيريكليس : عصر أثينا الذهبي
يوليوس قيصر : عالم يعيش في بشر احرار
ماكيافيللي : القوة السياسية الباردة
تاليران : الشيطان الاعرج
غاندي : رسول اللاعنف

## الفصـل السـابع

## ١١ من أعـلام الاصـلاح

بوذا : السلام الذي يكمن في الداخل
فرنسيس الاسيزي : منشد الله المتجول
فرانكلين : العبقرية المتعددة
برغ : رجل الرحمة
فرنسيس ويلارد : بائعة الرجاء المتجولة
فولرنس نايتنغيل : ملاك الجند الحارس
هنري دونان : الرجل ذو الرجاء الابيض
زامنهوف : أبو الاسبريرانتو
السرويليام اوزلر : أفضل أطباء العالم
شفايتسر : فيلسوف الادغال
ماريا مونتيسوري : « أماه ! »

## الفصل الثامن

## ٣٤ من أعلام العرب

## ( أدب ، فكر ، علم )

أبو الأسود الدؤلي مؤسس علم النحو
ابن المقفع : مصّمم النثر الفني ورائد الانشاد
جابر بن حاًن : الحجة في الكيمياء
موسى بن شاكر وبنوه الثلاثة: المتقدمون في العلوم
الخوارزمي : صاحب أعظم عقل في عصره
الكندي : فيلسوف العرب
الجاحظ : أبو الأدب العربي
أبو معشر البلخي : صاحب الاصابات العجيبة
ثابت بن قرّة : الحلقة الضرورية في تطور العلم العربي
البتّاني : احد العشرين فلكيا المشهورين في العالم كله
الرازي : أبو الطب العربي
الفارابي : فيلسوف العرب والمعلم الثاني
المسعودي : بلينوس أو هيرودونس الشرق
الأصبهاني : سَمْعُ عصره وبصُره
الهمداني : رائد القصة العربية والمقالة الصحفية
ابن يونس : مخترع رقّاس الساعة
ابو حيّان التوحيدي : فيلسوف الادباء وأديب الفلاسفة
ابن سينا : شيخ الأطباء والفلاسفة

| | |
|---|---|
| ابن الهيثم | : أعظم عقلية عرفها التاريخ |
| البيروني | : منشىء علم الضوء الحديث |
| ابو العلاء المعري | : رهين المحبسين |
| ابن حزم | : مجموعة المواهب والعبقريات |
| الغزّالي | : حجة الاسلام وزين الدين |
| إبن زُهْر | : اسرة أندلسية نابغة في الطب والادب والشعر والسياسة |
| ابن باجة | : إمام علماء الأندلس وأول مشاهير الفلاسفة العرب فيها |
| ابن طفيل | : أحد أصحاب الكفايات النادرة |
| السهروردي | : مبدع الفلسفة الاشراقية |
| إبن رشد | : شارح المعلم الأول |
| ابن البيطار | : إمام النباتيين وعلماء الأعشاب |
| الطوسي | : العلامة وأكبر رياضيي العرب |
| ابن أبي أصيبعة | : عيون الأنباء في طبقات الأطباء |
| ابن النفيس | : مكتشف الدورة الدموية الصغرى |
| ابن منظور | : لسان العرب |
| إبن خلدون | : أوَل فلاسفة التاريخ |

طبع على مطابع

**مؤسسة عز الدين**

للطباعة والنشر

---

هاتف : ٨٣١٦٤٠ - ٨٠٠٦٢١ - ٨٦٢٤١٤ - ٨٦٢٠٥١

ص.ب: ١٣/٥٢٥١ بيروت - لبنان

١٥٢

# من أعلام الحضارة

## لقاءات في حوار

مع

٢٥ من أعلام العلم

٢٥ من أعلام الأدب

٩ من أعلام الريادة

٣٧ من أعلام الفن

٦ من أعلام الفكر

٥ من أعلام السياسة

١١ من أعلام الإصلاح

٢٤ من أعلام الحرب

